إسماعيل كاداريه

# قصر الأحلام

8.4.2017
@ketab_n
Follow Me

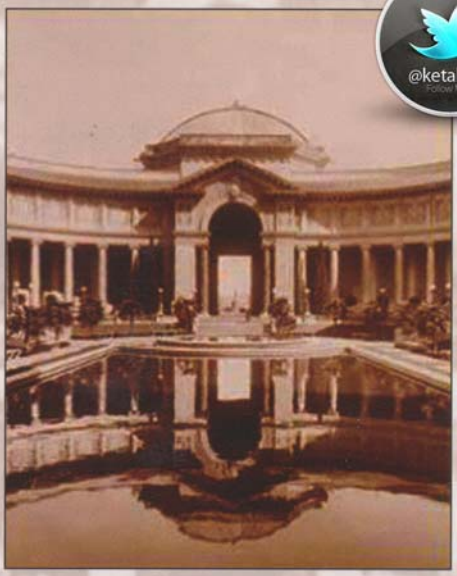

ترجمة

حياة عطية الحويك

منشورات الجمل

رواية

إسماعيل كاداريه

# قصر الأحلام

رواية

ترجمة

حياة عطية الحويك

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

إسماعيل كاداريه: قصر الأحلام

Twitter: @ketab_n

إسماعيل كاداريه، **قصر الأحلام (رواية)**، ترجمة: حياة عطية الحويك،
الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت ـ بغداد ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Ismail Kadare: Le Palais des Reves
©1990, Librairie Arthème Fayard

*©Al-Kamel Verlag 2016*
Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

*Twitter: @ketab_n*

# I

# الصباح

كانت الستائر تسمح لنور الفجر المرتجف، بالعبور من خلالها. وكعادته، رفع غطاءه فوق رأسه كي يكسب فترة إضافية من النوم. لكن الأمر لم يطل به ليتأكد من أنه لن يستطيع ذلك. فلقد كانت فكرة أن هذا الفجر الذي بزغ، ينبئه بنهار غير عادي، كافية لأن تنتزع من نفسه أية رغبة في النوم.

وبعد لحظة، كان يشعر وهو يفتش عن بابوجه أمام السرير، بأن ابتسامة ساخرة صغيرة قد ارتسمت على وجهه الذي ما يزال خدراً. كان ينتزع نفسه من غفوته، كي يذهب لاستلام مهامه في (سرايا طابير)، المكتب الشهير الذي يهتم بشكل خاص بالنوم والأحلام، وهذا ما كان يكفي لإثارة ابتسامة هازئة خاصة عند أي شخص آخر. أما هو فيشعر بضيق أكبر من أن يسمح له بابتسامة واضحة.

كانت رائحة الشاي والخبز المحمص اللذيذة تتصاعد من الطابق السفلي. وكان يعلم بأن أمه ومربيته العجوز كانتا تنتظرانه باستعجال، ولقد حرص على أن يحيّيهما بأكبر قدر ممكن من الحرارة.

- صباح الخير يا أمي. وصباح الخير يا لوك.
- صباح الخير، مارك عليم، هل نمت جيداً؟



Twitter: @ketab_n

ويقرأ في عيونهما أيضاً ذلك الانفعال الخفيف المرتبط بطريقة ما بتعيينه في وظيفته الجديدة. . . ربما قالتا في نفسيهما ـ كما قال هو منذ لحظة يسيرة ـ بأنها كانت الليلة الأخيرة التي استطاع خلالها أن يذوق طعم النوم العادي، كسائر البشر البسطاء، فهو لا يشك أبداً في أن شيئاً ما سيتغير في حياته من الآن فصاعداً.

تناول فطوره دون أن يتمكن من تركيز فكره على شيء، بينما كان قلقه يتنامى، ثم صعد إلى الطابق العلوي ليرتدي ثيابه، لكنه بدلاً من أن يدخل غرفته، دخل إلى الصالون الكبير، وكان يبدو وكأن السجادة التي تغلب فيها الألوان الزرقاء الباهتة، قد فقدت قدراتها المهدئة. توجّه نحو المكتبة ـ وكما فعل أمس أمام خزانة الأدوية ـ ظل فترة طويلة منزرعاً في مكانه يتأمل العناوين على ظهور الكتب. ثم مدّ يده اليمنى ليسحب إليه كتاباً نصفياً ثقيلاً، مجلداً بجلد بنّي غامق (أسود تقريباً). منذ سنوات طويلة، لم يفتح مارك عليم هذا المجلد الذي يضم تاريخ أسرته، والذي يحمل غلافه عنواناً مخطوطاً باليد ـ الله وحده يعلم بأية يد ـ «آل كوبريللي من الأب إلى الابن» وتحتها بالفرنسية كلمة: (قصة واقعية).

وبينما كان يقلّب الصفحات كان يجد صعوبة في تركيز نظره على الأسطر المخطوطة التي كانت تتغير كتابتها من مكان إلى آخر، وتتغير اليد التي كانت قد خطّتها. ولم يكن من الصعب التكهن بأن غالبية هذه الأيدي، قد كانت أيدي عجائز أو على الأقل أيدي أناس في مغرب عمرهم، أو ممن هم على عتبة تعاسة كبيرة، حين تبرز الحاجة الملحّة إلى ترك بعض الشهادات وراءهم.

أول شخص كان قد تولّى منصباً هاماً في الإمبراطورية من عائلتنا



Twitter: @ketab_n

الكبيرة كان (ميث كوبريللي)، المولود قبل ثلاثمائة سنة في قرية صغيرة في ألبانيا الوسطى.

تنهّد مارك عليم تنهُّدة عميقة. كانت يده تستأنف تصفّح الكتاب الصغير القطع، لكن عينيه لم تكونا تتوقفان إلّا عند أسماء الوزراء والجنرالات: يا إلهي! كلهم من أسرة (كوبريللي) يقول في نفسه وهو الذي كان بليداً بما فيه الكفاية، ليفرح، عند استيقاظه في الصباح، بتعيينه في وظيفته الجديدة. وفكّر في نفسه أنه فعلاً أبله، بل والأكثر بلاهة!

وعندما وقعت عيناه على كلمات «قصر الأحلام»، أدرك أنه كان قد فتّش عنها وتجنّبها في الوقت نفسه، لكن الأوان كان قد فات أكثر مما ينبغي ليقلب الصفحة.

إن علاقات أسرتنا مع «قصر الأحلام»، كانت دائماً علاقات بالغة التعقيد. ففي البداية، أيام (سرايا يلدز)، التي لم تكن تهتم إلّا بقراءة النجوم، كان الأمر أكثر بساطة. ولم تبدأ الأمور بالتردي إلّا بعد ذلك، ومع تحوّل هذا الأخير إلى (طابير سرايا).

وبعد أن بدّد هذا الجيش من الأسماء والألقاب قلقه قبل لحظات، عاد هذا القلق ليضغط على عنقه من جديد.

ويعود إلى تصفّح السيرة، ولكن بسرعة، وفوضى، هذه المرة، وكأن ريحاً عاصفة أخذت تهبّ من أطراف أصابعه.

إن اسم عائلتنا ليس إلّا ترجمة للكلمة الألبانية (أورا) (كيبديجا أو كوربيجا)؛ وهي تؤشر إلى جسر ذي ثلاث قناطر يقع في ألبانيا الوسطى، بُني في الفترة التي كان فيها الألبان ما يزالون مسيحيين، ودفن في أساساته رجل، ولقد عمل أحد أجدادنا المسمى (جون) في



Twitter: @ketab_n

بناء الجسر وحمل بعد الانتهاء من ذلك، دون الآخرين، علامة الجريمة التي ظلّت مرتبطة به اسم «أورا».

أقفل مارك عليم الكتاب من جديد بضربة خاطفة وترك الصالة بالحركة الفجائية ذاتها، وبعد لحظات فقط، في الشارع.

كان صباحاً رطباً. وكان مطر خفيف يتساقط ممزوجاً بالثلج. وكانت المباني الضخمة التي تشرف من أعلى على حركة الشارع، ببواباتها الثقيلة، وبمصاريعها التي ما تزال مقفلة، تبدو وكأنها تزيد في رمادية بداية النهار تلك.

لبس مارك عليم معطفه، وأقفل أزراره، حتى آخر زرّ كان يضغط على العنق، واتجه بنظره إلى المصابيح المصنوعة من الحديد المطرّق التي تتطاير حولها ندف ثلج دقيقة منثورة، وأحس بقشعريرة تسري في جسده.

وكالعادة في مثل هذه الساعة، كان الحي يغصّ بموظفي الوزارات الذين يحثون الخطى للوصول إلى مكاتبهم في الوقت المحدد، ولقد تساءل مرتين أو ثلاثاً خلال الطريق عما إذا لم يكن من الأفضل له أن يركب «نيكر» أي عربة جياد. فالمسافة حتى (سرايا طابير) كانت تبدو له أطول مما كان قد تخيّل، إضافة إلى أن أرض الرصيف، المغطاة بطبقة رقيقة من الثلج الذائب نصفياً، كانت زلجة، تهدّد بالانزلاق.

ها هو الآن يحاذي البنك المركزي، وعلى مسافة أبعد قليلاً كان رتل من العربات الفخمة يصطف أمام مبنى آخر مهيب. تساءل: ترى في أية وزارة يمكن أن يكون؟

أحد المارة يتزحلق أمامه على الرصيف من دون أن يتركه بنظره، رآه يترنّح لحظة قبل أن يسقط، ثم يعود فينهض، ناظراً حواليه،


Twitter: @ketab_n

شاتماً، وهو يصر أسنانه، شاله المتسخ، والمكان الذي كان قد انزلق فيه. ثم يتابع طريقه بخطى منذهلة... افتح عينيك! قال مارك في نفسه، دون أن يدري ما إذا كان يوجّه ذلك التنبيه للرجل المجهول أم لنفسه.

في الحقيقة، لم يكن لديه أي سبب للقلق؛ ولم يسبق لهم أن حدّدوا موعداً معيناً للمقابلة في ذاك المكتب، حتى إنه لم يكن متأكداً من أن عليه المثول في الصباح. وينتبه فجأة إلى أنه ليست لديه أية فكرة عن مواعيد الدوام في (سرايا طابير).

في مكان ما، إلى يساره، هناك في الضباب، ترسل ساعة رنيناً برونزياً، كما لو أنها ترسله لنفسها. يحث خطاه، كان قد رفع قبة فراء معطفه، لكنه بطريقة آلية يقوم بحركة لرفعها من جديد... والواقع أنه لم يكن يستشعر البرد في رقبته وإنما في نقطة محدَّدة من صدره. دسَّ يده في جيب سترته الداخلي ليتأكَّد من أن كتاب التوصية ما يزال هناك.

وللحظة، أحسّ بأن المارّة قد أصبحوا أكثر ندرة. وفكّر بقلق بأن الموظفين ربما يكونون قد أصبحوا هم في مكاتبهم. ولكنه ما لبث أن اطمأن، فالواقع أن وضعه كان ما يزال مختلفاً تماماً عن وضعهم، فهو لم يصبح موظفاً بعد.

من بعيد، اعتقد أنّه يميّز جناحاً من (سرايا طابير). ما إن اقترب منها حتى تأكَّد انطباعه أنه القصر بعينه، بقببه المبلّلة التي يبدو أن لونها كان فيما مضى أزرق، أو على الأقل يميل إلى الزرقة، والتي كان من الصعب، بعد الآن تبيُّنها من خلال المطر الممزوج بالثلج. كان جانباً من جوانب المبنى. أما الواجهة فإنها تطل على الشارع المجاور.



Twitter: @ketab_n

اجتاز ساحة صغيرة شبه مقفرة كان ينتصب فيها مسجد ارتفعت مئذنته باتساق غريب. كان مدخل القصر من هذه الجهة بالفعل، وكان جناحاه يضيعان في الرذاذ، بينما كان الجزء المركزي من المبنى يتراجع قليلاً إلى الوراء، كما لو أنه كان قد تراجع أمام تهديد ما. أحسّ مارك عليم بأن قلقه يتزايد. كانت سلسلة طويلة من المداخل المتشابهة تتتابع، لكنه لاحظ عند اقترابه منها، أن أبوابها الكبيرة ذات المصاريع المبتلة كانت مقفلة، وكانت تبدو وكأنها لم تفتح منذ أمد طويل.

جانب وهو يتفحّص بطرف عينه، هذه السلسلة من الأبواب المسدودة. فجأة ظهر أمامه تماماً من حيث لا يُعرف من أين، رجل مغطّى الرأس.

- من أين ندخل؟ سأله مارك عليم. مدّ الرجل يده إلى يمينه، وكان كمّ معطفه واسعاً لدرجة أنه لم يؤدّ قط إلى الإشارة التي قامت بها اليد وجعلته ينحسر عن اليد الممدودة. يا إلهي، أي زي مضحك، قال مارك في سره، وهو يسير في الاتجاه الذي حدّدته اليد التي كانت تبدو ضائعة في هذا الكم الواسع المفرط. وبعد لحظة قصيرة، سمع من جديد خطوات قربه، كان هو الرجل المعتمر الغطاء نفسه.

قال له:

- من هنا، إن مدخل الموظفين هو من هذا الجانب.

أحس مارك بالفخر لأنه عومل كموظف. وأخيراً وجد نفسه أمام المدخل، كانت المصاريع تبدو ثقيلة جداً، أربعة أبواب متشابهة تماماً حتى في قبضاتها البرونزية الثقيلة، دفع أحدها، وفوجئ بأنه بدا خفيفاً


Twitter: @ketab_n

أكثر مما توقّع. ووجد نفسه داخل صالة باردة، ذات سقف عالٍ جداً، لدرجة جعلته يشعر أنه في قعر حفرة هائلة.

في كل الاتجاهات، كانت تتلاحق سلسلة من الأبواب، التي يجرِّب مارك أن يدير مقابضها إلى أن ينفتح معه أحدها، ويجد نفسه داخل صالة أخرى أقل برودة. أخيراً، رأى من وراء زجاج، أناساً يجلسون في دائرة ويتحدثون. لا بدّ أنهم الحجّاب، أو على الأقل موظفون مكلفون بالاستقبال، إذ إنهم يرتدون نوعاً من الكسوة الموحّدة ذات اللون الأزرق الباهت... لون قريب من لون قباب القصر. وللحظة ظن مارك أنه تبيّن على ثيابهم بُقعاً تشبه تلك التي لاحظها من بعيد، على القباب، والتي ربما يعود سببها إلى الرطوبة. لكنه لم يملك الوقت الكافي لمتابعة ملاحظته، لأنهم قطعوا حديثهم ورفعوا إليه نظرات متسائلة. فتح شفتيه ليلقي عليهم تحيّة الصباح، لكن انزعاجهم من قطع حديثهم، كان واضحاً إلى الحد الذي جعله يكتفي بلفظ اسم الموظف الذي كان عليه أن يقدّم نفسه له.

- آه. من أجل وظيفة؟ الطابق الأول، الباب رقم ١١.

وكأي شخص يجتاز للمرّة الأولى عتبة إدارة رسمية هامّة، إضافة إلى أنه جاء إلى هنا وقد تجمّد قلبه من التردّد، كان يجب أن يتبادل كلمتين مع أي منهم، قبل أن يتورّط أكثر. نفد صبر هؤلاء الناس فعادوا إلى ثرثرتهم الملعونة ما جعله يشعر وكأنهم يدفعونه إلى الممر الداخلي.

من ورائه سمع صوتاً يقول: إنه هناك، إلى اليمين! ودون أن يدير رأسه مشى في الاتجاه الذي حدّد له. وحدها انفعالاته، والقشعريرة التي كانت تجتاح جسده، منعته من أن يشعر بالغيظ.

كان الممرّ طويلاً، ومظلماً، تطل عليه عشرات الأبواب العالية


Twitter: @ketab_n

وغير المرقمة. عدّ منها عشرة وتوقف أمام الحادي عشر، كان يريد أن يتأكّد، قبل أن يقرع، أن هذا الباب هو بالضبط باب الموظف الذي يريد. لكن الممر كان خالياً، سحب نفساً عميقاً، مد يده، وطرق الباب خفيفاً. لم يأته أي صوت من الداخل. نظر إلى يمينه، إلى يساره، ثم طرق الباب من جديد، أقوى هذه المرة. أيضاً لا جواب. قرع مرة ثالثة، وعندما لم يسمع شيئاً، دفع الباب. يا للغرابة! انفتح دون جهد... مذعوراً، باشر إغلاقه، بل مدّ ذراعه كي يمسك بالدفة التي تستمر في الدوران حول محورها مصدرة صريراً. لكنه لاحظ أن القاعة خالية، تردّد... هل يدخل؟ لم يحضر في ذهنه أي تدبير أو تصرّف ملائم لوضع مشابه. توقّف الباب عن الصرير نهائياً. وظلّ هو يتأمّل بعينين مبحلقتين، المقاعد المصفوفة إلى حائط هذا المكتب الفارغ. ظل لحظة على العتبة، ثم مدّ يده إلى كتاب التوصية، فأعادت إليه هذه الحركةُ الشجاعةَ. دخل... قال في نفسه: أي شيطان! وتراءى في ذهنه بيته الكبير في الشارع الملكي، وأقرباؤه المتنفِّذون الذين يجتمعون بعد العشاء في القاعة الفسيحة، ذات المدخنة العالية، وبحركة أكثر انطلاقاً اتخذ مكاناً على أحد هذه المقاعد. ولسوء الحظ، فإن صورة أهله وبيته، لم تلبث أن غادرته بسرعة، وعاد يحسّ بسيطرة القلق الأول. تبيّن سمعه ضجّة مخنوقة، كأنها وشوشة، لم يتوصل لأن يحدد مصدرها، جال نظره في أرجاء القاعة، وتوقف عند باب يفتح جانباً. وكان يبدو أن أصواتاً تأتي من ورائه. ظلّ لحظة بدون حراك، يصيخ السمع، لكن الجلبة ظلّت مبهمة. وكان قد ركّز كل اهتمامه، حالياً، على هذا الباب، وهو يفكّر، دون أن يفهم لماذا، بأن الجو وراءه لا بدّ أن يكون حاراً.

أسند يديه إلى ركبتيه واستمر في هذا الوضع لبرهة طويلة... على



Twitter: @ketab_n

أية حال، لقد توصل إلى أن يدلف، بدون عناء كبير، إلى داخل هذا المبنى، الذي لا يدخله إلا القلة... فالوزراء أنفسهم ـ كما يقال ـ يجب أن يحصلوا على إذن خاص لدخوله. لمرتين أو ثلاث، أدار وجهه نحو الباب الذي كانت تأتي منه الضجة، لكنه كان يشعر بأنه كان يستطيع أن يظل هنا ساعات، وربما أيّاماً كاملة، دون أن ينهض ليفتحه. وظلّ ينتظر، جالساً على هذا المقعد، شاكراً الحظ الذي سمح له بالوصول حتى هذه الغرفة الجانبية. لم يفكّر أبداً بأن الأمور ستسير بهذه البساطة. لكنه لا يلبث أن يلوم نفسه، بلى، سير في الرذاذ، بضع بوابات مغلقة، عمّال بثياب نحاسية اللون، وغرفة الانتظار الفارغة هذه، كل هذا، لم يكن في العمق، معقّداً جداً.

ومع ذلك فإنه يترك زفرة طويلة تنطلق، دون أن يدري لماذا.

في هذه اللحظة، انفتح الباب ونهض واقفاً. أطلّ أحدهم برأسه، نظر إليه واختفى من جديد، تاركاً الباب شبه مفتوح، ومن الجهة الأخرى، سمعه يقول:

ـ هناك شخص ما في غرفة الانتظار.

لم ينتبه إلى مدى الوقت الذي مضى عليه في الانتظار، فلقد ظل الباب مشقوقاً، ولم تعد الأصوات التي يسمعها الآن، أصواتاً بشرية، وإنما قرقعة غريبة.

والرجل الذي ظهر أخيراً، كان قصير القامة، ويحمل في يده رزمة من الورق، جذبت جزءاً كبيراً من اهتمام مارك عليم، (ولحسن الحظ، قال في سرّه).

لكن الرجل رماه بنظرة متفحّصة، رغم كل شيء، وكاد مارك أن يعتذر له بطريقة ما، عن أنه جعله يخرج من مكتبه، (المدقّأ جيداً بالتأكيد)... لكن نظرة الرجل القزم ألزمته الصمت. ووحدها يده


Twitter: @ketab_n

تحركت لتخرج من جيبه رسالة التوصية، وتمدّها إليه. مدّ الآخر أيضاً يده ليأخذها، لكنه استرجعها بسرعة، وكأنه خاف أن تحرقه، واكتفى بأن قرّب رأسه من الورقة، التي جال عليها بنظره لمدة ثانيتين أو ثلاث، ثم تراجع إلى الوراء، وأحسّ مارك عليم بأنه رأى في عينيه وميضاً ساخراً.

- اتبعني - قال له الرجل - وهو يتوجه نحو الباب المؤدي إلى الممر.

خرج أولاً، وتبع مارك خطاه. في البداية كان يحاول أن يرسم في ذهنه الطريق التي يسلك، كي يعرف من أين يعود عند الخروج، لكنه أدرك بسرعة أنه سيكون من العبث إجهاد الذاكرة بذلك.

كان الممر أيضاً، أكثر طولاً مما بدا له. ولا يأتيه إلّا إضاءة ضعيفة من الممرات المتفرعة على جانبيه، والتي انتهى الرجلان إلى الانعطاف داخل أحدها. إلى أن توقف الرجل الآخر، في لحظة معينة، أمام أحد الأبواب، ودخل، تاركاً الدفة مفتوحة جزئياً أمام الزائر الذي تردد، لثانية، في الدخول، لكن الآخر أشار له بأن يتبعه، ففعل.

وقبل أن يحسّ بدفء الغرفة، اشتمّ رائحة الفحم المنبعثة من منقل نحاسي كبير يتوسط القاعة.

وراء طاولة خشبية، كان يجلس رجل عابس، مستطيل الوجه، وراود مارك عليم إحساس بأن هذا الرجل كان يركّز نظره على الباب وكأنه ينتظرهما، حتى قبل أن يجتازا العتبة.

اتجه الرجل القزم، الذي أصبح مارك يعتبر أنه كسر الجليد بينهما، إلى الرجل الجالس، وهمس شيئاً ما في أذنه، بينما ظل هذا مسمّراً نظره على الباب وكأنما ما زال هناك من يطرقه. أنصت برهة


Twitter: @ketab_n

أخرى إلى وشوشة الموظف في أذنه ثم تلفّظ ببضع كلمات دون أن يحرك أي خط من خطوط وجهه.

قال مارك عليم في سره بأن جهوده كلها في طريق الإجهاض، وأن كتاب التوصية، وكل الوساطات الأخرى، ليست ذات وزن يذكر أمام هاتين العينين اللتين يبدو، بغرابة، أنهما لا تتآلفان إلا مع الباب.

فجأة سمع كلمات توجه إليه، وامتدت يده تتحسس بطانة معطفه، وتسحب كتاب التوصية. لكن لم يلبث أن داهمه الإحساس بأن تصرّفه هذا قد عكّر الجو. ولمع في ذهنه أنه قد يكون أخطأ السمع، وهمّ بإعادة الظرف إلى جيبه، لكن يد الموظف امتدت نحوه في ذات اللحظة، فاطمأن وقدّمه إليه، غير أن اطمئنانه بدا سابقاً لأوانه، حيث إن يد الرجل لم تلامس الظرف، بل رسمت في الهواء خطاً وهمياً يدلّه على الطريق التي يجب أن يسلكها الكتاب حتى يصل إلى هدفه.

مندهشاً بعض الشيء، فهم مارك أخيراً، أن عليه أن يوصله بنفسه إلى الموظف الآخر، الذي لا بد وأن تكون رتبته أعلى من رتبة مرافقه. أخذ الموظف الأعلى الكتاب، بفضول، ثم حوّل نظره عن الباب (ولم يكن مارك يتمنى شيئاً أكثر من ذلك) ليفضه، وينشغل بتبيّن محتواه. كان يقرأ ومارك لا يفارقه بنظره على أمل التقاط أي تعبير يرتسم على ملامحه. لكن ما انتابه عندها كان شيئاً بدا له مخيفاً تماماً.

أحسّ أن رعباً أخرس يتنامى في ذاته، كذاك الذي تسببه الهزات الأرضية عادة. والواقع أن ما أحس به كان نتيجة حركة مسرحية ما. فلقد نهض الموظف ببطء، من كرسيه، وهو يتابع قراءة الكتاب، كانت حركته بطيئة جداً، ومنتظمة جداً، بشكل جعل الرعب يمتلك مارك، بسبب هذا البطء وهذ الانتظام، وجعله يقول في نفسه إن هذه الحركة لن تتوقف أبداً، وإن هذا الموظف الخطير الذي يتعلق به


Twitter: @ketab_n

مصيره سوف يتحوّل أمام عينيه إلى طاغية. ووجد نفسه يكاد يصرخ: كفى، أنا لا أريد هذه الوظيفة، أعد إليّ كتابي، لا أستطيع أن أتحمّل رؤيتك تنهض هكذا، لكن الموظف كان قد أصبح الآن واقفاً تماماً.

منذهلاً، لاحظ مارك عليم أن الآخر كان متوسط الطول. تنفّس عميقاً، لكن عزاءه بدا سابقاً لأوانه. إذ إن الموظف، ما إن وقف على قدميه، حتى أخذ يبتعد عن مكتبه بخطوات نظامية، ويتجه نحو وسط الغرفة.

ويبدو أن المستخدم الذي رافق مارك عليم كان يتوقع هذه الحركة حيث إنه قد ابتعد ليفسح الطريق أمام رئيسه. الآن أحس مارك أنه مطمئن كليّاً، فليست هذه سوى مجرد حركة جسم تيبّس نتيجة الجلوس الطويل، أو أنه يشكو من الباسور أو النقرس. وأنا كدت أطلق صرخة خوف! ـ قال مارك لنفسه ـ أجل، الحقيقة أن أعصابي منهارة جداً هذه الأيام!

ولأول مرّة، منذ الصباح، استعادت نظرته ثقتها المعهودة، لتواجه نظرة الآخر.

الموظف ما يزال يحمل كتاب التوصية بيده ومارك ينتظر أن يقول له: «أنا على علم بالموضوع... سوف تعيّن»، أو أن يعطيه، على الأقل، بعض الأمل، أو وعداً ما للأسابيع أو الأشهر المقبلة، ألم يتكبّد أعمامه الخسارة الحقيقية منذ شهرين كي يرتّبوا هذا الموعد؟ ثم إن هذا الموظف الذي شعر مارك أمامه بالخوف، دونما سبب، قد تكون له مصلحة في الإبقاء على علاقات طيبة مع عائلة مارك المتنفذة، أكثر من مصلحة مارك في اجتذاب رضاه. وأحس الآن، وهو يراقبه، بأن جلد وجهه يتغضن ليرسم ابتسامة كان سيتركها تتسع، بالتأكيد، لو لم يمحها تطور جديد، غير متوقع. فلقد توقف الموظف


Twitter: @ketab_n

أمامه، وطوى الرسالة، وفي اللحظة التي توقع فيها مارك أن يسمع منه بعض العبارات الجميلة، مزّقها إلى أربع قطع. ارتجف مارك، وتحرّكت شفتاه كما لتطرح سؤالاً ما، أو ربما لتتنشق بعض الهواء. لكن الموظف، وكأن الحركة الأولى لم تكفه، اتجه نحو الموقد، ورمى فيه المزق.

تصاعد لهيب شيطاني بطيء من الجمر الخامد، الباهت تحت طبقة الرماد، لينطفئ بعد لحظة تاركاً تحته قطع الرسالة المتكلّسة.

وبصوت ذكّر مارك بضربات الساعة الضائعة في أحشاء الليل، قال الموظف:

- في (سرايا طابير)، لا تُقبل كتب التوصية.

كان مرعوباً، لا يدري ماذا عليه أن يفعل: يظل هنا أيضاً، يعود أدراجه، أو يقدّم أعذاراً ما؟ وكأنما قرأ المستخدم المرافق ما جال في فكره، فخرج تاركاً إياه وحيداً مع الموظف. كانا وجهاً لوجه، يفصل بينهما الموقد. لكن أمد هذه الوظيفة لم يطل، فلقد عاد الموظف، وبذات الخطى النظامية البطيئة التي أحس مارك أنها لن تنتهي، إلى مكتبه، لكنه لم يجلس، واكتفى بأن يقف متهيئاً كمن يستعد لإلقاء خطبة، وبعد أن نقّل نظره بين الباب ومارك عليم قال:

- «في سرايا ـ طابير، لا تُقبل التوصيات، فذاك مخالف جذرياً لروح هذه المؤسسة».

لم يكن مارك يفهم شيئاً من هذه الكلمات، لكن الرجل تابع:

- «إن الأسس التي تقوم عليها (سرايا طابير)، لا تكمن في الانفتاح على التأثيرات الخارجية، وإنما في الانغلاق عنها، في العزلة لا في الانفتاح، وانطلاقاً من ذلك، لا للتوصيات، بل تحديداً


Twitter: @ketab_n

لعكسها... ورغم كل ذلك فأنت منذ اليوم موظّف في هذا القصر».

ما الذي يحدث لي؟ قال مارك عليم في نفسه. وكأنما ليتأكد من الأمر مجدداً، استدار بنظره يتأمل بقايا الرسالة المتكلّسة فوق الجمر الناعس.

- أجل. اعتباراً من هذه اللحظة، أنت معيّن هنا.

هذا ما يكرره الموظف، الذي يبدو أنه لاحظ نظرة مارك المندهشة. ثم تنفّس بعمق، وبعد أن اتكأ بيديه على الطاولة (لم يكن مارك قد لاحظ حتى هذه اللحظة أنها مليئة بالملفات) بدأ الكلام:

- إن (سرايا طابير)، أو قصر الأحلام كما يسمّونها هذه الأيام، هي واحدة من أهم مؤسسات دولتنا الإمبراطورية الكبرى.

صمت لحظة، متفحّصاً مارك عليم كأنما ليقدّر مدى كفاءة القادم الجديد، على فهم معنى كلماته. ثم تابع:

- منذ زمن طويل اعترف العالم بأهمية الأحلام ودورها في استشراف مصائر الدول والذين يحكمونها. لا بد أنك سمعت عن كاهنة عرّافة دلفي لدى الإغريق القدماء، وعن العرّافين المشهورين عند الرومان، والأشوريين، والمنغوليين، وغيرهم... وكثيراً ما نجد الكتب القديمة تذكر أحياناً النتائج المفيدة لتنبؤاتهم، عندما كانت تسمح باستباق المآسي، كما تذكر أحياناً أخرى الثمن الذي كلّفه عدم الإيمان بها، أو التأخّر في حصوله. إنها باختصار تذكر جميع الوحدات التي استشرفت مسبقاً، والتي حوّر مجراها أولاً بناء على بروز مثل هذه العلامات.

لا ريب أنه كانت لهذا التقليد العريق أهميته. لكنها أهمية تبدو مضحكة، بالمقارنة مع عمل (سرايا طابير). إن دولتنا الإمبراطورية،


Twitter: @ketab_n

هي بذلك، الأولى في التاريخ العالمي، التي ارتقت بتفسير الأحلام إلى درجة بهذا العلو، وذلك بمؤسستها.

كان مارك عليم يستمع إلى كلام الموظف الكبير. لم يكن بعد قد استعاد نفسه من انفعالات هذا الصباح. لكن كل هذه الجمل المتسارعة المتدفقة، والمعقدة في الوقت نفسه، كانت هي الأدهى.

- إن دور قصر الأحلام، الذي أنشئ بعناية السلطان الحاكم، يتمثّل في تصنيف، وتفحّص، ليس فقط الأحلام المعزولة لبعض المواطنين كأولئك الذين، لسبب أو لآخر، كان يختص بهم بالأمس هذا الامتياز، ويركّز حولهم عمل المتنبئين، وقراءة الإشارات الإلهية، بل الطابير العام، أو لنقل مجموع الأحلام لمجموع المواطنين، بدون استثناء.

إنه مشروع عظيم، تبدو أمامه عرّافات دلفي، وساحرات الماضي، وفرق الأنبياء، باهتة.

إن فكرة السلطان بإنشاء الطابير العام، تعتمد على كون الله يطلق فوق سطح الكرة الأرضية حلماً يحمل نبوءة ما، بنفس العفوية والبساطة التي يطلق فيها شعاعاً ضوئياً، أو يرسم فيها قوس قزح، أو يقرّب منا مذنّباً لا ندري من أي بُعد في أعماق الكون جاء به. إنه يقذف إشارة إلى هذا الكون، دون أن يهتم بمكان وقوعها، لأنه بما هو عليه من بُعد، لا يستطيع أن يهتم بهذا النوع من التفاصيل.

لذا فمن مهمتنا نحن أن نكتشف مكان وقوع هذا الحلم، وأن نميّزه من بين ملايين ومليارات الأحلام الأخرى، كما نبحث عن لؤلؤة ضائعة في صحراء رملية، حيث إن تفسير هذا الحلم الذي يسقط، كشعاع ضوئي ضائع، في دماغ واحد من ملايين النائمين، يمكن أن يساعد على تفادي كارثة تصيب البلاد أو سلطانها، على



Twitter: @ketab_n

تجنّب الحرب أو الطاعون... وحتى ولادة الأفكار الجديدة. ولهذا فإنه ليس لقصر الأحلام أية سمة من سمات الفانتازيا، بل إنه يشكّل دعامة من دعامات الدولة.

هنا يقدّر الوضع الحقيقي للإمبراطورية، مما يمكن أن تفعله أية دراسات، أية مناظرات، أية تقارير مراقبين، أو شرطة، أو حكام باشويّات. لأنه في إمبراطورية النوم الليلية، يلتقي ضوء الإنسانية، وظلماتها، عسلها وسمّها، عظمتها وبؤسها. وكل ما هو عكر وشؤم أو سيكون كذلك خلال سنوات أو عصور مقبلة، يظهر مسبقاً في أحلام الناس. وكل هوى أو فكرة مسيئة، كل مصيبة أو جريمة، كل تمرّد أو كارثة، لا بد وأن تسبقه ظلاله، بالضرورة، قبل وقت طويل من ظهوره في الحياة الواقعية. لهذا فإن الباديشاه قد أمر بأنه لا يجوز أن يفلت أي حلم من مراقبة ودراسة (سرايا طابير)، حتى ولو حصل في المناطق الأكثر نأياً من البلاد، وفي يوم من أكثر الأيام عادية، ومع مخلوق هو الأقل معرفة عند الله.

ثم إن هناك تعليمات إمبراطورية أكثر أساسيّة، وهي أن اللائحة اليومية، أو الأسبوعية، أو الشهرية المنظمة نتيجة الجمع، والتصنيف، ودراسة الأحلام، يجب أن تكون من الدقة بحيث لا يمكن لشيء أن يحرفها. ومن أجل هذا، وإضافة إلى الجهد الضخم الذي يتوجب بذله لمعالجة مواد العمل، فإن إغلاق أبواب (سرايا طابير) أمام أي تأثير خارجي يكتسي أهمية أولوية، حيث إننا نعرف أن هناك قوى خارج (سرايا طابير) لها مصلحة، لأسباب أو لأخرى، بأن تسرّب إلى هنا عملاء مؤثرين، بحيث تقدِّم، فيما بعد، أفكارها وأحلامها على أنها إشارات إلهية نثرها الله في أدمغة النائمين.

ولهذا السبب لا تُقبل كتب التوصية في (سرايا طابير).



Twitter: @ketab_n

وبحركة ميكانيكية، اتجه نظر مارك عليم إلى الأوراق المتكلّسة، التي تقلّصت لتتراقص الآن كشيطان صغير، فوق الجمر.

- ستعمل في قسم الفرز، قال الرجل، مستأنفاً كلامة بالنبرة ذاتها. كان من الممكن أن تبدأ في أقسام أقل أهمية كما يفعل كثير من المبتدئين. لكن... أنت ستبدأ في الانتخاب لأنك تناسبنا.
- من طرف عينه، استرق مارك عليم نظرة خاطفة إلى ارتعاش الورقة التي أصبحت سوداء كأنما ليقول لها: أنتِ لم تختفي بعد إذن؟
- وتذكر، تابع الآخر، أن ما يطلب منك قبل كل شيء هو الاحترام المطلق للسر. ولا تنْسَ أبداً أن (سرايا طابير) هي مؤسسة مغلقة كلياً على العالم الخارجي.

انفصلت إحدى يديه عن الطاولة ورسمت في الهواء إشارة تهديد:

- كثيرون هم الأفراد والفئات الذين حاولوا أن يتسللوا إلى هنا، لكن (سرايا طابير) لم تقع أبداً في الفخ. وهي بعزلتها، تبقى خارج الضجيج البشري، خارج صراعات الاتجاهات، والاقتتال على السلطة، مغلقة على الجميع، ودون أي تماس مع أيٍّ كان. بإمكانك أن تنسى كل ما قلته لك، لكن هناك شيء واحد، أكرر لك يا بني، إن عليك أن تحفظه في ذهنك: حفظ السر. هذه ليست نصيحة. إنها القانون الأعلى لـ(سرايا طابير)... الآن باشر العمل. تسأل في الممر أين هو قسم الفرز. وقبل أن تصله يكون الذين سيستقبلونك على علم بكل ما يخصّك. حظاً سعيداً.

في الممر، وجد مارك عليم نفسه ضائعاً، لم يرَ أحداً يمكن أن يسأله عن الاتجاه الذي يجب اتباعه للوصول إلى قسم «الفرز» وهكذا أخذ يسير عشوائياً. في أذنيه ما تزال ترن عبارات المسؤول الكبير: ما


Twitter: @ketab_n

الذي يحصل لي؟ قال في نفسه وهو ينفض رأسه وكأنما ليتخلّص منه. لكن العبارات كانت تتبعه بعنادٍ أكبر، بدل أن تبتعد عنه. بل إنه أحس، في صحراء الممرات هذه، بأن هذه العبارات وهي تصطدم بالجدران والأعمدة، وتتكاثر وتتضاعف، تأخذ صدى أكثر حدة: ستبدأ في قسم «الفرز» لأنك تناسبنا...

حثَّ مازك الخطى، دون أن يعرف لماذا، الـ ف ر ز.. كان يردِّد في ذهنه هذه الكلمة التي تبدو له الآن، بعد أن أصبح بمفرده، مكتسبة واحداً من أكثر الإيقاعات غرابة. في أعماق الممر، لمح خيالاً لكن دون أن يستطيع تبيّن ما إذا كان يقترب أم يبتعد. فكّر في أن يناديه، أو على الأقل أن يومئ إليه، لكن الشكل البشري كان بعيداً جداً. عندها أسرع في سيره، حتى كاد يركض ويصرخ، ليستوقف، وبأي ثمن، هذا الرجل الذي بدا له الآن مجسداً للأمان في هذا الممر الخالي من الأمل.

كان يمشي بسرعة، بخطوات تقترب من الركض، عندما لاحظ، في مكان ما إلى يساره، وقع أقدام... ثقيلاً. تمهّل في خطوه، وأصاخ السمع. كانت أصوات الخطى تأتي من قاعة جانبية تفضي إلى الممر، وأصداؤها تتراجع منتظمة مهدّدة. أدار وجهه واكتشف مجموعة من الرجال يسيرون دون كلمة، يحملون في أيديهم ملفات ضخمة، لونها ـ أزرق شاحب يميل إلى الأخضر ـ تماماً كلون قباب المبنى، وملابس الحجّاب.

عندما مرّت المجموعة بمازك عليم، سألهم بصوت متورع:

ـ هل تستطيعون أن تدلّوني، من فضلكم، كيف يمكنني أن أصل إلى الفرز؟



Twitter: @ketab_n

- عد على أعقابك، أجابه صوت عريض، يبدو عليك أنك جديد هنا؟

وكان على مارك أن ينتظر بلوغ الرجل آخر نوبة سعال طويل، كي يستطيع أن يحدد أن عليه أن يستدير إلى الممر الرابع إلى اليمين، ليجد الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني، حيث عليه أن يعود فيسأل مرة ثانية.

- شكراً سيدي، قال مارك.
- لا داعي للشكر، رد الرجل المجهول وهو يتابع سيره مبتعداً، سمعه مارك يعطس حتى ليكاد يختنق، وينتهي قائلاً:
- أعتقد أنني أصبت بالبرد.

احتاج إلى أكثر من ربع ساعة للعثور على مكاتب قسم الفرز، حيث كانوا بانتظاره.

- هذا أنت، مارك عليم، بادره أول موظّف التقاه، وقبل أن يستطيع النطق بكلمة واحدة.

ورد عليه بأن حرّك رأسه بالإيجاب.

- تعال معي... الرئيس ينتظرك.

تبعه مارك طائعاً واجتازا صفاً من الغرف، حيث ينكبّ عشرات الموظفين الجالسين وراء طاولات مستطيلة، على ملفات مفتوحة، دون أن يلقي أي منهم بالاً على مارك ومرافقه، اللذين تقرع خطواتهما أرض الممر.

وككل الآخرين، كان الرئيس يجلس هو الآخر، إلى طاولة مستطيلة، منكباً على ملفين مفتوحين. تقدّم المرافق من رئيسه، وتمتم شيئاً ما في أذنه، لكن مارك أحسّ وكأن الرجل لم يسمع شيئاً. فقد تابعت عيناه التهام صفحة مسودة لأحد الملفات. وداهم مارك



Twitter: @ketab_n

الإحساس العابر .وتمنّى أن ينحني مرافقه ويكرر الهمس في أذن المسؤول، لكن الرجل لم يبد مستعداً لذلك، وكان ينتظر، بهدوء كلي، أن يرفع رئيسه نظره عن الملف.

طال الانتظار، وأحس مارك عليم بأن الرئيس لن يرفع نظره أبداً، بينما سيظل هو منزرعاً هكذا ساعات وربما حتى نهاية دوام العمل، أو بعد ذلك. ومن جديد ساد صمت عميق، لا يسمع فيه إلّا الحفيف الخفيف الذي يصدره تقليب الأوراق. وفي لحظة ما أحس أن الآخر توقف عن القراءة، وأن نظره توقف فوق الملف، دون أن يتركز على نقطة محددة، وكأنه يفكّر بما قرأه. ودامت تلك الوقفة وقتاً مساوياً للوقت الذي استغرقته القراءة. وأخيراً فرك عينيه وكأنه يريد أن يزيح عنهما غشاء أخيراً، ورفعهما إلى مارك، بعد أن اختفت منهما تلك الموجة المرعبة التي كانت قد هدأت للتوّ.

- هذا أنت. الموظف الجديد.

هز رأسه مؤكداً، دون أن يضيف شيئاً. ثم نهض الرئيس وتقدّم بين صف طويل من الطاولات، فتبعه الرجلان واجتازوا عدة قاعات، كان مارك يعتقد حيناً أنه سبق ومرّ بها، وحيناً لا.

كان ما يزال بعيداً عندما لاحظ طاولة عليها ملف مغلق، أمام كرسي فارغ، وفهم أنها ستكون له. وفعلاً توقف الرئيس أمام هذا المكان تحديداً، وأشار بطرف إصبعه إلى النقطة الواقعة بين الكرسي والطاولة. قائلاً:

- هنا ستعمل.

رمق مارك الملف الأخضر المغلق، ثم تابع الرئيس وهو يرسم إشارة واسعة بيده اليمنى:

- إن أجهزة «الفرز» تشغل عدة قاعات كهذه، إنها واحدة من أهم



Twitter: @ketab_n

أقسام (سرايا طابير). كثيرون يعتقدون أن القسم الأهم في السرايا هو قسم «التفسير» لكن الأمر ليس كذلك. فالمفسرون يتبجحون بأنهم أرستقراطيو مؤسستنا. وينظرون إلينا نحن «موظفي الفرز» بتعالٍ، إن لم نقل باستخفاف. لكن عليك أن تعي جيداً أن هذا ليس إلّا تبجحاً صرفاً من ناحيتهم. وأي واحد يملك قليلاً من الإدراك يستطيع أن يفهم أن قسم «التفسير» هو بدوننا كمطحنة بدون حبوب، نحن الذين نؤمّن كل المادة الأولية لعمله، ونحن الذين نمثّل القاعدة، إذ يرتكز علينا كل نجاحه.

وبعد أن رسم إشارة بيده تابع:

- ... ستعمل هنا وستفهم ذلك بنفسك. وأعتقد أنهم قد أعطوك التعليمات الأساسية. لن أعدّد لك اليوم كل مهماتك كي لا أرهقك منذ اليوم الأول. لن أقول لك إلّا ما يجب أن تعرفه حكماً في البداية. ثم تتعلم البقية شيئاً فشيئاً. هذه القاعة هي أولى قاعات قسم «الفرز».

ورسم الرئيس بيده إشارة نصف دائرية:

- بيننا... نحن نسمّي هذه القاعة قاعة «العدسات»، حيث تتم هنا أول مرحلة في فرز الأحلام. باختصار: هنا يبدأ كل شيء، هنا بالذات...

غمز بعينيه، وكأنما ليستعيد خيط حديثه، وبعد ثوان أضاف:

- أخيراً، ولكي أكون دقيقاً، يجب أن أقول إن أول عملية فرز تتم في الأقسام المحلية للأجهزة، حيث يوجد منها حوالي ألف وتسعمائة قسم في مختلف أنحاء الإمبراطورية. ولكلٍّ منها أقسامه الخاصة، وخلاياه الخاصة، التي تُخضع الأحلام لعملية فرز أولى، لكنه يظل غير كافٍ. فالفرز الحقيقي يبدأ هنا. وكما يتم



Twitter: @ketab_n

فصل الحبوب الجيدة عن الزؤان، يتم فصل الأحلام الهامة عن تلك التي لا تحمل أية أهمية. إن هذا الفرز هو ما يشكل، تحديداً، جوهر قسمنا. مفهوم؟

نظرة الرئيس تصبح أكثر فأكثر حيوية، والكلمات التي كانت تأتيه في البداية بصعوبة، تتوقف الآن على شفتيه بغزارة تفوق ما يحتاج إليه للتعبير عن أفكاره، فيضاعف سرعة كلامه وكأنما ليستطيع استعمالها كلها.

ويتابع:

- هنا يكمن تحديداً جوهر عملنا: تخليص الملفات من كل الأحلام غير المهمة، وأولها الأحلام ذات الطابع الخاص، والتي لا علاقة لها بالدولة. ثم الأحلام التي سببها الجوع أو التخمة، البرد أو الحر، الأمراض إلخ... باختصار كل الأحلام التي لها علاقة بالجسد. وأخيراً الأحلام الوهمية، وبتعبير آخر تلك التي لم تُرَ حقاً. وإنما رواها أحدهم أملاً في الحصول على وظيفة، أو ألّفها مهووسو الروايات، ومحبّو الإثارة.

وأضاف:

- هذه الفئات الثلاث من الأحلام يجب أن تحذف من ملفاتنا. لكن ليس من السهل تحديدها، وإن كنا قد عددناها بسرعة، فقد يبدو أحد الأحلام ذا طابع خاص كلّياً، أو ناتجاً عن دوافع مبتذلة كالجوع أو الروماتيزم في الوقت الذي يكون فيه متصلاً مباشرة بقضايا الدولة، ربما أكثر من الخطاب الذي يلقيه فلان أو فلان من أعضاء الحكومة. لكن تحديد ذلك يقتضي الخبرة والنضج. خطأ بسيط في التقدير، ويسير كل شيء عكس المراد. هل تفهم؟



Twitter: @ketab_n

وبكلمة واحدة، وعلى عكس ما يتصوره الكثيرون: إن عملنا يحتاج إلى كفاءة خاصة.

بعد أن تخلّص الرجل من نغمة السخرية المرّة، رغم أن آثارها كانت ما تزال مرتسمة في عينيه، عاد يتحدّث بلهجة أكثر حيادية، ليفسِّر لمارك عليم المهمة الملموسة التي سيضطلع بها من الآن فصاعداً. وتابع قائلاً:

- يوجد خارج هذه القاعة، قاعات أخرى، لا بد وأنك لاحظتها. ويتوجب عليك أن تمضي يوماً أو يومين في كلٍّ منها، كي تفهم بشكل أفضل العمل الذي سيوكل إليك. وبعد أن تكوِّن فكرة عامة عن ماهية قسم الفرز، تعود إلى هنا، إلى قاعة العدسات، وستجد عندها أن عملك سيبدو أكثر سهولة، لكن هذا لن يحصل إلّا في الأسبوع المقبل، أما الآن فستبدأ هنا.

انحنى فوق الطاولة، تناول الملف وفتح الغلاف الأزرق.

- هذا هو ملفك الأول، وهو يحتوي مجموعة أحلام وصلت يوم ١٩ تشرين الأول (أكتوبر)، اقرأها بانتباه، ولكن الأهم ألا تسرع. وعندما ترى أن هناك إمكانية، ولو ضعيفة، بأن يكون هذا الحلم أو ذاك غير مكتمل ومفيد، ضعه جانباً، دون أن تستعجل في حذفه. فسيليك فارز آخر، أو لِنُسمِّه بلقبه الحالي: مراقب ثانٍ، وبعده يأتي مراقب ثالث وهكذا دواليك، فالواقع أن كل الذين تراهم في هذه القاعة لا يهتمون إلّا بذلك... حظاً سعيداً.

ظل ينظر إلى مارك بضع ثوان ثم انصرف. بينما ظل هذا الأخير متجمداً في مكانه برهة، أمسك بعدها بالكرسي، وبهدوء كامل، وحرصٍ على ألا يُحدث أية ضجة، أزاحه قليلاً واندس بينه وبين الطاولة، ليجلس بالحرص نفسه.



Twitter: @ketab_n

ها هو الملف مفتوح أمامه وها هو إذن حلمه وحلم عائلته يتحقق. لقد عيّن في (سرايا طابير)، وجلس على كرسي أمام طاولة... موظف فعلي في القصر السحري.

انحنى أكثر فوق الملف، بما يكفيه لتبين أحرفه، وأخذ يقرأ بتأنٍّ، رقم الملف، تاريخه، وتحتهما هذه العبارة: موكل إلى سوركورلاه، يتضمن ٦٣ حلماً.

وبإصبع رخوٍ قلب الصفحة، ليجد أن الثانية، على عكس الأولى، مغطاة بنصّ كثيف، أسطره الثلاثة الأولى مكتوبة بالحبر الأخضر، ومفصولة عن الباقي:

حلم عاشه الموظف يوسف، من مكتب بريد علدجهيزار، في ولاية كيرك كيلي، باشوية قسطنديل، يوم ٣ أيلول (سبتمبر) الماضي، قرابة الفجر.

رفع نظره عن النص الذي أمامه وفكّر: ٣ أيلول (سبتمبر)... هل من الممكن أن يكون كل ذلك صحيحاً، وأن يكون هو قد أصبح موظفاً في (سرايا طابير)، يستوي خلف مكتبه ويقرأ حلم الموظف يوسف من مكتب بريد علدجهيزار، من ولاية كيرك كيلي، كي يقرر مصيره، وكي يحكم ما إذا كان حلمه سيلقى في سلة المهملات، أو سيدخل في ميكانيكية السرايا العظيمة لتحليله؟

أحس برعشة فرح تجتاح صُلبه، ثم خفض رأسه وعاد يقرأ: ثلاثة ثعالب بيضاء على مئذنة مسجد الولاية.

فجأة، ارتعش بدنه، فقد أخذ جرس ما يقرع. نظر إلى يساره، ثم إلى يمينه، منذهلاً. فكل هؤلاء الناس الذين بدوا حتى الآن ملتصقين بكراسيهم، مأخوذين بهذه الملفات المنبسطة أمامهم، قد خرجوا فجأة من هذا التنويم المغناطيسي. نهضوا وأخذوا يتحدّثون، ويحرّكون


Twitter: @ketab_n

بضجة كراسيهم، بينما استمرّ صوت الجرس في التراجع على مدى القاعات.

- ماذا هناك، ماذا حدث؟ سأل مارك متعجباً:

- إنها استراحة الصباح، أجابه جاره. (ولكن أين كان يختبئ هذا الجار حتى الآن؟) استراحة الصباح... كرّر الرجل مضيفاً: بالتأكيد أنت جديد هنا، لم تعرف بعد التوقيت، لكنك ستحفظه بسرعة.

من كل الجهات، كان الرجال الذين يملأون هذه القاعة ينهضون، يتحركون بين الطاولات الطويلة باتجاه الخروج. أراد مارك عليم أن يتابع قراءته، لكن ذلك كان مستحيلاً. فلقد تعثّروا به، وأزاحوا كرسيه، لكنه، ورغم كل ذلك، وبعناد خاص، خفض رأسه نحو هذا الملف الذي بات يجتذبه كحبيبة: ثلاثة ثعالب بيضاء... لكنه سمع في هذه اللحظة صوتاً في أذنه مباشرة:

- في الطابق الأسفل هناك قهوة وسحلب. تعال، ستجد دون شك شيئاً يثير شهيّتك.

لم يجد مارك الوقت لتبيّن وجه محدّثه. وقرّر أخيراً أن ينهض عن كرسيه، يغلق ملفه، ويسير كالآخرين نحو الخارج.

في الممر، لم يحتج أن يسأل عن الاتجاه الذي يجب سلوكه، فالكل يسير في اتجاه واحد. ومن على جانبي الممر الرئيسي، تقذف الأبواب الجانبية مجموعات تكثف الموج المتدفق. وانخرط في هذا البحر البشري، المزدحم، المتدافع. وأثار عدد الموظفين هذا تعجُّبه، إنهم مئات وربما آلاف.

تكاثفت ضجة الخطى، خاصة على السلم، وبعد أن هبطوا طابقاً، قطعوا ممراً طويلاً، ثم عادوا فهبطوا طابقاً آخر، وقد لاحظ



Twitter: @ketab_n

أن الشبابيك تضيق أكثر كلما هبط أكثر، كما أحس بأنهم يهبطون نحو قاعة تحت مستوى الأرض. أصبح الناس ملتصقين واحدهم بالآخر، واشتم، قبل أن يصل إلى المشرب، رائحة القهوة والسحلب، المميزة التي ذكّرته بالإفطار في منزله الواسع. وأحسّ بموجة من الفرح تغمره. من بعيد رأى الحواجز الطويلة التي يمد النوادل من ورائها فناجين القهوة، والسحلب، الساخنة.

وفيما هو يتقدّم مدفوعاً نحوهم، كان يسمع في الغمغمة أصوات ارتشاف القهوة، أو رنين العملة المعدنية، أو بعض السعال. وأحس بأن عدداً كبيراً من هؤلاء الناس مصاب بالزكام أو أنهم بحاجة، بعد هذا الصمت الطويل، إلى تنقية حلوقهم، قبل أن يتكلموا.

ودون أن يقصد وجد نفسه ضمن أحد هذه الخطوط، ثم دفعه الضغط لأن يقف متجمداً عند أحد الحواجز، عاجزاً عن التقدم وعن التراجع. وشعر بأن آخرين يمرّون قبله، أو يمدّون أيديهم من فوق رأسه ليأخذوا فنجاناً أو ليدفعوا، لكنّه قرّر ألا يخرج عن هدوئه. ولم يكن، في الواقع، جائعاً ولا عطشاناً، فظل هكذا منساقاً مع الموج، كل همّه أن يفعل كالآخرين.

- إذا لم تتحرك، فلن تجد ما تشربه. على الأقل، دعني أمرّ.

انحاز على الفور، فنظر إليه المتحدث باستغراب، متأثراً بسرعة استجابته. إنه ذو وجه مستطيل، أحمر البشرة، وذو وجنتين ممتلئتين، كوجنتي طفل. وقد تأمّل مارك لبرهة قبل أن يقول:

- هل عُيّنْتَ لتوّك؟

أجابه مارك، بحركة رأس مؤكدة. فأضاف:

- هذا واضح.

وبعد أن خطا خطوتين باتجاه الحاجز، التفت إليه سائلاً:



Twitter: @ketab_n

- ماذا تشرب، قهوة أم سحلباً؟

كاد أن يقول: لا شيء، شكراً، لكنه أحس أن ذلك يمكن أن يكون مهيناً. ألم يبق هنا كي يفعل كالآخرين، ولا يثير حوله انتباه أحد؟

- قهوة. أجاب وهو يحرّك شفتيه فقط بشكل يفهمه الرجل فقط.

وفي الوقت الذي فتّش فيه في جيبه عن بعض القروش كان الرجل قد أدار له ظهره وبلغ الحاجز. وفيما هو منزرع هنا بانتظاره، سمع، دون قصد، بعض نتف الأحاديث التي يتبادلها المحيطون به. فكانت كقطع متناثرة جزأتها رحى كبيرة. ومع ذلك كان يلتقط من خلال الضجيج كلمات، وربما جملاً كاملة، تفلت من الجرش، لكن الطاحونة لا تلبث أن تسحقها في دورتها التالية.

أصاخ لها السمع، وفوجئ بأنها لم تكن تتعلق أبداً بشؤون السرايا، بل كانت تتناول مواضيع تافهة، وعادية: البرد في الخارج، نوعية القهوة، اليانصيب الوطني، سباق الخيول، الزكام المستشري في العاصمة ـ لكن... لا كلمة واحدة، تفلت عما يدور في المبنى ـ مما قد يجعل السامع يتصور أن هؤلاء الناس يعملون في مكاتب أية وزراة، إلّا قصر الأحلام الشهير، المؤسسة الأكثر غموضاً في الإمبراطورية.

وتبيّن مارك عليم صاحبه، وهو يخرج من الزحمة، حاملاً بحذرٍ كبير فنجاني قهوة بيديه.

- كم هو مُضْجر أن يضطرّ المرء هنا لأن يقف في الصفّ!

ودون أن يعطي أحد الفنجانين لمارك، اتجه بالأسلوب الحذر نفسه نحو طاولة فارغة من بين مئات الطاولات المرصوصة في هذا


Twitter: @ketab_n

الملجأ، عارية، وبدون كراسي بحيث لا تفيد الزبائن إلا كمتكأ، وكموضع يتركون عليه فناجينهم الفارغة.

بخجل، مدّ مارك له يده، بثمن القهوة، لكن الرجل أشار بالرفض قائلاً:

- هذا أقل ما يمكن عمله.
- شكراً.

فتناول مارك قهوته بيدٍ بينما لا تزال الأخرى تقبض على القروش النحاسية، وسأله رفيقه:

- متى عيّنت هنا؟
- اليوم.
- حقاً، تهانيّ... إذن لك الحق في أن... ولم يَدرِ كيف يكمل جملته، فتناول رشفة قهوة ثم قال: في أي قسم؟
- في «الفرز».
- في الفرز... أنت محظوظ إذن، كثيرون يبدأون هنا في الاستقبال، وقلّة منهم، في مكاتب النسخ.

أحس مارك فجأة برغبة أن يعرف أكثر عن (سرايا طابير)، وكأن كسراً ما أصاب تحفّظه، فسأل:

- الفرز قسم مهم في السرايا أليس كذلك؟
- أجل مهم جداً خاصة بالنسبة لشاب...
- كيف؟...
- قصدت بالنسبة لموظف جديد، هل تفهم؟
- بشكل عام، وليس فقط بالنسبة للشباب؟
- أجل... بالتأكيد. وعلى العموم يُعتبر الفرز قسماً حاسماً، بل إنني أقول إنه في الصف الأول من حيث الأهمية.



Twitter: @ketab_n

الآن... مارك هو الذي يركز نظره عليه وهو يتابع:

- طبعاً. هنالك أقسام أكثر أهمية...

- التفسير مثلاً؟

- ها: أنت لست من البراءة بقدر ما يوحيه مظهرك. قال الرجل باسماً...

- وبالنسبة لكونه يومك الأول، فقد تعلمت أشياء كثيرة.

كاد مارك يبادله ابتسامته، لكنه انتبه بسرعة إلى أن ذلك تجرؤ لا يستطيع أن يسمح لنفسه به بعد. فإن طبقة الجليد الخفيف التي غطّت وجهه هذا الصباح لم تذب بعد.

- من المؤكد أن «التفسير» هو أساس (سرايا طابير). إنه مركز الجهاز العصبي للمؤسسة، دماغها، إذا صح القول، ففيها يكتسب كل نشاط الأقسام الأخرى معناه، كل عمله التحضيري، كل جهده.

استمع مارك للرجل وكأن الحمى تسيطر عليه. ثم سأله:

- هم من يطلق عليهم لقب أرستقراطيّي المؤسسة؟

قلّب الآخر شفتيه مفكراً ثم قال:

- أجل، بالضبط. وإذا لم يكونوا كذلك فهم شيء شبيه به... رغم أنه...

- ماذا إذن؟

- لا يذهب بك التفكير إلى أنه ليس هناك من هم أعلى منهم.

- من يكون هؤلاء؟

سأل مارك متعجباً من جرأته فنظر إليه رفيقه متفحّصاً:

- إن (سرايا طابير) هي دائماً أكبر مما يبدو.



Twitter: @ketab_n

أراد مارك عليم أن يستفسر منه عما يعنيه بذلك، لكن خوفه من الذهاب أبعد مما يجب منعه.

- إلى جانب (طابير) العاديّ هناك (طابير) السرّي، الذي يعمل على تحليل الأحلام التي لا يرسلها الناس من تلقاء أنفسهم، لكن الدولة تحصل عليها بأساليبها ووسائلها الخاصة. أنت تفهم جيداً أن هذا القسم ليس أقل أهمية من «التفسير».
- بالتأكيد... مع أن...
- ماذا؟
- ألا تنتهي جميع الأحلام ـ بما فيها تلك التي يبلَّغ عنها تلقائياً أو تلك التي يجمعها (طابير السرّي) ـ إلى قسم التفسير.
- في الواقع كل الأقسام هي مزدوجة، بمعنى أن لها جهازاً في (طابير العادي) وجهازاً في (طابير السرّي). ووحده قسم «التفسير» هو موحد للاثنين. لكن هذا لا يعني أن هذا القسم هو أعلى من (طابير السرّي) في سلم التسلسل الإداري.
- لكنه ربما لا يكون أقل منه؟
- ربما... في الحقيقة، ثمة تنافس ما بينهما.
- في المحصلة النهائية، يشكّل هذان القسمان معاً أرستقراطية السرايا.

ابتسم الآخر.

- بما أنك تبدو مصراً على هذا التعبير. فليكن ولنقل إن الأمر كذلك تقريباً.

ورشف من فنجانه رغم أنه لم يتبق فيه شيء.

- لكن لا تظن أنهما يشكّلان القمة. هناك أيضاً آخرون أعلى منهما.

تفحّصه مارك عليم ليتبين ما إذا كان مازحاً أم جاداً، وسأله:



Twitter: @ketab_n

- ومن هم هؤلاء الآخرون؟
- المكلفون بالحلم ـ الرئيس، قسم الحلم ـ الرئيس أو الأرشيحلم كما أخذوا يسمّونه منذ فترة.
- ما هذا؟

خفض الآخر صوته.

- قد لا يجدر بنا فعلاً الكلام عن هذه المواضيع، لكنك أصبحت واحداً من رجال طابير. زد على ذلك أن هذه المسائل لا تهم، في العمق، إلّا التنظيم، الإدارة، ولا أعتقد أن في ذلك سراً.
- هذا ما أعتقده أنا أيضاً.

قال مارك مؤيّداً، وهو لا يستطيع كبح جماح رغبته في معرفة المزيد.

- أرجوك، تحدّث إليّ أكثر عن ذلك، قال برقّة، أنا أيضاً واحد من أهل البيت تقريباً. فأمي من عائلة (كوبريللي).
- من عائلة كوبريللي؟

لم يفاجئه التعجب الذي ارتسم على وجه محدِّثه، فهو ردة فعل طالما اعتاد عليها كلّما عرف أحد أصوله العائلية.

- منذ أن قلت لي إنك عيّنت مباشرة في «الفرز» فهمت أنك من عائلة مقربة من الدولة، لكنني أعترف لك بأنني لم أذهب عالياً إلى هذا الحد.
- أمي من عائلة (كوبريللي) أما أنا فأحمل اسماً آخر.
- غير مهم. في النهاية كله واحد، بنسبة أو بأخرى.
- حدثني أيضاً عن هذا الحلم ـ الرئيس.

تنشّق الآخر بعمق، لكنه قبل أن يعود إلى الكلام عاد فزفر بعض


Twitter: @ketab_n

الهواء، وكأنه وجد أن الكمية التي سحبها هي أكبر مما يحتاج إليه الصوت الذي سيصدره.

- قد تعرف أنه من بين آلاف الأحلام التي تردنا والتي نحللها هنا، خلال أسبوع، يتم كل يوم جمعة اختيار واحد منها، هو الذي اعتبر الأكثر أهمية، كي يقدم إلى السلطان في احتفال ذي تقليد قديم، وإن يكن دون ضجة كبيرة. إنه الحلم ـ الرئيس.
- لقد سمعت كلاماً عنه، لكنه كلام غامض، كأسطورة.
- وبعد. إنه ليس أسطورة، بل الحقيقة، وهناك مئات الأشخاص يعملون على هذا الحلم: المكلفون بالحلم ـ الرئيس.

وبعد أن أطال النظر إليه تابع:

- يمكن تصوّر أن حلماً كهذا، بإشاراته التنبؤية ذات الأهمية القصوى، تكون قيمته عند السلطان أكثر من قيمة جيش من الجند، أو من مجموع ديبلوماسييه.

استمع مارك فاغراً فاه، وتابع الآخر:

- هل تفهم الآن لماذا تكون مكانة المكلفين بالحلم ـ الرئيس، أعلى من مكانتنا جميعاً؟

أية ميكانيكية غريبة! قال مارك في سرّه، أجل إن (سرايا طابير) هي حقاً شيء أهم مما نستطيع تصوّره.

- إنهم لا يُشاهَدون في أي مكان، تابع الرجل الآخر، حتى إنهم يتناولون القهوة والسحلب في مكان منفصل.
- منفصل... ردد مارك عليم.

وما إن فتح الآخر فمه ليتابع الكلام، حتى رنّ صوت الجرس، الذي قرع في بداية الاستراحة، ليقطع فجأة كل شيء حولهما.

ولم يجد مارك وقتاً ليسأله عما يعنيه صوت الجرس، فقد بدأ



Twitter: @ketab_n

الناس المجتمعون يتفرّقون باتجاه الممرات. والذين لم يكونوا قد انتهوا من شرب فناجينهم، أفرغوها مرة واحدة في جوفهم، وآخرون كانوا قد تسلّموا فناجينهم للتوّ، ولا يستطيعون شربها لسخونتها، تركوها والتحقوا بالجمع. أما مرافق مارك عليم فقد سكت فجأة، وحيّاه بحركة من رأسه، وذهب، وفي اللحظة الأخيرة أومأ له بحركة، كأنما ليستوقفه، ليسأله سؤالاً أخيراً. لكنه في هذه اللحظة وجد نفسه يتطلع إلى اليمين ثم اليسار، ثم يغيب نهائياً عن نظره.

وبما أنه، في الخروج كان يتبع التيار بشكل ميكانيكي، فقد انتبه أنه لم يسأل رفيقه عن اسمه. لو كنت أعرف في أي قسم يعمل! قال لنفسه آسفاً. ثم عزّى نفسه بأنه قد يلقاه غداً. في استراحة الصباح، وقد يجدان الوقت للحديث.

مع تضاؤل موج الموظفين، حاول عبثاً، أن يتعرف إلى وجه من الوجوه التي التقاها في قسم «الفرز»، واضطر أن يسأل مرتين عن الطريق كي يصل إلى مكتبه، ودخله بخطى وئيدة، محاولاً ألا يلفت نظر أحد، بينما كانت تتعالى حوله ضجة الكراسي المتحركة. كان جميع الموظفين تقريباً، قد أصبحوا خلف طاولاتهم الطويلة، وعلى رؤوس أصابعه وصل مكتبه، سحب كرسيه، وجلس. ظل لحظات بدون حراك ثم خفض نظره نحو ملفه وأخذ يقرأ:

«ثلاثة ثعالب بيضاء، على مئذنة مسجد الولاية...» لكنه رفع رأسه فجأة، فقد أحس أن أحداً يناديه من بعيد، بواسطة إشارة غريبة، ضعيفة جداً، شاكية تقريباً، شبيهة بصرخة نجدة أو بدمعة. ما هذا؟ سأل نفسه. ولم يلبث السؤال أن اجتاح كيانه كله. ودون أن يفهم لماذا، اتجه نظره نحو النوافذ الكبيرة. كانت تلك المرة الأولى التي يتأملها فيها. ومن وراء مربعاتها الزجاجية، كان المطر يهطل، مختلطاً


Twitter: @ketab_n

بنتف الثلج الدقيقة. منظر مألوف، لكنه بات بعيداً... النتف تزوبع تائهة، في هذا الصباح، البعيد هو الآخر، كأنه ينتمي إلى حياة أخرى، أرسلت إليه منها هذه الإشارة الأخيرة.

وبإحساس غامض بالذنب، أدار عينيه ودفن رأسه في ملفه، لكنه قبل أن يستأنف القراءة، تنفّس بعمق: آه يا إلهي!

* * *



Twitter: @ketab_n

# II

# الفرز

كان ذلك بعد ظهر يوم ثلاثاء. بعد ساعة سيتوقف العمل في المكاتب. رفع مارك عليم رأسه عن أوراقه وفرك عينيه. لقد مضى أسبوع على بدئه العمل، لكنه لم يتوصل بعد إلى التعوّد على القراءة الطويلة. إلى يمينه يتململ جاره على كرسيه دون أن يتوقف عن القراءة. وعلى الطاولة الممتدة، يُسمع الحفيف المنتظم الصادر عن تقليب الأوراق. فأنظار جميع الموظفين منصبّة على ملفاتهم.

كان الوقت خريفاً، في تشرين الثاني (نوفمبر)، الملفات تكبر أكثر فأكثر، ففي هذا الوقت من السنة بميل تدفق الأحلام إلى الازدياد. وهنا تكمن واحدة من الملاحظات الرئيسية التي استطاع مارك أن يتوصل إليها، خلال هذا الأسبوع الأول. سيستمر الناس يحلمون، ويرسلون أحلامهم، وسيظل الأمر كذلك إلى آخر الزمن. لكن عددها يتغير، مع ذلك، من فصل إلى آخر. والفترة الآن هي فترة تصاعد. يصل فيها عشرات آلاف الأحلام من كل زوايا الإمبراطورية. وسيستمر هذا الإيقاع على ما هو حتى نهاية العام. الملفات تنتفخ، تنتفخ بلا انقطاع، في الوقت نفسه الذي يصبح فيه البرد أكثر قساوة، ثم، وبعد مرور رأس السنة يلاحظ ثمة جزر أو انحسار حتى الربيع.



Twitter: @ketab_n

من جديد نظر مارك خلسة إلى جاريه: إلى اليمين، ثم إلى اليسار. هل يقرآن فعلاً أم يتظاهران بذلك؟ أسند صدغه إلى يده اليمنى وخفض بصره نحو الورقة التي أمامه، لكنه أحس أنه لا يرى، بدلاً من الحروف، إلّا ذبذبات ضائعة في الرؤية الضبابية.

لا . . . كان من المستحيل له أن يتابع القراءة، وهؤلاء الذين ينحنون فوق أوراقهم قد لا يقرأون كلهم، لكن أكثرهم يتظاهرون بالقراءة. إنه فعلاً عمل جهنمي.

وجبهته تستقر ملتصقة في باطن كفِّه، شغل نفسه بتذكّر كل ما سمعه، خلال هذا الأسبوع، من الموظفين القدماء، عن مدّ الأحلام وجزرها، عن تغير عددها بحسب الفصول، المطر أو الثلج، الحرارة، الضغط الجوي، أو رطوبة الهواء، ويعرف قدامى قسم الفرز كل هذا جيداً. يعرفون كثيراً عن تأثير الثلج والهواء والغبار على كمية الأحلام. ولا يجهلون أيضاً دور الهزات الأرضية، وخسوف القمر، وظهور المذنبات.

ومن المؤكد أن قسم التفسير يضم أساتذة مدهشين في تحليل الأحلام، علماء موثوقين يعرفون أن يكتشفوا إشارات غريبة بقدر ما هي خفية، من وراء رؤى لا تلتقط منها العين العادية إلّا إشارات الدماغ المشوّشة.

ومع ذلك، فإنه لا يوجد في أي قسم آخر من (سرايا طابير)، عجائز مجربون، كقدامى قسم الفرز، القادرين على استشعار خصب الأحلام أو قحطها بالسهولة نفسها التي يستطيع فيها بناء على آلام الروماتيزم التي تصيبهم، استشعار أن الطقس سيتغير.

فجأة فكّر مارك عليم بذلك الرجل الذي تعرّف إليه في يومه الأول، أين يمكن أن يكون؟ منذ عدة أيام، وهو يفتِّش عنه بين


Twitter: @ketab_n

جمهور الاستراحة الصباحية، دون أن يراه في أي مكان. قد يكون مريضاً؟ قد يكون أرسل في مهمة إلى إحدى المقاطعات البعيدة، ربما يكون واحداً من مراقبي (طابير) أولئك الذين يمضون أصفى أوقاتهم في التنقل الرسمي بين جهات الإمبراطورية الأربع، وكأنهم ليسوا سوى مبشِّرين بسطاء.

تخيّل آلاف أقسام (سرايا طابير) الموزعة على كل مساحة البلاد الواسعة، المباني الفرعية، التي تكون أحياناً أكواخاً بسيطة تؤويهم مع موظفين أو ثلاثة، أكثر منه وضاعة، محتاجين، بأجور سيئة، وينحنون حتى الأرض عند مرأى أبسط عامل بريد من (طابير) يأتي ليأخذ الأحلام المجموعة. يتذللون، ويتلعثمون أمامه، لأنه، فقط، مندوب المركز.

وفي مقاطعات بعيدة، في صباحات ممطرة، وعلى طرقات موحلة، يمشي المواطنون أحياناً قبل طلوع الفجر، نحو هذه الأقسام الكئيبة ليطلعوها على أحلامهم. ودون أن يكلّفوا أنفسهم طرق الباب، يصرخون من الخارج:

- حاجي، هل أنت هنا؟

أكثرهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة.

وكي لا ينسوا حلمهم، فإنهم يأتون هنا منذ الفجر الباكر، وحتى قبل أن يتناولوا كأساً ما في الحانة المجاورة، يروونه شفوياً بينما الكاتب النعسان يدوّن أقوالهم، وهو يلعن الحلم وصاحبه.

يا إلهي اجعلنا نكون أكثر سعادة هذه المرة! بهذا الدعاء يتوجه بعضهم بعد انتهاء كتابة حلمه. ذاك أن أسطورة تدور في الإمبراطورية منذ مدة مفادها أن واحداً من إحدى الولايات الصغيرة المنسية، أنقذ الدولة من كارثة مخيفة، بفضل حلم. وكمكافأة على ذلك استدعي إلى


Twitter: @ketab_n

العاصمة واستقبله السلطان، وجعله يختار أعطية من كنوزه، وزوّجه بإحدى بنات أخيه إلخ...

إن شاء الله... يرددون قبل أن يعودوا إلى الطريق الموحلة، باتجاه الحانة دون شك، بينما يتبعهم الكاتب بنظرة ساخرة، وقبل أن يبلغوا المنعطف يكون قد كتب على ورقته ملاحظة: ملغى.

ورغم التعليمات القاسية، باستبعاد أي حكم مسبق أو أية اعتبارات شخصية من عملية تقييم الأحلام، فتلك كانت عملية الفرز الأولى التي يقوم بها الموظفون. إنهم يعرفون أهل الولاية جيداً، وقبل أن يعبر القادم عتبة المكتب يعرفون ما إذا كان ماجناً سكيراً، تافهاً، أو مصاباً بالقرحة.

غالباً ما سبّب هذا الوضع المشاكل، حتى إنه اتخذ قرار قبل سنوات، بحرمان المكاتب المحلية من حق الفرز الأولي. لكن ذلك أدى إلى تزايد كمية الأحلام التي أخذت ترسل مباشرة إلى قسم «الفرز». فألغي القرار، ورغم المحاذير التي يمثلها قيام هذه المكاتب ذاتها بعملية الفرز، عادت فأوكلت إليها من جديد. لأن المشكلة لا تتحمل حلاً آخر.

معلوم أن أصحاب الأحلام يجهلون كل شيء عن ذلك. ومن وقت إلى آخر يأتون إلى باب القسم: أي حاجي... هل هناك أي جواب بخصوص حلمي؟

- لا. ليس بعد، يجيب حاجي، لكنك نافد الصبر يا عبدالقادر! الإمبراطورية كبيرة جداً، ورغم أن الإدارة المركزية تعمل ليل نهار، فإنها لا تستطيع أن تفحص جميع الأحلام بهذه السرعة.
- أجل معك حق، يجيب الآخر، وهو يرسل نظره نحو الأفق، إلى


Twitter: @ketab_n

حيث يعتقد وجود «المركز»، كيف لنا أن نفهم شيئاً من عمل الدولة؟...

ثم يذهب، جارّاً قبقابه الخشبي على الطريق المؤدي إلى الحانة.

بالأمس عرف مارك عليم كل هذه الأشياء، من فم مفتش قديم، شرب معه قهوة الصباح. كان المفتش عائداً لتوه من مقاطعة آسيوية بعيدة، ويتهيأ للسفر من جديد، ولكن نحو الجزء الأوروبي من الإمبراطورية، هذه المرة. وقد ترك حديثه مارك عليم ذاهلاً، أيمكن أن يبدأ كل شيء بهذه الطريقة التافهة؟

لكن المفتش، وقد لاحظ إحباطه، عاد يفسّر له أن الأمور لا تسير بهذه الطريقة في جميع الأمكنة. وأن لأقسام (سرايا طابير)، غالباً، مقرات ذات أبنية قوية، في مدن مهمة في آسيا أو أوروبا، وأن الذين يأتون إليها حاملين أحلامهم، ليسوا مجرد مواطنين بؤساء في المقاطعات، وإنما شخصيات في المقامات العليا. محمّلون بالرتب والألقاب، والدرجات الجامعية، ذوو فكر ثاقب، وذكاء عميق، وطموحات واسعة. ركّز المراقب فترة على هذه النقاط، فأحس مارك بأن (سرايا طابير) تستعيد، تدريجياً، موقعها المهيب في ذهنه. كان المفتش قد بدأ يروي له مراحل أخرى من رحلته عندما قطع صوت الجرس كلامه، والآن يحاول مارك أن يتخيّل النهاية بمفرده. يفكّر بالشعوب التي تعيش على الخاصرة اليسرى للإمبراطورية وتلك التي تعيش على اليمنى، الشعوب التي تحلم كثيراً، وتلك التي تحلم قليلاً، أولئك الذين يروون أحلامهم برضاهم، وأولئك الذين يتحفظون بشأنها، كالألبان (إن ذهن مارك عليم الشديد التعلّق بأصوله الألبانية، يسجّل تلقائياً، كل ما يمكن أن يقال عن هذا البلد). فكر في أحلام الشعوب الثائرة. وتلك التي كانت للتوّ ضحية مذابح قاسية،



Twitter: @ketab_n

عبوراً إلى تلك التي تعيش مرحلة أرق، وتشكّل هذه الأخيرة، خاصة، مصدر انشغال كبير للدولة. ذلك أنه بعد مرحلة كهذه من الأرق لا بد من توقّع صحوة مفاجئة. وهكذا تتخذ الدولة تدابير طوارئ لاستباق الشر، عندما كان المفتش يتحدث عن هذا الأرق عند الشعوب، كان مارك ينظر إليه مندهشاً. أعرف أن هذا سيبدو لك غريباً ـ قال الرجل ـ لكن يجب أن يفهم هذا من وجهة نظر نسبية، فإن شعباً ما، يعتبر في حالة أرق، عندما تتناقص نسبياً، المدة الإجمالية لنومه، بالنسبة للمعدل الطبيعي. ومن يستطيع أن يحدِّد هذه النسبة بدقة، أفضل مما يفعله (سرايا طابير)؟

ـ هذا صحيح... في الواقع... قال مارك موافقاً.

لقد تذكر لياليه البيضاء مؤخراً، لكن قلق شعب كامل يجب أن يكون شيئاً مختلفاً عن قلق فرد واحد.

من جديد، عاد ينظر خلسة إلى يمينه وإلى يساره. الجميع بدوا منغمسين في ملفاتهم مفتونين وكأن الأمر لا يتعلق بأوراق مغطاة بالكتابة، بل بمواقد صغيرة يحترق فيها فحم يهز الحواس. ربما وقعت أنا، شيئاً فشيئاً، ضحية هذه الفتنة ـ فكّر مارك في نفسه ـ وانتهيت إلى نسيان العالم والجنس البشري.

هذا الأسبوع، وطبقاً لتوجيهات رئيسه، قضى نصف نهار في كل قاعة من قاعات الفرز، برفقة موظف قديم، كي يتعلم مبادئ جميع مظاهر عمله، ويغني تجربته، وعندما انتهى من ذلك، قبل يومين، عاد إلى طاولته تلك التي اقتيد إليها في اليوم الأول لتعيينه.

وبتنقله من قاعة إلى أخرى تعلم مارك الخطوط العريضة لعمل «الفرز». فبعد فحص الأحلام في قاعة «العدسات»، تحمل تلك التي يحكم عليها أنها دون قيمة، إلى الأرشيف، بعد أن تربط في حزم


Twitter: @ketab_n

كبيرة. وأما تلك التي تحفظ فتصنّف في مجموعات متعددة حسب نوع المواضيع التي تتعلق بها: أمن الإمبراطورية والسلطان (مؤامرات ـ خيانات ـ ثورات) سياسية داخلية (قبل كل شيء، وحدة أراضي الإمبراطورية) السياسة الخارجية (تحالفات ـ حروب) الحياة المدنية (ابتزاز ـ استغلال السلطة ـ فساد)، مؤشرات حلم ـ رئيس ممكن، متفرقات.

ولم يكن التصنيف إلى أقسام، وأقسام متفرعة عنها، شيئاً سهلاً، حتى أن نقاشاً طويلاً دار حول ما إذا كان يجب إسناد هذه المهمة إلى «الفرز» أو إلى «التفسير» لولا أن هذا القسم كان مثقلاً إلى حد كبير. وفي النهاية تم التوصل إلى صيغة حل وسط: يترك تصنيف وترتيب الأحلام إلى «الفرز» على أن يعتبر عملها مجرد عملية أولية ذات قيمة احتمالية فقط. وهكذا فإنه لا يكتب فوق الملف الذي يحتوي المواد المعنية: «أحلام تتعلق بكذا»، بل «أحلام يمكن أن تتعلق بكذا».

زد على ذلك أن «الفرز» إذ يتحمل كامل مسؤولية تقسيم الأحلام إلى: ذي فائدة، وغير ذي فائدة، فإنه لا يتحمّل بالمقابل أية مسؤولية فيما يتعلق بتقسيمها حسب المواضيع، حيث إن المهمة الأساسية للفرز تكمن في عملية الفرز... فالفرز هو أساس قسم «الانتقاء»، تماماً كما أن «التفسير» هو أساس (سرايا طابير).

أنت تفهم الآن أننا نحن من يحكم الأبواب التي تعبر منها كل المواد... هذا ما قاله رئيس القسم لمارك عليم، يوم عاد هذا الأخير إلى موقع عمله الأول: ـ لا بد وأنك قلت في نفسك، في البداية: قياساً على أن ما يبدأ به عمل الفرز إن هو إلا عملية فرز، فإن هذا العمل يجب أن يكون،.منطقياً، الأقل أهمية.

لكنني أتصور أنك فهمت الآن، أن أساس كل العمل، هنا، وأننا



Twitter: @ketab_n

لا نعيّن فيه أبداً مبتدئين، وإذا كنا عاملناك استثناءً، فذلك لأنك تناسبنا.

أنت تناسبنا... هذه العبارة، رددها مارك عليم في ذهنه عشرات المرات. وكأن ذلك قد ساعده على اكتناه معناها إذ إنها كانت هكذا... مغلقة من كل الجهات، مصقولة كجدار أملس، لا نستطيع أبداً الإمساك به، كي نحاول تسلّقه وتجاوزه.

فرك عينيه من جديد، وأراد أن يستأنف القراءة، لكنه كان عاجزاً عن ذلك، فقد بدت له الأحرف حمراء، وكأنها مضاءة بانعكاس نار أو دم.

كان قد وضع جانباً حوالي أربعين حلماً اعتبرها غير ذات فائدة. غالبيتها بدت له تأثيرات هموم يومية، وأخرى بدت مختلَقة مركبة.

لكنه لم يكن مقتنعاً تماماً. من الأفضل أن يعيد قراءتها. الحقيقة أنه كان قد قرأ كلاً منها مرتين أو ثلاثاً، ولكنه رغم كل ذلك غير متأكد بعد من حكمه. لقد أحسن الرئيس عندما أمره بأن يترك لزميله التالي كل حلم يظل لديه أي شك حوله، بعد أن يؤشر عليه بعلامة استفهام كبيرة. لكنه كان قد فعل كذلك بالنسبة لعدد كبير من الأحلام.

ونادرة هي تلك التي حكم عليها بأنها لاغية. وإذا لم يحذف هذه الأربعين، أيضاً، فسيكون من حق رئيسه أن يستنتج أنه لا يريد أن يتحمل أية مخاطرة، وأنه يتخلص من كل الأحلام بإلقائها على الموظفين الآخرين، مع أنه هو أيضاً مكلّف بهذه الوظيفة، وبمقتضى ذلك تتمثل مهمته الرئيسية، تحديداً، بالفرز، وليس بالإحالة على الآخرين. وفي الواقع، ماذا يمكن أن يحصل لو أن كل موظفي الفرز، وكي يتهرّبوا من مسؤولياتهم، حوّلوا القسم الأكبر من الأحلام إلى قسم «التفسير»؟ سينتهي قسم التفسير إلى تجميد قبول الوارد أو أنه


Twitter: @ketab_n

سيشكو للإدارة، والإدارة ستبحث عن أسباب تعثّر العمل هذه. آه ها أنذا في ورطة. قال وهو يتنهّد. لكن، وبعد، فلأتكل على الله. . . و. . .بغضب، وبسرعة كأنما يخشى أن يغيّر رأيه، كتب في أعلى أربع أو خمس أوراق: «ملغى» وأتبعها بتوقيعه، وأحس، وهو يتابع كتابة الملاحظة نفسها على الأوراق اللاحقة، بفرح انتقامي تجاه هؤلاء المجهولين البؤساء، المصابين بالباسور أو الإسهال، الذين عذّبوه طوال يومين بأحلامهم الخرقاء، والتي قد لا يكونون رأوها بالفعل، وإنما سمعوها من آخرين.

أغبياء، بُلْهٌ، دجالون! همهم شاتماً، وهو يكتب عبارة الإدانة. لكن يده أخذت تتباطأ أكثر فأكثر، وانتهت إلى التوقف فوق الورقة. تمهّل لحظة ـ قال لنفسه ـ لماذا تتصرف هكذا؟ وفي أقل من دقيقة توقف تدفق غضبه أمام سد الشك، من جديد.

فالواقع أن هذا العمل ليس سهلاً. ويستطيع هؤلاء البؤساء أن يسبِّبوا لك متاعب، فموظفو كل الأقسام يرتجفون لذكر ما يسمَّى بـ«التدقيق». وقد أخبروه أن حالماً كتب إلى (سرايا طابير)، بعد الإعلان عن حدثٍ حصل، يدّعي أنه توقعه في حلم، وفي حالة كهذه يؤتى بحلمه هذا، ويتمّ البحث عنه بواسطة أرقام التسجيل المحفوظة في قسم «الاستقبال»، ثمّ يستخرج من الأرشيف. وإذا وجد أن الشكوى ذات أساس، يبحث عن الموظفين الذين يتحمَّلون ذنب عدم الانتباه لذلك. قد يكون المخطئون مفسّرين، وقد يكونون موظفي الفرز الذين حكموا على الحلم بأنه لاغٍ. وفي هذه الحالة يعتبر خطأهم أكثر خطورة، لأن خطأ المفسّر في تفسير إشارة تنبّؤية بشكل صحيح، هو خطأ مبرّر أكثر من خطأ بارز لم يتبيَّن أياً من هذه الإشارات.



Twitter: @ketab_n

- عمل ملعون، قال مارك في نفسه، مع كونه أول المتفاجئين بهذا العصيان لضميره.

- لكن. وبعد. . . قد يذهب هذا كله إلى الشيطان.

وسجّل الملاحظة: ملغى، على إحدى الأوراق، لكنه عاد فتردد من جديد أمام التالية، لم يدرِ ماذا يفعل بالورقة التي ظلّت بين يديه، وآلياً، أخذ يقرأ:

حقل متروك عند أسفل جسر، نوع من الحقول الغامضة، من تلك التي نرمي فيها الفضلات. وبين القمامة، والغبار، وبريق المغاسل المكسّرة، آلة موسيقية قديمة ذات مظهر غريب، تعزف وحدها في هذا الامتداد الخالي. وثور، يبدو مهتاجاً بسبب هذه الأصوات التي تجأر وتئن، على قدم الجسر.

عمل فنان، استنتج مارك عليم، أو أحد الموسيقيين المتألمين، بسبب بقائه دون عمل. وكاد يكتب الملاحظة: ملغى. . . لكنه ما إن خط الحرف الأول منها، حتى توقف نظره عند الأسطر الأولى التي لم يكن قد انتبه لها، حيث ذكر اسم صاحب الحلم ومهنته، وتاريخ حلمه.

يا للغرابة! لم يكن صاحب هذا الحلم موسيقياً، بل بائع متجول في العاصمة، يا للشيطان! قال مارك في نفسه وهو لا يستطيع انتزاع نظره عن الورقة. . . بائع خضار لعين يخرج من وكره ويأتي ليضعك في هذه الورطة.

وما يزيد في الأمر أنه يسكن العاصمة. وأنه سيكون من الأسهل عليه أن يشتكي. محا مارك الحرف الذي كان قد كتبه على الورقة، ووضعها مع الأحلام المقبولة.

أبله! تمتم وهو يلقي نظرة عابرة على الورقة، كتلك التي نلقيها



Twitter: @ketab_n

على واحد يحصل على حظوة لا يستحقها. ثم غمس ريشته في الدواة وسجّل ملاحظة: ملغى، على بضع أوراق تالية، دون أن يقرأها، مما هدأ غضبه البالغ، فعاد وتمالك نفسه. ما زال عليه أن يتفحّص ثمانية أحلام أيضاً، من تلك التي استطاع أن يحكم، من النظرة الأولى، أنها بدون فائدة. لكنه درسها بتمعّن واحداً واحداً. وتركها حيث هي باستثناء واحد وضعه بين الأحلام المقبولة. لم يكن بحاجة لأن يكون نبياً كي يدرك أن مصادرها في الخلافات العائلية العابرة، أو في سوء الهضم، أو في التعفف القسري.

بدت له ساعات العمل في المكتب هذه، بدون نهاية. ورغم إحساس الحريق الذي بدأ يشعر به في عينيه، ووضعها أمامه، وداهمه إحساس بأن التظاهر بقراءتها يتعبه أكثر من القراءة الفعلية. اختار الأوراق ذات النصوص الأقصر، ودون أن يقرأ اسم صاحب الحلم، قرأ ما كان مسجلاً على إحداها:

قط أسود يحمل القمر بين أسنانه ويركض، متبوعاً بجمع من الناس، تاركاً وراءه الآثار الدامية للكوكب الجريح.

أجل... إن هذا الحلم يستحق أن نتوقف ونتأخر عنده. وقبل أن يدرجه ضمن فصيلة الأحلام المقبولة، أعاد مارك قراءته مرة ثانية. كان حلماً جاداً حقاً، لا بد وأن نجد متعة في تحليله. واستنتج من ذلك أن عمل المفسِّرين، أياً تكن صعوبته ودقته، مشحون بالأهمية، خاصة عندما يكون التعامل مع أحلام مشابهة. لقد أحسّ هو نفسه، رغم كل الملل الذي يسيطر عليه، بأن الرغبة في تفسير هذا الحلم تستيقظ في داخله.

إن ذلك لا يبدو له صعباً جداً على الإطلاق، فما دام القمر هو



Twitter: @ketab_n

رمز الدولة والدين، فإن القط الأسود لا يمكن أن يكون إلّا قوة معادية تعمل لتحطيمها.

- إن لحلم كهذا كل الحظ في أن ينتقى ويعلن الحلم ـ الرئيس ـ قال مارك في نفسه ـ، نظر إلى عنوان صاحبه. ووجد أن الحلم جاء من مدينة تقع في الجزء الأوروبي من الإمبراطورية. إنه من هناك تأتي أكثر الأحلام جمالاً ـ لاحظ مارك ـ، بقراءته للمرة الثالثة بدا له أكثر جاذبية وغنىً بالدلالات.

العنصر الذي بدا يمثّل له أهمية خاصة جداً، هو ذلك الجمهور الذي لا بد وأن يدرك القط، وينتزع القمر الدامي من بين أسنانه. أجل: إن هذا الحلم سينتهي إلى أن يعلن يوماً حلماً ـ رئيساً ـ ردد مارك في ذاته ـ وتأمل الورقة العادية التي كتب عليها وصف الحلم، مبتسماً، كما ننظر إلى فتاة متواضعة جداً حالياً، مع معرفتنا أن قدرها أن تصبح أميرة.

أحس مارك بالعزاء. وفكّر بأن يقرأ ورقتين إضافيتين أو ثلاثاً، لكنه تراجع عن الفكرة لأنه حرص على ألّا يفسد إحساس الرضى الذي منحه إياه هذا الحلم الغريب. أدار وجهه باتجاه النوافذ الكبيرة التي يسقط وراءها الغروب. لن يتفحّص أي حلم آخر هذا اليوم. وسيتوقف بانتظار صوت الجرس المعلن انتهاء يوم العمل.

ورغم أن الضوء يشحب أكثر فأكثر، فإن رؤوس الموظفين تظل منحنية فوق ملفّاتهم: ولم يساوره أدنى شك بأنه، حتى ولو أرخى الليل أو الظلمات الأبدية سدولهما على هذه القاعة، فإن هذه الرؤوس لن ترتفع قبل أن يسمع صوت الجرس.

وأخيراً قرع الجرس بقوة. جمع مارك عليم أوراقه بسرعة. وتصاعدت من جميع الطاولات ضجة الأدراج التي تفتح لضم


Twitter: @ketab_n

الملفات. أغلق درجه بالمفتاح. ورغم أنه كان أول من ترك القاعة فلقد احتاج إلى ربع ساعة كي يجد نفسه في الخارج.

في الشارع، كان الجو بارداً. وكان الموظفون المتدفقون من البوابات، بكتل ضخمة، يتبعثرون في اتجاهات مختلفة. وعلى الرصيف المقابل، تجمهر من المتسكعين يتفرجون، ككل مساء، على خروج موظفي قصر الأحلام، فمن بين جميع مؤسسات الدولة، بما فيها قصر شيخ الإسلام، ومكاتب الوزير الأكبر، كان قصر الأحلام هو الوحيد القادر على إثارة فضول العامة، لدرجة أنه لا يمر يوم لا ترى فيه مئات من المارة يتجمعون هنا ويتجمدون في انتظار خروج الموظفين. وبصمت، بياقات مرفوعة بسبب البرد، يراقب الناس هؤلاء الموظفين السحريين، الغامضين الذين أوكل إليهم العمل الأكثر غرابة في الدولة، يتابعونهم بعيون تائهة، وكأنهم يبحثون في ملامح وجوههم، عن آثار الأحلام التي كلّفوا بتفكيك رموزها. ولا يبتعدون إلا بعد أن تقفل البوابات الثقيلة للقصر الكبير، وهي تصدر أزيزها.

حثّ مارك الخطى. لم تكن المصابيح قد أضيئت بعد، لكنها ستضاء، بالتأكيد، قبل أن يصل الشارع حيث يسكن. فمنذ أن عيّن في السرايا أصبحت الظلمة توقظ في داخله خشية ما.

كانت الشوارع تغصّ بالمشاة. ومن وقت إلى آخر، تمرّ بسرعة كبيرة سيارات مسدلة الستائر، فكّر بأنها تحمل ولا بد عاشقات جميلات إلى مواعيد سريّة. وأطلق زفرة.

عندما وصل، أخيراً، إلى شارعه، كانت المصابيح قد أضيئت فعلاً. كان الشارع شرياناً هادئاً، سكنيّاً، أكثر من نصف مبانيه محاطة بأسوار من الحديد الملوي. باعة الكستناء يستعدون للرحيل. وبعضهم قد انتهى من توضيب كستنائه، وقشوره الفارغة، وقطع الفحم في


Twitter: @ketab_n

أكياس. وبدا أنهم ينتظرون أن تبرد قليلاً مناقلهم المغطاة بشبك من الحديد الأبيض. حيّاه الشرطي الواقف في موقعه هناك، باحترام.

ومن المقهى الكائن على المفترق، خرج جارهم (بيتش بي) الضابط السابق، بصبحة اثنين من رفاقه، وهو في أقصى حالات السكر. وما إن رأى مارك عليم حتى أسرّ إليهم ببضع كلمات. وأحسّ هذا الأخير، عندما تقاطع مسيره معهم، بأن عيونهم تتفرّس في وجهه بفضول خائف. حثّ الخطى، ومن بعيد استطاع أن يلاحظ أن الطابقين الأرضي والأول من منزله كانا مضاءين. لا بد أن هناك ضيوفاً ـ قال في نفسه ـ لكنه لم يستطع أن يكبح ارتعاشة ما. وباقترابه أكثر من المنزل رأى سيارة متوقفة أمام الباب، تحمل علامة (كوبريللي): الحرف (ك) المحفور على خشب البابين. لكن لم يكن من شأن هذا المشهد إلّا أن يضاعف قلقه بدلاً من أن يطمئنه.

جاءت (لوك) خادمة المنزل العجوز تفتح له الباب:

- ما الذي يجري هنا؟ سألها وهو يشير إلى النوافذ المضاءة في الطابق الأول.
- جاء أخوالك لرؤيتك.
- هل حصل شيء؟
- لا . . . أتوا للزيارة فقط.

تنفّس مارك الصعداء. ما بي إذن؟ سأل نفسه وهو يجتاز الباحة المؤدية إلى باب المدخل. غالباً ما حدث معه، عند عودته متأخراً، أن يقلق لرؤية نوافذ المنزل مضاءة، لكنه لم يضطرب مرة إلى هذا الحد، كما في هذه الليلة. يجب أن يكون هذا تأثير عملي الجديد ـ قال في نفسه.

- جاء اثنان من أصدقائك يسألون عنك بعد ظهر هذا اليوم. قالت


Twitter: @ketab_n

لوك التي تبعته. قالوا لي إنك ستذهب لرؤيتهم غداً أو بعد غد في هذا. . .

- النادي.

- أجل هذا هو. . . النادي.

- إذا عادوا قولي لهم إنني مرتبط ولن أستطيع الذهاب.

- حسناً ـ قالت الخادمة ـ.

في الرواق، اشتمّ مارك رائحة طيبة آتية من المطبخ. أمام باب غرفة الاستقبال توقف برهة، دون أن يدري هو نفسه لماذا، وأخيراً فتحه ودخل. في القاعة الكبيرة، ذات الأرضية المكسوة كلياً بالسجاد، كانت تنتشر رائحة نار الحطب المألوفة. كان هناك اثنان من أخواله: البكر مع زوجته، والأصغر. اثنان من أولاد خاله، كلاهما وكيل وزارة، جاءا أيضاً للزيارة. سلّم عليهما تباعاً.

- يبدو عليك التعب.

بادره خاله الأكبر. رفع مارك كتفيه كأنما ليقول: لا حيلة لي في ذلك، إنه تأثير العمل. . . وللتوّ حزر أنهم كانوا يتحدثون عنه وعن تعيينه. نظر إلى أمه التي كانت تجلس وهي تثني ساقيها إلى جهة واحدة، بالقرب من منقل نحاسي. ابتسمت له ابتسامة خفيفة، وعندها فقط شعر بأنه تخلص من قلقه. جلس في زاوية المقعد الطويل منتظراً أن يتحوّل الانتباه عنه، في النهاية. والواقع أن ذلك حصل بعد برهة وجيزة.

استأنف خاله الأكبر الحديث الذي يبدو أن وصوله قد قطعه. كان الخال حاكماً لواحدة من المناطق الأكثر بعداً في الإمبراطورية. وفي كل مرة كان يعود فيها إلى العاصمة لعملٍ ما، كان يحمل من هناك كميّة من القصص ذات الفظاظة النادرة، والتي كان مارك عليم يجدها



Twitter: @ketab_n

مطابقة في كل تفاصيلها لتلك التي رواها في الزيارة السابقة. ثم إن زوجته، وهي امرأة ذات مظهر هزيل، ووجه عبوس، تصغي بانتباه إلى زوجها، ومن وقت لآخر ترمي الحضور بنظرة، كأنما لتقول لهم: ترون أين نعيش! إنها لا تتوقف عن الشكوى من جو تلك المقاطعة، ومن عمل زوجها المرهق، ويستشف من كلامها ضغينة صماء ودائمة إزاء شقيق زوجها، الأوسط بين الإخوة الثلاثة، أو الوزير كما يسمِّيه الجميع، حالياً.

إنه بحكم وظيفته كوزير للخارجية، الأعلى منصباً في عائلة (كوبريللي) كلها، وهي تحقد عليه في قرارة نفسها، لأنه لم يهتم كفاية، بنقل أخيه إلى العاصمة، أخيراً.

أما الخال الأصغر فيستمع إلى أخيه الأكبر بابتسامة شاردة. وبالنسبة لمارك عليم، فبينما كان يتصوّر خاله الأكبر تمثالاً من البرونز المغطّى بزنجار مكوّن من قساوة وتزمت حياة المقاطعات، كان يحس ميله إلى خاله الأصغر يقوى يوماً بعد يوم. شاب أشقر، أزرق العينين، أشقر الشاربين، ويحمل هذا الاسم الألماني ـ الألباني: (كورت). لقد كان هذا الشاب يشكل الوردة البرية في عشيرة (كوبريللي). وعلى عكس جميع إخوته، فإنه لم يثبت يوماً في منصب مهم، لقد استغرقته دائماً اهتمامات غريبة، لا يلبث أن يتحول عنها: فمرة يتفرغ لفن الهندسة المعمارية، ومرة لعلم المحيطات. وفي الفترة الأخيرة للموسيقى. عازب متشرِّد، يمارس رياضة ركوب الخيل بصحبة ابن قنصل النمسا، ويتبادل مراسلات عاطفية مع عدة نساء غامضات ـ كما يقال ـ باختصار: إنه يعيش حياة ممتعة بقدر ما هي عابثة، بالمقارنة مع حياة أشقائه. ولقد حلم مارك عليم بأن يقلِّده لكنه شعر بأنه عاجز عن ذلك.


Twitter: @ketab_n

والآن وقد عاد إليه هدوؤه تماماً، تتراءى له، وهو يستمع إلى حديث خالَيه، السيارة السوداء التي أقلّتهم إلى هنا، متوقفة أمام باب منزله، هذه السيارة التي توحي له، كلما ظهرت، بمزيج من الفرح والخوف، لأنها هي التي كانت تحمل إليه دائماً الأنباء الأكثر جودة أو سوءاً.

لقد كان القصر، وهو الاسم الذي يطلقه الناس فيما بينهم على منزل الشخص الأكثر حظوة في عائلة (كوبريللي)، ينعم بعدة سيارات لكنها كلها متشابهة. وبالنسبة لمارك عليم فقد انتهت إلى أن لا تمثّل عنده إلا واحدة: السيارة التي تنتقل بين المنزل العائلي ومنازل أفراد العائلة الكبيرة، بهذا الحرف «ك» المحفور على خشب الأبواب، راسمة مرة قوس قزح بهيّاً ومرة غيوماً قاتمة.

أكثر من مرّة فكّروا بأن يغيّروا الحرف «ك» إلى الحرف «ق» توافقاً مع الكتابة العثمانية الرسمية «قوبرولو» لكن العائلة كانت ترفض دائماً، وحافظت على الحرف «ك» مثله مثل سائر حروف التسمية التي تعود إلى الأبجدية الألبانية.

- إذن فقد دخلتَ (سرايا طابير)؟ قال الخال الأكبر الذي انتهى، أخيراً، من حديثه: أخيراً اتخذت قراراً بذلك؟
- لقد قررنا ذلك معاً، قالت الأم.
- لقد فعلت خيراً، إنها وظيفة محترمة، موقع هام. أفضل أمنياتي لك بالنجاح.
- إن شاء الله، شكراً... تختم الأم.

تدخّل ابنا الخال في الحديث. وتذكّر مارك عليم، وهو يستمع إليهما، المناقشات الطويلة التي دارت حول اختيار وظيفته المقبلة قبل


Twitter: @ketab_n

أن يستقر الخيار على (سرايا طابير). ولو أن أحداً كان سمع مناقشاتهم من خارج، لفغر فمه دهشة:

هل يمكن الحديث بكل هذا الاهتمام عن البحث عن عمل لواحد من أولاد (كوبريللي). هذه العائلة الرفيعة، التي لم تكتف بأن تعطي الإمبراطورية خمسة رؤساء وزارات، بل أعطتها أيضاً عدداً لا نهاية له من الوزراء، والأميرالية، والجنرالات، الذين قاد اثنان منهم الحملات على هنغاريا، وواحد آخر حملة بولونيا، وثالث اجتياح النمسا، هذه العائلة التي ما تزال، اليوم أيضاً، ورغم انحسارها النسبي، واحدة من أعمدة الإمبراطورية، وأول من أطلق فكرة إعادة بناء الدولة الكبرى تحت شكل «الولايات المتحدة العثمانية»، العائلة الوحيدة التي تذكر في القاموس إلى جانب العائلة الإمبراطورية، تحت حرف «ك» مع الملاحظة التالية:

عائلة ألبانية كبيرة، شغل خمسة من أعضائها منصب رئيس وزراء في الإمبراطورية العثمانية، ما بين ١٦٦٦ و١٧١٠؛ وأخيراً عائلة، يأتي كبار موظفي الدولة إلى بابها طالبين حماية، ترقية، أو شفاعة للحصول على حظوة ما...

غير أن ما يمكن أن يبدو للوهلة الأولى مدهشاً، بل غير قابل للتصديق إلّا بالنسبة للذين يعرفون عميقاً تاريخ عائلة (كوبريللي)، هو أن هذه العائلة تبدو، منذ حوالي أربعمائة عام، منذورة لمأساة مستمرة، في وسط ظاهرة العظمة التي تحيط بها.

فوقائع هذه السيرة، التي تتساوى كآبتها وتألقها، تضم عدداً من كبار الموظفين، والوزراء، وحكام الولايات، ورؤساء الوزارات، بقدر ما تضم محكومين بالسجن أو بالموت أو بقطع الرأس، أو مفقودين، «إننا نحن أفراد أسرة (كوبريللي)، أشبه ما نكون بأولئك


Twitter: @ketab_n

الذين يحرثون الأرض على أقدام فيزوف. . .» يقول الأخ الأصغر (كورت) بلهجة نصف مازحة، ويضيف: ومثلهم تماماً أولئك الذين يعيشون في ظل البركان، ويغطيهم الرماد عندما يثور ويشتعل.

نتلقى نحن، دورياً، ضربات السلطان الذي نعيش في ظلّه. ومثل هؤلاء الناس أيضاً، الذين، رغم كل المآسي التي يسببها لهم البركان، لا يتوانون، بمجرد أن يهدأ، عن استئناف حياتهم العادية، على تلك الأراضي الخصبة بقدر ما هي خطرة، الممتدة على قدميه. نظل نحن، رغم كل الضربات التي نتلقاها من السلطان، مقيمين في ظله، ونخدمه بأمانة.

ويذكر مارك عليم، منذ طفولته، في بيتهم الكبير، الخدم يروحون ويجيئون قبل الفجر، وشوشات في الممرات، خالاته اللواتي يأتين، يقرعن الباب الكبير، بوجوه هلعة. يذكر جيداً تلك النهارات الكاملة المزروعة بالأخبار القاتمة، بالانتظار، بالقلق، إلى أن يعود الهدوء مع الدموع المنهمرة على المحكوم، ثم تستعيد الحياة مجراها السابق، في انتظار مرحلة جديدة من العظمة، أو مأساة ما جديدة. . . . فإن رجال عائلة (كوبرللي) ـ كما يقال ـ إما أن يرتفعوا إلى أعلى المراتب والوظائف، وإما أن يغرقوا في ظلام غضب السلطان. لا حلول وسطاً عندهم.

لحسن الحظ، فأنت لا تحمل اسم (كوبريللي)، كانت تقول له أمه من وقت لآخر، دون أن تقتنع هي نفسها بعبارة التطمين هذه، إنه ابنها الوحيد، ومنذ وفاة زوجها أصبح همّها (كوبريللي). ولقد زاد هذا الاهتمام في ذكائها، في سلطتها، وبشكل عجيب في جمالها.

ومنذ وقت طويل، قررت في أعماقها أن تبقي ابنها بعيداً عن الوظيفة الإدارية.



Twitter: @ketab_n

ولكن منذ أن كبر وأنهى دراسته، أخذ قرارها يفقد مبرراته أكثر فأكثر، فلا مكان لعاطل عن العمل في عائلة (كوبريللي)، ولا بد من إيجاد عمل له، رضيت أم لم ترضَ.

عمل تكون فيه احتمالات اكتساب مهنة، هي الأكبر، واحتمالات الرمي في السجن هي الأقل. أقل ما يمكن. لقد نوقش ذلك طويلاً في العائلة: فكروا بالسلك الديبلوماسي، بالجيش، بالبلاط، بالمصرف، بالإدارة، ووزنت إيجابيات وسلبيات كلٍّ من هذه المجالات. فرص التقدم أو العزل. ثم التدقيق في كل وظيفة، ثم حذفت هذه أو تلك التي تبدو قليلة الأهمية، وربما خطرة، لاختيار واحدة أخرى، ثم عدل عن هذه أيضاً، لذات الأسباب، واتجه التفكير إلى ثالثة، بدت للوهلة الأولى مختلفة عن الأوليين، لكن التفحّص المتعمّق لم يلبث أن أوصل إلى استنتاج أنها في الواقع أكثر خطورة من الأخريات، وإن بدت آمنة في الظاهر. وعلى أثر ذلك تمت العودة إلى الوظيفة الأولى، التي قيل عند طرحها: يا إلهي! أية واحدة إلّا هذه. واستمر الحال على ذلك إلى أن انتهت والدته إلى القول: ليس أمامه إلّا أن يذهب حيث يشاء. فلا أحد يستطيع أن يفلت مما هو مكتوب له.

وهنا... في اللحظة التي كادوا فيها أن يتركوا مارك عليم يقرر بنفسه، تدخّل خاله الأوسط ـ الوزير ـ، الذي لم يكن قد شارك في النقاش بعد، ليبدي أخيراً رأيه.

وللوهلة الأولى، بدا ما يطرحه فكرة مضحكة، لكن البسمة لم تلبث أن اختفت بسرعة عن جميع الوجوه، ليحل محلها تعبير الدهشة: قصر الأحلام؟ كيف يكون هذا؟ ولماذا إذن؟ ثم وبعد أن فكّروا جيداً، أخذت الفكرة تبدو لهم، شيئاً فشيئاً، نتيجة منطقية لما سبق بحثه. فلماذا لا يعمل في (سرايا طابير)؟ وأي بأس عليه من


Twitter: @ketab_n

ذلك؟ ليس فقط أن لا بأس عليه، بل إنه، وعلى العكس من ذلك، عمل أفضل بكثير من أكثر الوظائف الأخرى، المزروعة كلها بالفخاخ.

ولكن ألا تخفي هذه أي خطر؟ بلى بالتأكيد. لكنها على أية حال مخاطر أحلام، في عالم أحلام. هذا العالم الذي طالما حلم الأجداد بأن ينتقلوا إليه، عندما كانوا يمرّون بحالة بؤس، وكانوا يقولون: يا إلهي! اجعله ألّا يكون إلا حلماً مزعجاً!

هكذا تمّت الأمور... شيئاً فشيئاً تجذّرت فكرة الوزير في عقل الأم. كيف لم تفكر بهذا قبلاً؟ قالت في نفسها.

فالطابير يبدو لها المؤسسة الوحيدة المؤهلة لضمان أمان ابنها. ففضلاً عن أن هذا الجهاز يقدم إمكانات غير محدودة للتقدم في المهنة، فإن الميزة الأساسية فيه تكمن في طبيعته الغامضة المبهمة. في هذه الإدارة، تتعدد أوجه الواقع، ويتم العبور بسرعة إلى دائرة الخيال.

وهذا الضباب هو ما كان يبدو لها تحديداً، العنصر القابل لتشكيل ملجأ أفضل لولدها، عندما يأتي وقت انفجار العواصف.

الآخرون أيضاً أيّدوا رأيها، وأضافوا قائلين لأنفسهم: إذا كان الوزير قد فكّر بذلك، فلا بد أن هناك سبباً.

ففي السنوات الأخيرة، لعب (سرايا طابير) دوراً متنامياً في شؤون الدولة. ورجال كوبريللي، الذين يميلون بطبيعتهم إلى النظر إلى المؤسسات التقليدية بسخرية ما، قد أساؤوا قليلاً تقدير (سرايا طابير). ويؤكد البعض، أنهم هم الذين خفضوا، قبل سنوات، من سلطته، دون أن ينجحوا رغم ذلك في إغلاقه. لكن السلطان قد أعاده الآن، بكل سلطته الماضية.



Twitter: @ketab_n

وقد عرف مارك عليم هذا كله تدريجياً، ومن خلال المناقشات التي كانت تدور بين أهله حول المهنة التي تناسبه أكثر.

وطبيعي القول بأن الـ(كوبريللي) قد استخفوا قليلاً بسرايا طابير، ولا يعني ذلك أنه ليس جماعتهم فيه. ولو أنهم كانوا من الخفة بحيث ألغوه نهائياً، لتوقفوا، منذ زمن، عن أن يكونوا ما هم عليه. لكنهم حدّوا اهتمامهم بهذه «المؤسسة الرخوة» ـ كما كانوا يسمّونها مازحين فيما بينهم، بسبب انشغالهم الكلي بأجهزة أخرى في الدولة، وثقتهم بأنهم يقدرون على التوصل إلى تحييد روحها من جديد.

وهذا الإهمال هو ما يحاولون، الآن، على ما يبدو، تعويضه. إن لديهم رجالهم هناك، وبالعشرات، ولكن، رغم كل شيء، لا يمكن الاعتماد عليهم، كما يعتمد على من هو من دمهم ـ هذا ما قاله الوزير لأخته ـ كان واضح العصبية، وأحست بأن هذه القضية تشغله أكثر مما يود أن يظهر. ومن المؤكد أن في ذهنه أشياء أكثر مما صرّح به لها.

دار هذا الحديث قبل يومين من انضمام مارك عليم إلى (سرايا طابير)، وطوال هذه المدة لم يتوقف المزج بين اسمه واسم (سرايا طابير). والآن أيضاً يقرن أحدهما بالآخر، وهو ما يجعل هذا الحديث يزعجه. أمل بأن يتغير موضوع الحديث مع الانتقال إلى المائدة. ولحسن الحظ فإنه لم يحتج إلى الانتظار حتى موعدها. فلقد استمر الحديث حول (سرايا طابير)، ولكن دون ربطها به. ولم يكن هو إلّا شديد الانتباه لما يقال.

- على أية حال، يمكن التأكيد أن (سرايا طابير) قد استعاد كل سلطته الغابرة. قال أحد أخواله.
- بالنسبة لي أنا ـ لا حظ كورت ـ ورغم أنني واحد من الكوبريللي، فإنني لم أفكر يوماً بأن سلطته يمكن أن تلغى نهائياً. لأنه ليس فقط


Twitter: @ketab_n

واحدة من أقدم مؤسسات الدولة، ورغم تسميته الجذّابة، واحدةً من أخطر هذه المؤسسات.

- إنها ليست الوحيدة... هناك مؤسسات أخرى. قال أحد الأبناء معترضاً.

ابتسم كورت:

- أجل. لكن الرعب فيها ظاهر واضح، يُرى من بعيد، كالدخان الأسود. بينما يختلف الأمر كلياً بالنسبة لسرايا طابير.

- ولماذا (سرايا طابير) خطر إلى هذه الدرجة، برأيك؟ سألت أم مارك عليم.

- إنه ليس كذلك بالمعنى الذي يمكن أن تقصديه ـ قال كورت وهو ينظر بطرف عينه إلى ابن أخيه، أنا أفكّر بمظهر آخر. في رأيي أن قصر الأحلام، من بين جميع مؤسسات الدولة، هو الأكثر بعداً عن إرادة الناس. هل تفهم ما أريد قوله؟ إنه الأكثر عمىً، الأكثر قدرية، الأكثر مجهولية، إذن، ومن هنا، الأكثر تعلّقاً بالدولة.

- أما أنا فلدي الإحساس بأنه هو أيضاً، يمكن أن يوضع في قبضتك، بطريقة ما. قال ابن الأخ الآخر.

وكان هذا الابن أصلع الرأس، ذا عينين يظهر فيهما الذكاء بطريقة خاصة: بريق نصف مطفأ. وكأنما استهلكه، تحديداً، هذا الذكاء، الذي يبدو هو مستعداً للتخلي عن جزء منه بملء إرادته.

- بالنسبة لي ـ تابع كورت ـ هذا هو العضو الوحيد في دولتنا، الذي تتصل مباشرة من خلاله، الأجزاء المظلمة في ضمير الناس، بالدولة. (كان ينظر بالتتالي إلى كل من الحاضرين، ليرى تأثير كلامه عليهم). من المؤكد أن الأجهزة لا تحكم، لكنها تملك آلية


Twitter: @ketab_n

تمكنها من التأثير على كل الأعمال، كل الموبقات، وكل جرائم الدولة. وهذا الجهاز ليس إلّا (سرايا طابير).

- هل تريد أن تقول إنهم يتحملون مسؤولية شاملة عن كل ما يحصل، وإنه من الممكن أن يشعروا بإحساس الذنب؟ سأل الابن بقلق.

- أجل ـ أجابه كورت ـ وبصوت أكثر حزماً أضاف: بطريقة ما: نعم.

ابتسم الآخر، ولكن عينيه نصف المغمضتين لم تسمحا إلا بتبين جزء من ابتسامته، كشعاع ضئيل من الضوء يعبر من تحت باب مغلق.

- رغم كل شيء تظل هذه المؤسسة الأكثر لامعقولية في الإمبراطورية ـ قال ـ.

- تكون لامعقولة عندما يكون العالم منطقياً. أما في عالمنا، كما هو، فإنني أجدها طبيعية تماماً.

انفجر الابن في ضحك عميق، لكنه أخذ يقمع ضحكته تدريجياً، عندما رأى عمّه الحاكم يتجهّم.

- مع ذلك، فإن همهمات تسمع في كل مكان، وتقول بأن الأمور أعمق من هذا ـ قال الابن الآخر ـ لا شيء أبداً بهذا الموضوع الظاهر. مثلاً: من الذي يستطيع أن يعرف اليوم ما الذي حصل حقيقة لعرّافات دلفي؟ لقد ضاعت ملفات الأرشيف الخاص بهن، أو لنكن أكثر دقة، لقد أخفيت. وتعيين مارك عليم لم يكن بهذه السهولة...

كانت أم مارك تصغي بانتباه شديدة، وتجهد على ألّا تفلت منها كلمة مما يقال.

- من الأفضل لكم أن تتحدثوا عن شيء آخر، قال الحاكم.



Twitter: @ketab_n

لم يكن تعييني أمراً بسيطاً . . . كرر مارك في نفسه. وعبرت ذهنه بعض المشاهد المتقطّعة، من ذلك الصباح الأول، يوم ذهب إلى (سرايا طابير) كالكائن الأكثر ضياعاً، في هذا العالم، ممزوجة بالساعات الأخيرة، المملة، من يوم عمله في قسم الفرز. إنه يفكّر، دون شك، بأنني دخلت (سرايا طابير) كي أتحرى عنها! قال مارك في نفسه وهو يبتسم في داخله، بمرارة.

- ها. فلنتوقف تماماً عن الكلام في هذا الموضوع، دون أن نعود إليه أبداً. قال الخال الأكبر، من جديد.

عند هذا المفصل، جاءت لوك تبلّغ أن العشاء جاهز، فنهض الجميع إلى المائدة.

على العشاء أخذت زوجة الحاكم في الحديث عن عادات وأزياء المقاطعة التي يحكمها زوجها، لكن كورت قاطعها، دون احترام شديد.

- لقد دعوت مجموعة من رواة الملاحم الألبانية (رابسود).
- كيف؟ رد عليه بسرعة صوتان أو ثلاثة.

كانت هذه الكيف تعني بوضوح ظاهر: من أين جاءتك فكرة كهذه؟ ولماذا؟ ما هذه النزوة الجديدة؟

- كنت أتحدث أول أمس مع قنصل النمسا . . . هل تعرفون ماذا قال لي؟ أنتم آل كوبريللي الأسرة الوحيدة، من بين الأسر ذات الأصل العريق المعروف، في أوروبا وربما في العالم، التي خُصِّصَت لها أنشودة ملحمة بطولية تتغنى بتاريخها.
- آه! لقد فهمت ـ قال أحد الأخوال.
- بالنسبة له، فإن الأنشودة المقصودة، التي خصصت لنا تشابه الـ Nibelungen، بل إنه قال لي تحديداً: لو أن عائلة فرنسية أو


Twitter: @ketab_n

ألمانية، كان ما زال ينشر عنها خُمس ما ينشر لكم في البلقان، لكانت أعلنت ذلك في العالم، كأعلى لقب عظمة تمتلكه. بينما أنتم آل كوبريللي بالكاد تنتبهون لذلك! . . . هذا ما قاله لي.

- هذا واضح، قال أحد أخويه. لكن هناك شيئاً واحداً لا أفهمه. أنت تحدّثت عن الرابسود الألبان، أليس كذلك؟ وإذا كنت تقصد الأنشودة التي نعرفها كلنا، فما دخل الرابسود الألبان؟

نظر إليه كورت كوبريللي في العينين مباشرة، لكنه لم يجبه. لقد كان النقاش حول أنشودة العائلة قديماً، قِدم أواني السفرة الثمينة العتيقة، التي جاءت هدايا من السلاطين، مما جعل كل جيل يتلقاها بخشوع، من الجيل الذي سبقه، كي يسلّمها بدوره إلى الذي يليه. ومنذ طفولته المبكرة، كان مارك عليم قد سمع الحديث عن هذه الأنشودة.

في البداية تخيّل الـ أبوس (كانوا يطلقون عليها أيضاً هذا الاسم) تخيّلهم كأشياء ما طويلة. . . مخلوقات متوسطة بين الهدرة[1] والحية، تعيش في جبال ثلجية ما، ويختزن جسدها، كأجساد الغيلان الأسطورية، قدر أسرته. لكنه أخذ يفهم، شيئاً فشيئاً، وهو يكبر ـ وإن بشكل غامض قليلاً ـ ماهية هذه الأنشودة الملحمية. والواقع أن مارك عليم كان يجد صعوبة في أن يفسِّر لنفسه، كيف يستطيع آل كوبريللي أن يعيشوا، ويتبوّأوا أعلى المناصب في عاصمة الإمبراطورية، بينما . . . هناك في البعيد. . . داخل مناطق البلقان الغريبة، في مقاطعة تسمى البوسنة. . . تنشد أنشودة ملحمية مخصصة لهم. وكان ذهنه يجد صعوبة أكبر في تفهّم أن لا تكون هذه الأنشودة مغناة في ألبانيا،

---

(١) أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس.



Twitter: @ketab_n

الموطن الأصلي لآل كوبريللي، بل في البوسنة. وعلاوة على ذلك أن لا تكون موجودة بلغتهم الأم ـ الألبانية ـ بل بالصربية.

حدث مرة في السنة الماضية، أثناء شهر رمضان، أن جاءت مجموعة من الرابسود من البوسنة. واستضافهم آل كوبريللي، عدة أيام، كي ينشدوا ملحمتهم البطولية الطويلة بصحبة آلة موسيقية تصدر لحناً نائحاً. كانت هذه عادة مستمرة منذ مئات السنين، ولم تتجرأ الأجيال الجديدة من آل كوبريللي على إلغائها أو على تطويرها أو تعديلها. يجتمعون في صالة الاستقبال الكبيرة، ويستمعون إلى صوت الرابسود السلاف، الفاتر، دون أن يفهموا كلمة واحدة، باستثناء اسم كوبريللي الذي يلفظه أولئك (شوبريللي) ثم يتلقى الرابسود مكافآتهم المعهودة. ويذهبون تاركين وراءهم إحساساً بالفراغ، وبأحجية لم تحل، ومستثيرين عند أرباب المنزل، خلال عدة أيام، تنهّدات غير حقيقية، أشبه بتلك التي يثيرها تغيّر مفاجئ في حالة الطقس.

ومع ذلك، فقد دارت الضجة، بأن السلطان يحسد آل كوبريللي على هذه الأنشودة. لقد أُلِّفَت عشرات ومئات الدواوين، للتغني بعظمته، من قبل الشعراء الرسميين. لكن أحداً لم يخصص له أنشودة ملحمية شعبية (أبوس)، كتلك التي أوحى بها آل كوبريللي حتى إنه يقال إن هذه الغيرة هي أحد أسباب تلك الضربات المفاجئة التي يوجهها السلطان دورياً إلى آل كوبريللي. ولكن لماذا لا نقدِّم هذه الأنشودة للسلطان كي نتخلص نهائياً من هذه المآسي؟ ـ هذا ما اقترحه يوماً الصغير مارك عليم بعد أن سمع تنهدات الكبار.

ـ صه! أجابته أمّه.

الأنشودة الملحمية ليست شيئاً نستطيع إهداءه. هل تفهم؟ إنها



Twitter: @ketab_n

كمجوهرات الأسرة، أو تحالفاتها. واحد من هذه الأشياء التي لا نستطيع إعطاءها، حتى لو أردنا.

- قال لي: هذا يشابه الـ Nibelungen قال كورت مستأنفاً كلامه، مفكراً. ولم أتوقف، هذه الأيام، عن أن أعيد طرح السؤال، الذي طالما تشكّل في أسرتنا، على نفسي. لماذا ألّف السلاف أنشودة ملحمية على شرفنا، بينما يصمت عن ذلك مواطنونا الألبان، في ملاحمهم؟
- لا أبسط من ذلك، قال أحد الأبناء، إذا صمتوا فلأنهم انتظروا شيئاً منا، وأحبطوا في انتظارهم.
- إذن، يكون هذا نكاية؟ برأيك.
- يمكنك أن تفهمه كما تشاء.
- أنا أفسّر ذلك جيداً جداً، قال الابن الآخر. إنه سوء تفاهم قديم بين أسرتنا والألبان، إنهم يجدون صعوبة في التآلف مع المقاسات الإمبراطورية لعائلتنا، أو بالأحرى، إن ذلك يبدو لهم شيئاً غير أساسي. وهم لا يقدّرون أبداً ما حققه، ويستمر في تحقيقه آل كوبريللي لمجمل الإمبراطورية، التي لا تشكل ألبانيا إلّا جزءاً صغيراً منها. وما يهمهم هو فقط ما فعلناه لهذا الجزء الصغير، لألبانيا. ولقد انتظروا دائماً أن نفعل شيئاً خاصاً لهم.

وفتح ذراعيه كأنما ليقول: هاكم ما هم عليه. ثم استطرد:

- بعضهم يعتبر أن البانيا منذورة للبؤس، وبعضهم الآخر يعتقد ـ على العكس ـ أنها ولدت في ظل نجم سعيد. وأنا أعتقد أن قدرها يتجاوز هذا الخيار. إنها تشبه عائلتنا من بعض النواحي. لقد رأت خيرات السلطان وقسوته تنصبّ عليها.
- وما الذي كان أثقل وزناً: الخطوة أم القسوة؟ سأل كورت.



Twitter: @ketab_n

- من الصعب الإجابة. قال الابن، أنا لا أنسى ملاحظة قالها لي يوماً رجل يهودي: «عندما انقضّ عليكم الأتراك مستلّين رماحهم وسيوفهم، اعتقدتم أنتم الألبان أنهم جاؤوا يحتلونكم، بينما هم حملوا إليكم، في الواقع، إمبراطورية كاملة كهدية».
- ها. ها... قهقه كورت.

وبدا كأن عيني ابن الأخ ترسلان اتقاداً أخيراً.

- ولكن، ككل هدايا عديمي الذوق، قدمت بعنف، بل بإهراق الدماء.
- هه. هه، قهقه كورت بصوت أقوى، هذه المرّة.
- لماذا تضحك؟ سأله أخوه الأكبر ـ الحاكم ـ لقد كان اليهودي على حق تماماً. لقد اقتسم الأتراك السلطة معنا، وهذا ما تعرفه جيداً، كما أعرفه.
- بالطبع. يكفي الخمسة رؤساء وزارات شهوداً على ذلك.
- لم يكن هذا إلّا بداية. بعدهم جاء مئات من كبار الموظفين.
- لا لذلك ضحكت ـ قال كورت.
- لقد دللت كثيراً ـ زجره الآخر.

التمع ضوء في عمق عيني كورت:

- إن الأتراك ـ قال ابن الأخ وهو يحاول أن يجذب انتباه الحضور ـ قد جاؤونا نحن الألبان، بما كان ينقصنا: المسافات الكبيرة.
- ولكن أيضاً بتعقيدات كبيرة ـ عقب كورت ـ إن حياة المواطن الفرد تصبح بالغة التعقيد عندما تجد نفسها ملتزمة بميكانيكية السلطة، فكيف بنا بحياة شعب كامل أسيرة في أنظمة حكم كهذه.
- ما الذي تعنيه بذلك؟
- ألم تذكّرنا لتوّك بأن الأتراك قد قاسمونا السلطة؟ لكن اقتسام


Twitter: @ketab_n

السلطة لا يعني أن تأخذ حصتك في الجيش وفي السرايا، المشاركة في السلطة تعني قبل كل شيء المشاركة في الجرائم.

- كورت، لا يمكن التكلّم على هذا النحو.
- على أية حال، الأتراك هم الذين أعطونا أبعادنا الحقيقية، علّق ابن الأخ، ونحن لعنّاهم على ذلك.
- لا ليس نحن... هم! تدخّل الحاكم.
- أجل، عفواً: هم الألبان الذين هناك.

وخيّم صمت متوتر، دخلت خلاله لوك تحمل أطباق الكعك.

- سيحصلون يوماً على استقلالهم، لكنهم سيفقدون كل هذه الإمكانات الشاسعة، استأنف الابن ـ سيفقدون هذا الفضاء الشاسع الذي يستطيعون أن يحلّقوا فيه كما الهواء، وسينغلقون ضمن حدودهم الضيّقة، ستصبح جوانحهم مقيّدة الحركة، تضرب من جبل إلى آخر كهذه الطيور التي لا تستطيع أخذ مجالها الكافي، سيذبلون، ويرتخون، ويقولون أخيراً: ماذا كسبنا من كل هذا؟ عندها سيرفعون الرأس مفتشين عما فقدوا، ولكن هل سيستطيعون الحصول عليه من جديد؟

تنهّدت زوجة الحاكم بعمق، لم يمسّ أحد أطباق الكعك.

- هذا لا يمنع أنهم الآن يسكتون عنّا، اعترض كورت.
- سيفهموننا، ذات يوم.
- ونحن أيضاً. يجب أن نصغي إليهم.
- ولكن، إذا كانوا صامتين... كما قلت للتو.
- لنصغ إلى صمتهم. قال كورت.

انفجر الحاكم ضاحكاً بعنف:

- أنت ما زلت غريب الأطوار ـ قاله له بين ضحكتين ـ لقد قلت



Twitter: @ketab_n

لك: إن حياة العاصمة قد دللتك كثيراً. ولن تضيرك سنة خدمة في إحدى المقاطعات النائية.

- ليحمنا الله من ذلك. قالت أم مارك عليم مهمهمة.

كانت ضحكة الحاكم قد بددت أجواء التوتر التي سادت بضع لحظات حول المائدة. وغمس الجميع شوكهم في أطباق الحلوى.

- إذا كنت قد دعوت هؤلاء الرابسود الألبان، فلأنني تمنيت أن أستمع إلى الملحمة الألبانية، ولقد قال لي قنصل النمسا، الذي قرأ عدة مقطاع منها، إنها أجمل بكثير من البوسنية.

- حقاً؟

- أجل، قال كورت (ورفّت عيناه، كأنما أعشاها انعكاس الشمس على الثلوج)، وتراءت فيها مطاردات عبر جبال، مبارزات ثنائية، اغتصاب نساء وفتيات، مواكب أعراس تتلاحق نحو أعراص مليئة بالمخاطر، وفود (خروشك)[1] مسمّرة في مواقعها، لكونها ارتكبت بعض الأخطاء أثناء مسيرها، خيول سكرى من الخمر، رجال شجعان ضالون على مطاياهم الضالة أيضاً، يضربون السير عبر جبال تحفظ أنفاسهم. يوم تنذر بالشؤم، ضربات تقرع في الليل أبواب قصور ريفية غريبة، تحدٌّ جنائزي للمبارزة يوجهه لميتٍ رجل حي يدور حول مقبرته، مع نباح مئتي كلب، وأنين الميت الذي لا يتمكن من القيام من قبره، ليتساوى بعدوّه، رجال وآلهة يتمازجون ويتقاتلون، يتضاربون، يتزاوجون فيما بينهم. عويل، صراعات، لعنات مخيفة، و... شمس باردة تضيء ولا تدفئ، مخيِّمة فوق ذلك كله.

كان مارك عليم يصغي مسحوراً. وحنين مجهول، بل غريب لهذا

---

(١) لجزء من موكب العرس الذي يأتي لأخذ العروس من منزل أبيها.



Twitter: @ketab_n

الثلج الشتائي البعيد، الذي لم تطأه رجلاه يوماً، يكتسح كيانه كله.

- هذه هي الملحمة الألبانية، التي نجهلها. قال كورت.
- إذا كانت في الحقيقة كما تصفها لنا، فمن الصعب تخيّل أن نكون مذكورين في جانب ما منها، لاحظ أحد الأبناء، إنها أشبه بحمى مأساوية!
- في الوقت الذي نجد ذكرنا في الملحمة السلافية ـ قال كورت.
- ألا يكفي هذا؟ رد الابن ذو النظرة المطفأة. لقد قلت بنفسك إننا الأسرة الوحيدة في أوروبا، وربما في العالم، التي خلّدها شعب في أنشودة بطولة ملحمية. ألا يبدو لك ذلك كافياً؟ ربما تكون تريد أن يذكرنا أيضاً شعبان؟
- أنت تسألني عما إذا كان ذلك لا يكفيني، وأنا أجيبك: لا!

هرش ابنا الأخ رأسيهما، بلامبالاة، وابتسم الأخ الأكبر أيضاً.

- لقد ظللت دائماً غريب الأطوار. ومن المؤكد أنك لم تتغير.
- عندما يأتي (الرابسود) سأدعوكم جميعاً للاستماع إليهم. وسينشدون، من بين ما ينشدون، الأغنية القديمة: «موشّح الجسر ذي القناطر الثلاث» الذي يشتق منه اسم أسرتنا.

كان مارك يصغي فاغر الفم.

- سيغنون هذا الموشّح الشهير، ولكن بروايته الألبانية، هذه المرة. أنا لم أقل شيئاً عن ذلك بعد للوزير، لكنني لا أعتقد أنه سيجد ما يعترض عليه في استضافتنا لهم. سيقطعون طريقاً طويلة، دون أن نحسب مشقة إخفاء آلاتهم الموسيقية... لكن هناك ما يستحق الجهد.

تابع كورت وصفه بلهجة متحمسة. وأثار من جديد العلاقة بين أسرتهم، هنا، والملحمة البلقانية، هناك، كما أثار العلاقة بين الإدارة والفن، الزائل والأزلي، الجسد والروح...



Twitter: @ketab_n

- أياً يكن الأمر، تحدّث عن ذلك كما تريد، وبقدر ما تريد بين هذه الجدران الأربعة. لكن احذر من أن تفعل ذلك في أي مكان خارجها. قال له أخوه الأكبر منبهاً، وقد تجهّم وجهه.

ثم ساد، حول المائدة، صمت، جعلته قرقعة الشوك على الصحون، أكثر توتراً.

ولكي يتغير الجو قال الحاكم مخاطباً مارك عليم بلهجة مازحة:

- قل لي، يا ابن أختي: منذ مدة لم أعد أسمعك تشارك في الحديث. يبدو أنك غرقت من رأسك إلى قدميك في عالم الأحلام!

شعر مارك بالحمرة تكسو وجهه من جديد: ها هي أنظار الجميع تعود وتتركز عليه.

وتابع خاله:

- أنت تعمل في قسم الفرز أليس كذلك؟ لقد سألني الوزير أمس عن أخبارك. وقال لي إن المهمة الحقيقية في قصر الأحلام تبدأ في قسم التفسير. فهناك فقط يصبح العمل إبداعياً فعلاً، وهناك يمكن للكفاءات الفردية أن تبرز وتلمع. أليس هذا رأيك أيضاً؟

رفع مارك عليم كتفيه وكأنما ليقول إنه ليس هو من اختار القسم الذي يجب أن يعمل فيه. لكن بدا له أن ثمة شعاعاً خفيّاً في نظرة خاله الأكبر.

ومع أن الحاكم قد خفض نظره فجأة فوق صحنه، فإن هذا الشعاع الغريب لم يخف على أخته، التي عادت، وبانتباه قلق، تتابع المناقشة حول (سرايا طابير)، هذه المناقشة التي يشارك فيها الآن الجميع ما عدا ابنها.

أجل... عدا مارك عليم الذي يجد نفسه اليوم في قلب طابير... أما فكر الأم فيعمل وكأنه فريسة حمى ما. هل سهرت طوال تلك



Twitter: @ketab_n

الأيام على ابنها، كي ترمي به، في النهاية، في فخ للكواسر ليس في الواقع، ورغم تسميته الجذابة، إلّا آلية عمياء، قدرية، مجرمة، كما وصفها الجميع للتوّ؟

وبطرف العين كانت تتأمّل وجه ابنها الهزيل؟ كيف سيرسم ولدها اتجاهه في فوضى الأحلام هذه؟ في هذا الندف الضبابي للنوم، في هذه الكوابيس على تخوم الموت؟ كيف تركته يدخل في جحيم كهذا؟

حوله، كان يستمر الحديث عن (سرايا طابير)، لكنه شعر أنه شديد الملل بحيث لا يستطيع متابعته. كان كورت يناقش مع واحدٍ من أبناء أخيه ما إذا كانت استعادة (سرايا طابير) لسلطتها، تشكّل مؤشراً على الأزمة الحالية التي تعيشها الدولة العظمى العثمانية، أم أنها مجرّد صدفة. بينما كان الحاكم يجهد مكرراً: لنتكلم في شيء آخر.

أخيراً نهض الزوّار لتناول القهوة في قاعة الاستقبال. ولم يغادروها إلّا متأخرين، عند منتصف الليل. وبخطى بطيئة صعد مارك عليم إلى غرفته في الطابق الثاني، فلم تكن له أدنى رغبة في النوم، لكنه لم يكن قلقاً بسبب ذلك. فقد أخبروه أن الموظفين الجدد في (سرايا طابير)، يعانون دائماً خلال الأسابيع الأولى من مشكلة الأرق، لكنهم لا يلبثون أن يستعيدوا قدرتهم على النوم، بعد حين.

تمدّد على سريره، وظلت عيناه مفتوحتين لوقت طويل. كان ذهنه صافياً جداً. إنه أرق خالٍ من العذاب، منتظم وبارد. كما أنه ليس الشيء الوحيد الذي تغيّر فيه. كل شيء في كيانه يبدو خاضعاً لعملية تحوّل. الساعة الكبيرة في الممر، تدق الثانية، ويقول في نفسه إنه قد يغفو في الثالثة أو في الثالثة والنصف. ولكن، حتى لو زاره النعاس، فلأي ملفٍ سيختار أحلامه هذه الليلة؟

كانت هذه هي آخر فكرة راودته قبل أن يغرق في نوم عميق.



Twitter: @ketab_n

# III

# التفسير

مبكراً أكثر مما توقّع، وحتى قبل أن تطل أول بشائر الربيع (كان قد قال في نفسه إنه سينتقل إلى قسم التفسير هذا الربيع على أقرب تقدير، أو حتى خلال الصيف المقبل. . .) قبل أن يشعرنا الفصل الجديد، إذن، بقدومه، كان مارك عليم قد انتقل إلى قسم التفسير.

فذات يوم، وقبل أن يدق جرس استراحة الصباح، أُبلغ مارك عليم بأن عليه أن يراجع الإدارة العامة. بخصوص أي موضوع؟ سأل حامل الرسالة بقلق، لكنه لم يلبث أن ندم في اللحظة ذاتها عندما اشتبه بظل سخرية يرتسم على أطراف شفتيه، فإن هذا النوع من الأسئلة لا يطرح قطعياً، في (سرايا طابير).

وبينما كان يعبر الممر كانت كل أنواع الشكوك والافتراضات تختلط في ذهنه. هل تراه ارتكب بعض الأخطاء في عمله؟ هل يكون أحدهم قد جاء من آخر أقاصي الإمبراطورية كي يطرق جميع الأبواب، ويذهب من مكتب إلى مكتب، من وزير إلى وزير، ليدّعي أن حلمه قد رمي بشكل غير عادل في سلة المهملات؟

حاول أن يتذكر الأحلام التي استبعدها هذه الأيام الأخيرة، بعد تردد. لكنه لم يتذكّر أياً منها. ربما لا يكون الأمر متعلقاً بذلك. ربما



Twitter: @ketab_n

استدعي لأسباب أخرى. أما بالنسبة لماهية هذه الأسباب، فإن الأمر يكون دائماً (تقريباً) أنهم يستدعونك لسبب لم يرد إلى خيالك.

إفشاء أسرار؟ لكنه لم يلتقِ أحداً من أصدقائه منذ تعيينه.

وكان وهو يسأل عن طريقه عبر الممرات، يشعر أكثر فأكثر بأنه سبق له أن عبر هذا الجناح من القصر. وقال لنفسه إنه ربما أحس بذلك لأن جميع الممرات تتشابه كقطرتي ماء. لكنه عندما وجد نفسه في القاعة الكبيرة ذات منقل الفحم، حيث يجلس، وراء طاولة خشبية، الرجل ذو الوجه المستطيل، والنظرة المسددة باتجاه الباب، تأكد من أنه طرق باب الإدارة العامة، في اليوم الأول لمجيئه إلى السراي.

لقد جعله استغراقه في العمل ينسى كلياً وجود الرجل ذي الوجه المستطيل الذي استقبله ذلك اليوم. وحتى الآن، فهو يجهل موقعه الوظيفي في قصر الأحلام. تراه يكون واحداً من نواب الرئيس الكثر، أم أنه المدير العام بذاته؟

وقف مارك عليم أمامه، متجمداً من الجزع والقلق، وانتظر أن يوجّه إليه الآخر الكلام. لكن عيني المسؤول الكثير ظلتا تتأملان الباب، على مستوى المقبض. ومع أن مارك عليم بات معتاداً على هذه العادة المستهجنة لمحادثه، فقد اعتقد للحظة، أنه ينتظر شخصاً آخر قبل أن يعرض له سبب استدعائه. لكن الموظف حوّل أخيراً نظره عن الباب وقال بصوت منخفض جداً:

- مارك عليم...

تصبّب جسد مارك عرقاً بارداً، فهو لا يدري بما عليه أن يجيب: هل يجب أن يقول: بأمركم، أو أن يتلفّظ بعبارة احترام أخرى، أو أن



Twitter: @ketab_n

يظل صامتاً، منتظراً، دون حراك، النبأ المشؤوم، فقد كان في هذه اللحظة مقتنعاً تماماً بأنه لم يستدع إلى هنا إلّا من أجل شيء مكرب.

- مارك عليم، إنك، وكما قلت لك في اليوم الأول لمجيئك إلى هنا، تناسبنا.

آه يا إلهي! قال مارك عليم في نفسه. من جديد عادت هذه الجملة الغريبة التي اعتقد أنه لن يضطر إلى سماعها فيما بعد...

- أنت تناسبنا، ولذلك فإنك تترفع، ومنذ اليوم، إلى قسم التفسير.

شعر مارك عليم بالطنين في أذنيه، وبحركة ميكانيكية اتجه نظره إلى المنقل النحاسي في وسط القاعة، والذي بدا له جمره المغطّى جزئياً بالرماد، يلتمع بابتسامة متهكمة، كتلك التي يرسمها بعضهم وهو يغمض عينيه نصفياً. إنه الجمر نفسه الذي التهم، في يوم وصوله المشهود، كتاب التوصية الذي كان يحمله، والذي يبدو اليوم مبعثراً بنوع من اللامبالاة.

جاءه صوت الآخر:

- لك الحق في ألّا تظهر أية إشارة رضى.

وعندها تساءل مارك عليم: ما هي ردة فعلي الآن؟

الواقع أنه لم يشعر بأي فرح، ومع ذلك أحسّ بأن عليه أن يكون شاكراً، فلقد كان قبل قليل في قمة القلق. فتح فمه ليقول بضع كلمات، لكن صوت الموظف قاطعه:

- أنا أفهمك. إذا كنت لم تعبِّر عن أي فرح، فذاك لأنك تعي تماماً المسؤوليات التي ترتبها وظيفتك الجديدة. فقسم التفسير يوصف حقاً بأنه مركز الجهاز العصبي للطابير. المكافآت تصبح فيه أعلى، لكن العمل هو أيضاً أكثر صعوبة. (تحتاج غالباً إلى العمل ساعات إضافية). إضافة إلى أن المسؤولية فيه أثقل ـ وهذا هو المهم ـ



Twitter: @ketab_n

عليك على الأقل أن تقدِّر الخطوة التي أعطيت. ولا تنْسَ أن الطريق إلى قمة (سرايا طابير) تمر بالتفسير.

لأول مرة استقر نظره على مارك عليم ولكن ليس على وجهه، بل على مستوى وسطه، على مستوى المقبض نفسه، فيما لو كان الهدف الذي وجّه نظره إليه باباً.

«إن الطريق إلى قمة الطابير تمر بالتفسير». تمتم مارك عليم لنفسه وهو يكرر الجملة التي سمعها لتوه. وأراد أن يقول إنه لا يملك المؤهلات المطلوبة لهذه المهمة الدقيقة المتمثلة في تحليل الأحلام. لكن الرجل الآخر سبقه، وكأنه قرأ أفكاره:

- إن تفسير أحلام (سرايا طابير) عمل صعب، بل صعب جداً. ولا يشبه بشيء التفسير السخيف الذي تعطيه العامّة للأحلام: حية تعني نذير شؤم، إكليل فأل خير، وكليشيهات أخرى من هذا النوع. كما أنه لا يشترك بشيء مع جميع الأعمال حول مفتاح الأحلام. إن التفسير في قصر الأحلام عمل ذو مستوى آخر، أرقى بكثير من هذا كله. يخضع لمنطق آخر، ولرموز أو لمزيج رموز أخرى.

راود مارك عليم أن يقول: إنني لست أهلاً لعمل كهذا.

لقد كان مرعوباً لفكرة التعامل مع رموز تقليدية، فكيف به إذا أصبح الأمر متعلقاً برموز جديدة كلياً؟ سيكون أصعب أيضاً؟ واستعد لأن يفتح فمه أخيراً، إلا أن الآخر قاطعه:

- ربما تسأل نفسك، كيف ستفعل لتتعلم مفاتيح التفسير. لا تخف شيئاً يا ولدي، ستتعلم وبسرعة فائقة. فهكذا، مثلك، بتردد، وبدون ثقة كبيرة في النفس، بدأ العمل، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد فخر التفسير. وسيكفيك أسبوعان أو ثلاثة على الأكثر



Twitter: @ketab_n

لتصبح معلماً في ذلك. ومن ثم (وأومأ له أن يقترب، فاقترب خطوة من الطاولة) لن تحتاج إلى شيء أكثر من ذلك. بل إن التعلم أكثر يصبح مضراً لأنه يجعلك أمام خطر التحوّل إلى مفسِّر آلي. والتفسير هو، في الدرجة الأولى، عمل إبداعي. يجب ألّا تمضي فيه دراسة الصور والرموز إلى الحد الأقصى. الأساس هو تبنّي بعض المبادئ كما في علم الجبر. ومع ذلك فإن هذه المبادئ نفسها يجب ألا تطبّق بشكل جامد أكثر مما ينبغي وإلّا فقد هذا العمل معناه الحقيقي. إن التفسير الكبير يبدأ حيث ينتهي الروتين. مزيج الرموز! هذا ما يجب أن يتركز عليه انتباهك قبل كل شيء.

نصيحة أخيرة: إن كل عمل (سرايا طابير) يشكل سراً كبيراً، لكن التفسير هو سر الأسرار. لا تنْسَ هذا! والآن اذهب وابدأ عملك الجديد. لقد أنبئنا بذلك منذ وصولك. حظاً سعيداً.

خرج مارك عليم وهو يدفع، ذاهلاً، الباب الذي عاد نظر الموظف يتركّز عليه. تاه في الممرات، شارد الذهن، إلى أن تمالك نفسه من جديد، وتذكّر أنه يفتِّش عن قسم التفسير. كانت الممرات خالية تماماً. يجب أن تكون فترة الاستراحة الصباحية قد انتهت وهو عند الموظف الكبير: لا يمكن تفسير هذا الهدوء بطريقة أخرى. إنه يعرف في ذلك، الصمت الذي يعود فيخيِّم عموماً، بعد هذه الاستراحة. مشى طويلاً على أمل أن يلتقي بأحدهم، كي يستعلم منه، لكن أحداً لم يظهر. أحياناً كان يخيّل إليه أنه يسمع خطوات أمامه، بعد المنعطف الذي يصله الممر، لكنه ما إن يبلغ هذا المنعطف حتى تضيع أصوات الخطى في مكان آخر، ربما في الطابق الأعلى، ربما في الأسفل، وإذا ظللت ضائعاً هكذا طوال فترة الصباح؟ فكّر بقلق. سيقال إنني منذ اليوم الأول، وصلت إلى عملي متأخراً. ولم يزل قلقه


Twitter: @ketab_n

يتنامى. كان عليه أن يسأل نائب المدير ـ هذا إذا لم يكن هو المدير نفسه، أو... الشيطان يعلم من يكون! ـ أيّ طريق عليه أن يسلك ليصل إلى هناك.

تابع سيره. وبدت له الممرات أليفة وغريبة مرة أخرى. لم يسمع أي صوت لباب ينفتح، أقل صوت انفتاح باب. دخل سلماً عريضاً وصعد إلى الطابق الأعلى، ثم عاد فنزل إلى حيث كان. وبعد لحظات وجد طابقاً أسفل. لكن في كل مكان، الصمت نفسه، والفراغ نفسه. وأحس أنه بعد قليل، لن يستطيع تمالك نفسه عن الصراخ. فلا بد أنه الآن في جناح بعيد جداً عن قلب المبنى، بدليل أن أعمدة ارتكاز الرواق تبدو متراصّة متقاربة، فجأة، وفي اللحظة التي استعد فيها للعودة أدراجه، تراءى له في طرف الرواق، هناك حيث يبدأ منعطف جديد، شكل بشري اتجه نحوه، وقبل أن يصبح قريباً منه، أشار له الرجل الذي ظل منزرعاً في مكانه بأن يتوقف. فتجمّد مكانه.

- عمّ تفتش؟ سأله الرجل المجهول، ممنوع المرور من هنا.
- أفتش عن قسم التفسير، منذ ساعة وأنا أدور على نفسي.
- تعمل في التفسير، ولا تعرف من أين تذهب إليه؟
- أنا عُيِّنت هناك لتوّي، لكنني أجهل مكانه.

تابع الآخر تفحّص مارك عليم إلى أن قال أخيراً:

- عد من الاتجاه نفسه الذي أتيت منه، واتبع الممر حتى مدخل السلّم الكبير، من هناك اصعد إلى الطابق الأعلى، وعندما تصله، خذ الرواق الذي على يمينك وستجد «التفسير» في آخره، أمامك تماماً.
- شكراً. قال له مارك عليم وهو يستدير على عقبيه.



Twitter: @ketab_n

وظل يردد وهو يسير: الممر الرئيسي حتى الدرج الكبير، الطابق الأعلى، الرواق الذي على اليمين.

من يمكن أن يكون هذا الرجل الذي ساعدني؟ شكله شكل حارس. ولكن ماذا له أن يحرس في عالم الخرسان ـ الطرشان هذا؟ لا شك أن هذا القصر ممتلئ بالأسرار!

من بعيد، اعتقد أنه رأى ضوءاً كئيباً يهبط من الواجهة الزجاجية التي تشرف على بئر الدرج. وتنفّس الصعداء.

مضى عليه حوالي ثلاثة أسابيع وهو يعمل في «التفسير». في الأسبوعين الأولين كان متعلّقاً بالأساتذة القدماء، المجرّبين، يتعلم على أيديهم مبادئ أسرار تفسير الأحلام، حتى اليوم الذي جاءه فيه رئيسه قائلاً:

ـ لقد تعلمت ما يكفي. ومنذ الغد سوف تتلقى ملفّك الخاص.

ـ بهذه السرعة؟ ولكن هل بتّ أهلاً للعمل بمفردي؟

ابتسم الرئيس وقال:

ـ لا تقلق. كلُّهم بدأوا هكذا. ثم هناك مراقب القاعة، بإمكانك اللجوء إليه عند الحاجة.

منذ أربعة أيام وهو يعمل على ملفّه. لم يشعر أبداً في حياته، برأسه مكدراً إلى هذا الحد، فالعمل في الانتقاء، الذي بدا له يوماً منهكاً، يبدو له اليوم، بالمقارنة مع عمله الجديد، كلعبة. لم يكن ليتخيل يوماً أن العمل في التفسير هو جهنمي إلى هذا الحد.

كان قد حُوّل إليه ملف اعتبر سهلاً: (حياة مدينة، فساد) وقال في نفسه أحياناً: يا إلهي: إذا كنت أضيع أمام ملف كهذا فماذا سأفعل عندما سيضعونني أمام ملف المؤامرات ضد الدولة؟

كان الملف محشواً بالأحلام. وكان قد قرأ حوالي ستين منها،



Twitter: @ketab_n

ووضع جانباً عشرين منها، أحسّ بنفسه، فوراً، القدرة على فك رموزها. لكنه، عندما عاد إليها، شعر، على العكس من ذلك، بأنها الأكثر صعوبة. وكان قد اختار أيضاً من بين مجموعة الستين، بضعة أحلام أخرى بدت له ممكنة التفسير. لكنها، وعلى امتداد ساعتين، غامت، تجهّمت، وأظلمت أمام عينيه، لتتحول في النهاية إلى أحجية حقيقية.

مستحيل! صرخ في نفسه عدة مرات. سأصبح مجنوناً! ها قد مضت أربعة أيام ولم يتوصل إلى فك رموز أي حلم. وفي كل مرة كان يبدو له أن بعض العناصر تأخذ معنى ما، كان لا يلبث الشك أن يمتلكه، وإذا بما بدا له مفهوماً قبل لحظات يعود فيصبح غير مفهوم.

لكن هذا جنون! كل هذه القصة ليست إلّا محض جنون! ردّد في نفسه وهو يغطي عينيه بيديه.

كانت فكرة حصول خطأ محتمل تلازمه كهاجس. ومرت به لحظات أقنع نفسه فيها أنه، في هذا العمل، لا يمكن إلّا اقتراف الأخطاء الكبيرة. وأنه من محض الصدفة، أن يحصل أحياناً ويصيب أحد.

أحياناً كان يصيبه قلق محموم، فهو لم يكن قد قدّم بعد لرؤسائه تحليلاً لأي حلم. وسيعتبره هؤلاء إما غير كفؤ، وإما كواحد مبالغ في الوجل. وجل بشكل مبالغ فيه. ولكن كيف يفعل الآخرون، الذين يراهم يلمّون أوراقاً كثيرة بكتاباتهم؟ يا إلهي! كيف يستطيعون أن يبدوا مظهراً بمثل هذا الهدوء؟

والحقّ أن كل محلل كان يقف أمام أحلام يعجز عن تفسيرها. وتحوّل هذه إلى المحللين المختصين بالصعوبة. أساتذة القسم. لكنه


Twitter: @ketab_n

من المفهوم طبعاً، أنه لا يمكن تحويل غالبية الملفات إلى «التفسير الصعب».

فرك مارك عليم صدغيه، كأنما ليطرد الدم الذي تجمّع فيهما والذي يصرّ على الركود. وتوافدت الرموز بالعشرات إلى رأسه: الصولجان، الدخان، العروس العرجاء، الثلج... وراحت تتحرك في رقصة سربند جامحة، تطرد منه التصورات العادية للعالم، وتجهد في أن تحل محلها حركاتها المسعورة، الخرقاء. فلأتكل على الله. وسأعطي لهذا الحلم أول تفسير يرد إلى ذهني. قال في نفسه وهو يضع أمامه ورقة. ها! فليحالفني الحظ! فليحالفني الحظ!

كان الحلم، حلم طالب مدرسة دينية في العاصمة: رجلان يجدان قوس قزح قديماً منهاراً. فقاما برفعه بصعوبة، وتركيزه كما كان، نظّفاه من الغبار، ثم قام أحدهما بإعادة رسمه وتلوينه، لكن القوس رفض بعناد العودة إلى الحياة. وعندها تركه الجميع يقع، وذهبوا راكضين.

هه... قال مارك عليم وهو يضغط ريشته بين أصابعه. وهمّ بالكتابة... لكن موجة الشجاعة التي غمرته كانت قد اختفت. ورغم ذلك كله فقد انكب على الورقة. ودون أن يفكّر جيداً، كتب في أعلاها، بعد أن غيّر فجأة تفسيره الأول للحلم:

إنذار بـ... إنذار بـ... وكاد يصيح بصوت عالٍ: «يا إلهي بماذا يريد أن ينبئ هذا الكابوس؟».

إنه لمما يثير الصراخ، مما يدفع إلى الجنون!

شطت كلمة إنذار بـ، وبغضب رمى الورقة في كومة الأحلام غير القابلة للتفسير. لا، إنه كان يفضّل أن يسرّح من العمل على أن يهتم


Twitter: @ketab_n

بحماقات كهذه! ووضع جبهته بين كفّيه وظل هكذا لفترة وعيناه نصف مغمضتين.

بعدها سمع صوت مراقب القاعة:

- مارك عليم. ما بك؟ هل تشكو الصداع؟
- أجل. قليلاً.
- لا تقلق. هذا يحصل للجميع في البداية. هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟
- شكراً. سآتي حالاً لأطلب منك بعض التفسيرات.
- أجل. لقد انتظرتك طوال هذه الأيام.
- لم أرد إزعاجك من أجل نعم أو لا.
- لا. لا تفكّر بهذه الوساوس. أنا هنا لمساعدتك.
- خلال ساعة سأحمل إليك شيئاً. مع أن...
- مع أن... ماذا؟
- مع أنني لست متأكداً تماماً من ذلك، فقد تكون تفسيرات مغلوطة تماماً، هذا إذا لم تكن بلاهات خالصة.

ابتسم المراقب، وقبل أن يبتعد، رماه بعبارة:

- أنا في انتظارك.

الآن لم يعد أمامي أي مهرب. شئت أم أبيت، عليّ أن أتم هذا العمل كالآخرين. هيا بنا. ولنتكل على الله! وفتّش عن ورقة الحلم الذي يحكي عن مجموعة من الرجال يرتدون السواد، وهم يجتازون حفرة، قبل أن يضيعوا في حقل ثلجي. وفجأة بدا له معنى الحلم واضحاً بعد أن تقوم مجموعة من الموظفين باقتراف عملية اغتصاب للسلطة، يتغلبون على العوائق التي تنتصب في طريقهم ويتقدمون إلى حقل مغطّى بالثلج، مما يعني سقوط الحكومة.



Twitter: @ketab_n

سجّل هذا التفسير بسرعة. لكنه لم يكن قد انتهى من جملته الأخيرة عندما قال لنفسه:

ـ لكن الأمر يتعلق تقريباً، بمؤامرة ضد الدولة!

أعاد قراءة تفسيره، ووجد نفسه مرتاحاً لفكرة كون الأمر يعني بشكل أو بآخر شيئاً يقرب من المؤامرة.

لكن الملف الذي كلّف به يتعلق بالحياة المدنية والفساد... ارتخت يداه من اليأس، وترك الريشة تقع. ما إن اعتقد مرة أنه استطاع أخيراً أن يبيّض شيئاً، حتى اكتشف أنه فشل من جديد! لكن. انتظر ـ قال لنفسه ـ قد لا يكون الأمر هكذا. ففي نهاية الحساب، ليست هناك إلا خطوة واحدة بين الفساد والتآمر ضد الدولة. ما دام أن الذين يتورّطون في هذا وذاك هم من الموظفين. ثم... آه... كم كان أبله كي لا يفكر بذلك قبلاً. ثم إن تصنيف الملفات لم يكن بهذه الدِّقة، ولم يقل أحد إن الملف المعنون: «الحياة المدنية»، لا يمكن أن يحتوي على أحلام تمسّ القضايا الكبيرة للدولة: ألم يقولوا له كثيراً، إنه لا يمكن إلّا تهنئة كل موظف في (سرايا طابير، يبحث بجرأة، عن إشارة هامة، حتى لو لم يكن قد تبيّن للنظرة الأولى إلّا علامات عادية جداً؟ بلى. إنه يذكر جيداً هذه المعلومة. ويقال أيضاً إن كثيراً من الأحلام الرئيسة قد خرجت من الملفات الأكثر تفاهة.

أحس مارك عليم بالانتعاش. ودون أن ينتظر هبوط حماسه، تناول على التوالي أربعة أحلام من التي كان قد قرأها عدة مرّات، وسجّل فوراً، تحت كلٍّ منها، التفسير الذي أعطاها إياه.

كان راضياً عن نفسه، وعلى وشك تفحّص ورقة الحلم الخامس، عندما دفعه سبب غامض للتفتيش، بين كومة الأوراق، عن الحلم الأول، وأعاد قراءة التفسير الذي كتبه بأسفله. وللحال تملّكه شك.



Twitter: @ketab_n

ألم أكن مخطئاً؟ ألا يمكن لهذا الحلم بأن يفسّر بطريقة مختلفة؟ وبعد لحظة كان مقتنعاً بعمق أنه أخطأ في تفسيره. غطّى العرق البارد جبهته، وراح يتأمّل، جامد النظرة، الأسطر التي كانت يده قد خطّتها قبل قليل، بكثير من الحيوية، والتي تبدو له الآن غريبة، وعدائية. ماذا عليه أن يفعل؟

وقال لنفسه: فلنذهب إلى الشيطان... من سيعلّق هذا القدر من الأهمية على هذا الحلم، من بين عشرات آلاف الأحلام التي تفسّر هنا؟ وهَمّ بأن يترك الورقة على حالها، عندما ارتدّت يده عنها، في اللحظة الأخيرة. وإذا اكتشف أحدهم خطأه؟ خاصّة وأن هذا الحلم يتناول موظفين في الدولة! والحالة هذه، يمكن أن تُحذَّر الجهات الرسمية بطريقة ما. والأسوأ أن كلاً منها قد يعتبر هذا الاتهام موجهاً لها أو للمحيطين بها. وستبحث عن الذي قدّم تفسير هذا الحلم، وعندما يعرف من يكون، سيقال: عجباً! واحد يدعى مارك عليم، صوص لم يكد يدخل (سرايا طابير)، أراد، بتحليله لهذا الحلم، أن يلطّخ بالوحل كبار موظفي الدولة. انتبهوا لهذه الحيّة السّامة.

وبحركة مفاجئة، رفع مارك عليم الورقة بشكل عمودي مع الطاولة، وكأنه يخشى أن يقرأ أحد ما كتبه عليها. عليه دون شك أن يصلح هذا الخطأ، ما دام الأوان لم يفت بعد. ولكن كيف؟ فكر بأن يحذف هذا الحلم ببساطة وكليّاً، لكنه تذكّر أن كل ملف يحمل على غلافه عدد الأحلام التي يحتويها.

إن حركة كهذه تكفي لأن ترمي بك مباشرة في السجن، كمجرم ساقط. شيء آخر... قال في نفسه ـ شيء آخر... كان عليه أن يفعل شيئاً آخر. آه. لو لم يكن قد غطس في هذه الورقة منحني الرأس... لو لم يكن قد تناول ريشته وكتب بسرعة، كالأحمق، لكان بإمكانه


Twitter: @ketab_n

الآن أن يفسِّر هذا الحلم بطريقة مختلفة كليّاً. إن حماساً شيطانياً قد دفعه لأن يغطّي هذه الورقة بالكتابة السوداء، لأجل حظّه البائس.

والآن تشوّه كل شيء... لكن... انتظر قليلاً... قال لنفسه دون أن يزيح نظره عن كتابته، ربما لا يكون كل شيء قد ضاع. قرأ النص بسرعة خاطفة وقال إنه ما تزال هناك وسيلة لإصلاحه. وتعجّب بعد أن قرأ النص للمرة الثالثة، كيف أنه لم يفكّر بذلك قبلاً. وأشرق عزاء غير متوقع، من صدغيه إلى حلقه فرِئتيه. وفي النهاية فإن التصحيحات هي شيء مألوف في أي نص. وسيُدخل هو تصحيحه بطريقة لا تجذب الانتباه، بل تعطي الانطباع بأنها عبارة توضيح وتحديد إضافية، تضاف إلى هذه الجملة أو تلك. تحسين للأسلوب، تحديداً كان يكفيه أن يضيف فصلاً بسيطاً. أعاد للمرة الألف قراءة الجملة:

بعد أن تقوم مجموعة من الموظفين باقتراف عملية اغتصاب للسلطة... وأخيراً، وبيد مرتجفة يضيف كلمة بمنع، ويصلِّح كلمة اقتراف، بحيث يصبح للجملة الآن معنى معاكس تماماً:

بعد أن تقوم مجموعة من الموظفين بمنع اقتراف عملية اغتصاب للسلطة...

أعاد قراءتها مرة ثم اثنتين... وبدا له كل شيء مرتباً، ومنظماً. التصحيح يكاد لا يلحظ، وحتى لو انتبه له، فإنه يمكن أن يبدو سهواً حصل أثناء الكتابة، عاد الكاتب فصحّحه عند القراءة الأولى... تنفّس الصعداء: أخيراً سويت القضية. وبعد أن اقترف مارك عليم هذه العملية ضد العملية ضد السلطة... نظر حوله برعب. ولو أنّ أحدهم قد لاحظ حيلته؟

هراء! قال في نفسه، فالموظّف الأقرب إليه، الذي كان يعمل على الطاولة نفسها، كان على مسافة لا تسمح له حتى بتبيّن أحرف


Twitter: @ketab_n

عنوان الملف، فكيف بكلمات الأسطر التي كتب؟ أي حظ أن يكون خطي دقيقاً بهذا الشكل، قال لنفسه، وتنفّس الصعداء مجدداً. الآن، وبعد هذا الانفعال، يستطيع أن يستريح قليلاً. أي عمل شيطاني هذا!

اختلس نظرة إلى بقية القاعة. كان الموظّفون يعملون بهدوء غارقين في ملفاتهم. ولا يسمع صوت، حتى صرير الأقلام على الورق. ومن وقت إلى آخر، كان أحدهم يترك طاولة العمل، وبخطى خفيفة، جاهداً أن يثير أقل ضجة ممكنة، يتجه إلى الباب. لا شك أنه ينزل إلى الأرشيف، ليستلهم تفسيراً لأحلام مشابهة، قام بتحليلها، في مرات سابقة، وأحياناً قديمة جداً، مفسِّرون مشهورون. يا إلهي! قال مارك متنهِّداً وهو يتأمل عشرات الرؤوس هذه، منحنية على ملفاتها.

في هذه الملفات كل نوم العالم، هذا الأوقيانوس من الهول، الذي يجهد هؤلاء في أن يتبيّنوا على صفحته بعض العلامات، بعض الإشارات الضائعة. كم نحن بائسون! قال لنفسه.

عاد يستأنف واجبه في قراءة بعض الأوراق الأخرى، لكنه أحس وكأن دماغه قد تعطّل. أجل إن عينيه تتابعان الكلمات، لكن ذهنه شارد.

«آلاف الأحذية في ساحة. وفوقها سلك حديدي مشدود».

«الثلج أيضاً، لكنه هذه المرة مجموع في صناديق كبيرة، ومعه... رجل في صرّة!».

أي دماغ غير منظّم، هذا الذي أنتج هذا الحلم! وفجأة، وبإحساس غريب، قريب من الحنين، تذكّر أوّل حلم قرأه في هذه المؤسسة. ثلاثة ذئاب بيضاء على مئذنة مسجد الولاية! حلم جميل، نظيف وصافٍ. أين أصبح هذا الحلم في هذا البحر المرعب؟ تنهّد


Twitter: @ketab_n

بعمق، ثم سحب ورقة حلم جديد. ما زال عليه أن يحلّل اثنين على الأقل قبل أن تدق ساعة الاستراحة. لكن الجرس دق قبل موعده ـ كما خيّل له ـ فأقفل ملفه.

في الطابق السفلي، حيث يشرب الشاي والسحلب، كانت تسود الضجة المألوفة. فهذا هو المكان الوحيد الذي يستطيع فيه واحدهم أن يتبادل بعض الكلمات مع من يعرف، وحتى مع من يجهل. ولم يكن مارك عليم قد قضى إلّا وقتاً قصيراً جداً في قسم الانتقاء، مما لم يسمح له بالتعرّف إلّا على عدد قليل من الموظفين، وحتى هؤلاء فنادراً ما كان يحصل ويلتقيهم في المشرب. لكنه حتى عندما يراهم، كان يحس بشعور غريب: كان يحسّهم بعيدين... وكأنما ينتمون إلى مرحلة مضت وانتهت، من وجوده. وكان يفضّل أن يتبادل الحديث مع أشخاص لا يعرفهم. فهو لم يكن قد أحس يوماً واحداً بالرضى، في قسم الانتقاء، وربما كان ذلك سبب تهرّبه من أي لقاء مع موظفي هذا القسم. أما في قسم التفسير، فقد كانت الأيام أيضاً مملة وثقيلة، باستثناء هذا اليوم الذي توصّل فيه إلى شيء ما. وربما كان ذلك ما جعله ينزل إلى المشرب اليوم بمزاج مرتاحٍ نسبياً، بخلاف المرات السابقة حيث كان ينزل وقلبه مشحون بالمرارة.

- أين تعمل؟ سأل مارك عليم بلهجة منطلقة رجلاً وجد مقعداً خالياً قبالته، على طاولة مليئة بالأكواب الفارغة.

تصلّب وجه الرجل وكأنه يقف أمام أحد رؤسائه، وأجاب:

- في مكتب النّاسخين يا سيدي.

لم يخطئ تقدير مارك عليم قط، فلقد كان من السهل إدراك أن الرجل موظف جديد، كما كان هو قبل شهر.

- هل تشكو من مرض؟ ـ سأله بعد أن شرب جرعة من قهوته، وهو



Twitter: @ketab_n

يعجب من هذه الثقة بالنفس الجديدة عليه ـ وجهك شاحب تماماً.

ـ لا يا سيدي. أجابه الآخر وهو يضع كوب السحلب على الطاولة. لكن لدينا عمل كثير. و. . .

ـ نعم. حتماً. ـ قال له مارك عليم بذات اللهجة المنطلقة، دون أن يدري من أين جاءته لهجة كهذه. ربما تكون هذه مرحلة تجدد نشاط الأحلام.

ـ نعم. . . نعم. قال الآخر وهو يهز رأسه بقوة جعلت مارك عليم يشعر بأنه تكفي حركتان مشابهتان أو ثلاث، لأن تجعل عنقه النحيل ينقطع.

ـ وأنت؟ سأله الآخر خجلاً.

ـ في التفسير.

لمعت عينا الرجل بعمق، ورسم ابتسامة بدت تقول: لقد حزرت ذلك.

ـ اشرب. يكاد هذا يبرد. قال مارك عليم، إذ لاحظ أن الآخر لم يعد يجرؤ على رفع كوبه عن الطاولة.

ـ إنها المرة الأولى التي أقابل فيها سيداً من التفسير. قال الآخر بتأثّر. . . أنا سعيد جداً!

ولمرتين أو ثلاث أمسك بكوب السحلب لكن دون أن يجرؤ على رفعه إلى شفتيه.

ـ هل مضى وقت طويل على عملك في القصر؟

ـ شهران يا سيدي.

وبعد شهرين فقط لم تعد تحمل إلّا الجلد فوق العظم ـ فكّر مارك عليم ـ وحده الله يعرف كيف سيصبح شكله هو من الآن وإلى بعض الوقت.



Twitter: @ketab_n

- كان لدينا عمل كثير، كثير، في الفترة الحالية. واضطررنا لأن نعمل يومياً عدة ساعات إضافية. قال الرجل وهو يشرب أخيراً السحلب.
- هذا يعمي العينين ـ أجابه مارك. وابتسم الآخر، كأنه يقول: وهل هذا خطأي؟
- يحصل أن تكون غرف السجن الانفرادي قريبة من مكاتبنا. وعندما يحتاجون إلى كتبة أثناء عمليات الاستجواب يستعينون بنا.
- غرف السجن الانفرادي. ما هذه؟
- ألا تعرف؟ قال محدّثه مستغرباً، مما جعل مارك يندم على طرحه السؤال.
- أنا لم أقم أبداً بعمل يخصّها. لكنني سمعت بها، دون شك.
- إنها ملاصقة لمكاتبنا.
- إنها تلك التي توجد في الجناح الذي يحرسه الخفراء، من القصر.
- بالضبط. قال الآخر فرحاً. فنقطة الحراسة تقع تحديداً أمام باب السجن. إذن فقد مررت من هناك؟
- أجل. ولكن لعمل آخر.
- تقع مكاتبنا على بعد خطوتين من هناك. ولذلك فهم يطلبوننا عندما يحتاجون إلى كتبة. أجل إن العمل جهنمي. وفي هذه اللحظة، هناك رجل يستمر استجوابه منذ أربعين يوماً، دون انقطاع.
- ماذا فعل؟ سأل مارك عليم وهو يتظاهر بالتثاؤب، كي يبدو سؤاله غير مبالٍ.
- هكذا. ماذا فعل؟ نعرف جيداً ماذا فعل ـ قال الرجل وهو يغمد نظره في عيني مارك عليم ـ إنه صاحب أحلام.
- صاحب أحلام. . . وبعد؟


Twitter: @ketab_n

- في هذه الغرف ـ وكما تعرف بالتأكيد ـ يحجز أصحاب الأحلام، الذين يقدر (سرايا طابير) أن من الضروري استدعاءهم، كي تطلب منهم تفسيرات مكملة للحلم الذي أرسلوه إلى هنا.
- أجل، لقد سمعت كلاماً عن هذا ـ قال مارك، وفكّر بأن يتثاءب للمرة الثانية، لكنه قبل أن يفعل، رأى، وللمرة الأولى، الشعلة التي كانت تلمع في عيني الرجل تخمد.
- ربما لم يكن لي أن أتحدث عن شيء سرّي، ككل الأشياء الأخرى هنا، ولكن ما دمت تعمل في قسم التفسير ـ كما قلت لي ـ فقد اعتقدت أنك تعرف كل هذه الأمور.

راح مارك يضحك.

- أنت تندم لأنك تكلّمت؟ اطمئن. أنا أعمل في التفسير، وأعرف أسراراً كثيرة، أهم بكثير من التي أطلعتني عليها.
- بالطبع... بالطبع، قال الآخر وهو يتمالك نفسه من جديد.
- ثم إنني ـ أضاف مارك عليم وهو يخفض صوته ـ أنتمي إلى عائلة كوبريللي.. ليس هناك ما تخشاه إذن.
- يا إلهي! كان لدي حدس بذلك... كما أنا سعيد لأنك تكرّمت وتبادلت معي بضع كلمات.
- وكيف تسير الأمور بالنسبة لصاحب الأحلام ذاك، في غرفة السجن الانفرادي؟ هل تتقدّم؟ قاطعه مارك عليم. أنت كاتب أليس كذلك؟
- أجل يا سيدي لقد عملت هناك هذه الأيام الأخيرة، وأنا الآن قادم من هناك.

كيف تسير الأمور بالنسبة له؟ إذن... ماذا أقول... لقد ملئت مئات الصفحات، حتى الآن، باعترافاته. لا شك أنه أصبح ضائعاً


Twitter: @ketab_n

تماماً، ولكن ذلك ليس ذنبه. إنه رجل عادي، من إحدى الولايات المنسية، على الحدود الشرقية. ولم يكن يتخيّل أبداً، يوم أرسل حلمه، أنه سيقع في (سرايا طابير).

- وما هو المهم في هذا الحلم؟

رفع الآخر كتفيه وأجاب:

- أنا نفسي لا أعرف. فللوهلة الأولى يبدو حلماً تافهاً جداً، ولكن لا بد أن فيه شيئاً، ما داموا يعلّقون عليه كل هذه الأهمية. ويبدو أن التفسير قد أرسله للحصول على توضيحات إضافية. ولكن ها هم يبذلون عليه كل هذا الجهد، دون أن يتوضح أبداً. بل إنه يزداد غموضاً.
- أنا لا أرى ما يمكن أن يسأل لرجل حالم.
- من الصعب عليَّ أن أجيبك يا سيدي. فأنا نفسي لا أفهم شيئاً. إنهم يسألونه عن بعض التفصيلات الصغيرة الغريبة. وهو، بالطبع، غير قادر على إعطائها. فقد جاءه هذا الحلم منذ فترة طويلة... إضافة إلى أن سجنه هنا كل هذه الفترة جعله غير واعٍ لشيء. ولا يستطيع أن يقول إنه لم يتبق في ذاكرته شيء من هذا الحلم...
- هل الحالات التي من هذا النوع مألوفة هنا؟
- لا أعتقد. واحدة أو اثنتان في العام. وإلّا خاف الناس وتوقفوا عن إرسال أحلامهم.
- طبعاً. والآن ماذا سيفعلون به؟
- سيستمرون في استجوابه حتى... وفتح الرجل ذراعيه مردداً: حتى... أنا نفسي لا أعرف حتى متى...
- هذا شيء غريب فعلاً... فليس إرسال الأحلام إلى «سرايا طابير» عملاً بدون مضاعفات.



Twitter: @ketab_n

- يمكن أن يتلقى المرسل يوماً رسالة تستدعيه للمثول هنا.

ربما كان الرجل الآخر يريد أن يضيف بعض الملاحظات، لكن صوت الجرس أتى معلناً انتهاء الاستراحة، فتبادلا التحية، وانفصلا . . .

ولم يستطع مارك عليم، وهو يصعد السلّم، أن يطرد من ذهنه كل ما سمعه من الكاتب. ما هي إذن غرف السجن المنفرد هذه؟ للوهلة الأولى تبدو شيئاً عبثياً، غير قابل للتفسير. ولكن لا يمكن أن تكون كذلك. إنها دون شك نوع من السجن، الحبس، ولكن لماذا؟

لقد انتهت إلى أن شيئاً من الحلم لم يتبق في ذاكرة ذاك الرجل. كما ادعى الكاتب، يجب أن يكون هذا هو الهدف الحقيقي لاعتقاله: يجب جعله ينسى حلمه، هذا الاستجواب المرهق ليل نهار، هذا المحضر الذي لا نهاية له، ادعاء البحث عن التفصيلات الدقيقة، لرؤية من الطبيعي أنها لا يمكن أبداً أن تكون دقيقة، إلى أن يتفتت الحلم وينتهي إلى أن يذوب نهائياً من مخيلة صاحبه: يعني عملية غسل دماغ ـ فكر مارك عليم ـ أو عملية إحلال الضد: اللاحلم (إذا سمحنا لأنفسنا باشتقاق لغوي جديد للحصول على الطباق البديعي). كما نقول اللاعقل مقابل العقل، واللامنطقي مقابل المنطقي.

وكلما كان يفكّر بذلك أكثر يزداد اقتناعاً بأن هذا هو التفسير الوحيد. وفي الظاهر أن الأمر يعني تفتيت الأفكار الهدّامة، التي يجب على الدولة أن تظل بمعزل عنها، لسبب أو لآخر، تماماً كما تعزل جرثومة الطاعون، حتى يتم التوصل إلى إبطال مفعولها.

كان مارك عليم قد بلغ آخر السلم، وها هو الآن يعبر الممر، مع عشرات الموظفين أمثاله الذين يتدافع بعضهم إثر بعض عبر البوابات الجانبية. وكلّما اقترب أكثر فأكثر من غرف قسم التفسير، شعر بأن



Twitter: @ketab_n

شعور الأمان، العابر، الذي سكنه قبل قليل في المشرب، يغادره شيئاً فشيئاً، ككل إحساس يوحيه إليك خضوع الآخرين، تاركاً مكانه لذلك الغم الذي أحياه في نفسه ضيقه بأن يعود موظفاً لا شأن له، ضائعاً في الآلية الضخمة.

من بعيد، رأى طاولته، والملف الجاثم فوقها. تقدّم ليجلس عند حافتها، كأنما يجلس على شاطئ النوم الكوني، على حدود الظلمات لتفلت منها ـ ولا ندري من أية أعماق فيها، رشقات سوداء ومتوعّدة.

يا إلهي ـ قال مارك متنهّداً ـ يا إلهي القادر ارحمني.

كان الطقس قد أصبح أكثر برودة. وعبثاً كانت مواقد السيراميك الكبيرة المحشوّة بالفحم، تشعل باكراً، فإن غرف التفسير تظل جليدية الجو. وكان يحصل لمارك عليم ألا يخلع عباءته المبطّنة بالفرو. لم يكن يفهم من أين يأتي برد كهذا.

ـ ألا تحزر ذلك؟ قال له يوماً واحد كان يتناول معه القهوة في المشرب. إنه ينبعث من الملفات. من هناك تأتينا كل الشرور، يا بني...

تظاهر مارك بأنه لم يسمعه ـ ما الذي يمكن أن ننتظر غير ذلك من بلاد النوم؟ تابع الآخر: إنها تشبه بلاد الموت. كم نحن تعساء لنعمل على هذه الملفات! تركه مارك عليم دون أن يجيب، ومن ثم فكّر بأنه قد يكون قاصداً إثارته. إنه يزداد قناعة، كل يوم، بأن (سرايا طابير) محشوّة بنماذج غريبة من البشر، وبأسرار من كل نوع.

ما الذي لم يسمعه بعد، خلال هذه المدة، عن الطابير، وعن كل ما يحصل فيه! في البدء بدا أن الموظفين لا يقولون كلمة واحدة عن ذلك. ولكن بمرور الأيام، ملتقطاً جملة قيلت في المشرب، وأخرى سمعت في الممر، عند أبواب الخروج، أو على الطاولة المجاورة،



Twitter: @ketab_n

تشكّلت عنده، لاشعورياً، شيئاً فشيئاً، فسيفساء كاملة، لن يمحي منها شيء، عمّا قريب.

هكذا مثلاً كانت بعض الأصوات تؤكد أن الحلم، كرؤيا خاصة وفردية لشخص فرد، تعبّر فقط عن مظهر عابر من مظاهر الإنسانية، التي يأتي يوم تفقد فيه خصوصيتها، يصبح إدراكه ممكناً للجميع بالتساوي، ككل أفعال الإنسان وحركاته. وباختصار، فكما أن النبتة تظل تحت التراب لفترة ما قبل أن تظهر إلى السطح، كذلك أحلام الإنسان هي كلّها سابحة غائصة في النوم. دون أن يعني هذا أن الأمر يظل دائماً على هذا النحو. ففي يوم ما تخرج الإحلام إلى وضح النهار، وتأتي لتحتل موقعها في التفكير، والتجربة والفعل الإنساني، أما من حيث معرفة ما إذا كان ذلك سيكون خيراً أم شراً، وما إذا كان العالم سيتغير بسببه نحو الأفضل أو نحو الأسوأ، فإن هذا ما لا يعرفه إلّا الله وحده.

وكان آخرون يرون أن نهاية العالم ليست شيئاً آخر، غير اليوم الذي تخرج فيه الأحلام من أسر النوم، حيث إن قيامة الأموات التي يفهمها الناس بشكل تافه، وميتافيزيقي، ستتم بهذه الطريقة، أوليست الأحلام هي رسائلهم الطلائعية، الإنذارية؟ إن احتجاجات الموتى القديمة هذه، ابتهالاتهم، عويلهم، مطالباتهم ـ أياً كان الاسم الذي أطلقناه عليها ـ ستعامل هكذا، بالعدل، يوماً. ستأخذ حقها، هكذا، يوماً.

وهناك آخرون ممن يتبنون تماماً أسلوب النظر هذا، لكنهم يفسِّرونه بطريقة معاكسة تماماً حيث يقولون إن غوص الأحلام في الجو القارس لعالمنا لن يؤدي إلّا إلى ذبولها وتلفها. وهكذا ينفصل الأحياء عن قلق الموتى، وبنتيجة ذلك عن الماضي. وإذا كان البعض


Twitter: @ketab_n

يرى في هذه القطيعة شقاء، فإن البعض الآخر يرى فيها تحرراً، تجديداً حقيقياً للعالم.

أضحى مارك عليم ضجراً من تكرار هذه التمحّكات، لكن ما كان يجده أكثر إزعاجاً هو تلك الأيام التي لا لون لها، التي لا يتحدثون فيها عن شيء، التي لا يحصل فيها شيء، والتي كان يجد نفسه فيها مضطراً للعمل، منحنياً فوق ملفاته، عابراً من غفوةٍ إلى أخرى، كأنه يعبر في ضباب يبدو أحياناً وكأنه يكاد ينقشع، لكنه يظل في الغالب معتماً، ومطبوعاً بالكآبة.

كان اليوم يوم جمعة. وفي هذا اليوم لا بد وأن يسيطر الاضطراب على المولجين بأمر الحلم ـ الرئيس، فمن المؤكد أن الحلم ـ الرئيس قد اختير، وأن الاستعداد يتم لإرساله إلى قصر السلطان، فالسيارة ذات السلاح السلطاني، تنتظر في الخارج، منذ وقت طويل، محاطة بالحرس. الحلم ـ الرئيس سيذهب، ولكن القسم يظل، حتى بعد ذهابه، فريسة حالة نشاط حاد. وتظل فيه حالة من التوتر، أو على الأقل فضول معرفة كيف سيستقبل الحلم في قصر السلطان.

عموماً، يأتي صدى ذلك في اليوم التالي: لقد كان السلطان راضياً، أو أن السلطان لم يقل شيئاً. أو، أحياناً أخرى: السلطان لم يكن راضياً، لكن هذا لا يحدث إلا نادراً، نادراً جداً.

وأياً يكن الأمر، فإن نهارات هذا القسم هي أكثر حيوية من الأقسام الأخرى، إنها تمر بطريقة مختلفة. الأسبوع يمر بسرعة بانتظار يوم الجمعة. أما في الأخرى، فعلى العكس من ذلك، كل شيء ضجر، ورتابة، ورماد...

ومع ذلك ـ قال مارك عليم في نفسه، الكل يحلم بأن يعيّن في التفسير. لو كانوا يعرفون كيف تجر الساعات نفسها هنا!، كيف


Twitter: @ketab_n

تزحف الساعات هنا! وكأن ذلك لا يكفي، فيخلق في كل مكان هذا القلق الدائم. (منذ أن أشعلت المواقد، شعر بأن هذا القلق المنتشر يبعث رائحة فحمية).

انحنى فوق ملفّه، وأعاد القراءة، كان قد تعوّد نسبياً على عمله، وأصبح يجد صعوبة أقل في إيجاد تفسير للأحلام، بضعة أيام وينتهي من ملفه الأول، لم يتبق منه إلا بضع أوراق. كان قد قرأ عدداً من الأحلام المملة التي تتحدث عن مياه آسنة، سوداء، عن ديك مريض غاص في التراب، عن خروج مرض (روماتيزم) من جسد ضيف أثناء عشاء عند المسيحيين. أي هول! قال في نفسه، وهو يضع قلمه. كأن الحثالة قد خبئت للنهاية. وفكّر بفرق المكلّفين بالحلم ـ الرئيس، كما يستدعي أحدهم التفكير بمنزل يهيأ فيه عرس، ليهرب من جو كئيب.

لم يكن قد رأى هذه الفرق أبداً، ولا يدري في أي جناح من القصر تقع. ورغم ذلك كله، فقد كان واثقاً من أنها، على خلاف الأخريات، مضاءة بشبابيك عريضة تصل حتى السقف، ويدخل منها نور احتفالي يجعل الناس والأشياء أنبل.

وبعد... قال مارك عليم وهو يتناول قلمه من جديد.. وأجبر نفسه على العمل دون انقطاع إلى أن دق الجرس معلناً انتهاء الدوام. ما زال عليه ورقتان وينتهي من ملفه، وسيفعل حسناً بقراءتهما كي يتخلّص منه نهائياً.

من كل الجهات كانت تتردد حوله ضجة الموظفين الذين يغادرون طاولاتهم ليتجهوا إلى المخرج. وبعد بضع لحظات لم يكن قد بقي في القاعة إلا أولئك الذين قرروا أن يعملوا وقتاً إضافياً. وأحسّ مارك عليم بأن الفراغ الذي أعقب رحيل معظم الموظفين، يجتاحه. هذا الفراغ... كان يحسّه في كل مرة كان يتأخر في العمل بعد نهاية


Twitter: @ketab_n

الدوام، ولكن كيف له أن يخرج منه؟ فقد كان يحصل له كثيراً أن يعمل ساعات إضافية بمحض رغبته، هذا عدا المرات التي كان يوجَّه فيها أمر بالبقاء. لقد قرّر أن يضحّي هذه الليلة أيضاً. وبعد أن أطلق زفرة طويلة أخذ يقرأ في الحلم ما قبل الأخير. وما إن قرأ السطر الأول حتى صاح منذهلاً: عجباً!

متى إذن كان قد اطّلع على هذا الحلم؟ حقل مبهم، وركام نفايات، بالقرب من جسر، وآلة موسيقية... كاد يطلق صيحة تعجُّب، فهذه هي المرة الأولى التي يقع بين يديه، في التفسير، حلم كان هو من تفحّصه في الاختيار. وفرح بذلك كأنه يلتقي واحداً من قدامى معارفه، وتلفّت يميناً ويساراً ليروي هذه المصادفة لأحدهم، لكن الموظفين الذين ما زالوا في القاعة كانوا قلّة، وأقربهم إليه يبعد عشر خطوات.

انهمك بقراءة نص الحلم، وهو ما يزال شديد الانفعال بهذا الاكتشاف، دون تركيز كبير في البداية، ثم باهتمام أكثر فأكثر. لم يتوصل لأن يخرج منه بأي تفسير خاص، لكن ذلك لم يقلقه أبداً. فهناك عدد كبير من الأحلام التي تبدو عند القراءة الأولى، دون معنى، أشبه بجدار أملس، من العبث محاولة تسلّقه.

لكن مفصلاً صغيراً جداً يكفي أحياناً، لأن يتكشّف طرف الحلم، وقد يحصل أن نعثر بذلك على مفتاحه. لقد أصبح لديه الآن بعض الخبرة في هذا العمل. الحقل الغامض المغطّى بالنفايات، الجسر العتيق، الآلة الموسيقية المجهولة، والثور الهائج. إنها فعلاً رموز غنية. لكنه لم يتوصل إلى تبيّن الرابط بينها. ولكي نستطيع تفسير حلم ما، فإن العلاقة بين الرموز المختلفة هي أهم من تفسير الرموز نفسها، قام مارك عليم بتصنيفها اثنين اثنين: الجسر والثور، الآلة الموسيقية



Twitter: @ketab_n

مع الحقل الغامض، الحقل والثور، وأخيراً الثور والآلة الموسيقية، الجسر والحقل الغامض. وقد بدا أن التصنيف الأخير العلاقة الأخيرة الثور ـ الآلة الموسيقية ـ الحقل تسمح بتبيّن معنى ما، لكنه معنى ليس فيه شيء من المنطق: الثور (قوة فظّة غير مضبوطة) تثيرها موسيقى (خيانة ـ سر ـ دعاية ضخمة) تدمِّر الجسر العتيق. لو أنه كان مكان الجسر عمود، أو حائط قلعة، أو شيء آخر من رموز الدولة، لاتخذ الحلم معنى آخر.

لكن الجسر لا يمثل شيئاً من ذلك. إنه عموماً مفيد للبشر، كما الينابيع والطرقات: لكن... انتظر... قال مارك لنفسه، وأحسّ باختناق حاد يقطع أنفاسه: أليس الجسر مرتبطاً بتاريخ أسرته؟... ربما يكون ذلك نذير شؤم قاتم؟...

أعاد قراءة النص، وتنفّس براحة أكثر، فالثور لم يكن يتعرض للجسر، وإنما يدور في الحقل الغامض، ليس أكثر.

حلم أجوف ـ قال في نفسه ـ وغاب إحساس الفرح بالعثور على هذا الحلم في ملفه، ليحل محله إحساس بالازدراء. وتذكّر الآن، أنه يوم قرأ هذا الحلم في الانتقاء وجده دون معنى. إذن فقد كان من الأفضل لو أنه رماه في سلة المهملات! غمس ريشته في المحبرة ليكتب عليه: غير قابل للتحليل. لكن يده ظلّت مترددة، لو أنه يتركه ليعود إليه في الغد؟ لو أنه يطلب نصيحة مراقب القاعة؟

في الحقيقة، كان من المسموح طلب النصيحة، لكنه لم يكن ينظر برضى إلى المبالغة في ذلك. أحس مارك عليم بأعصابه تتوتر. من الأفضل له أن ينتهي من هذا الملف ويقفله، وهو قد تأخّر كثيراً في ذلك.

تناول الحلم الأخير، حلّله بسرعة، ثم عاد إلى ذاك الذي تركه



Twitter: @ketab_n

معلّقاً. تردد وعاد يتساءل عما إذا كان عليه أن يكتب: غير قابل للتحليل، ومن ثم يضعه مكانه، ويذهب عندما دخل رئيس قسم التفسير إلى القاعة. وبصوت منخفض، تبادل بضع كلمات مع المراقب، نظر حوله، كأنما ليعد الذين بقوا في العمل، ثم وشوش شيئاً للمكلّف بالمراقبة، الذي نادى، بعد أن ابتعد رئيسه:

- أنت وأنت، وأنتما أيضاً، وأنت مارك عليم، ستظلون هنا هذا المساء بعد انتهاء الوقت النظامي، فقد أبلغني الرئيس الآن أن هناك ملفاً طارئاً، يجب أن يتم تحليله هذا المساء.

لم يُجب أحد بكلمة، وتابع هو:

- بينما يحملون إلينا الملف، اذهبوا لتناول شيء في المشرب، فقد تضطر إلى البقاء هنا إلى وقت متأخر.

خرجوا واحداً إثر الآخر. وفي الممرات كان يسمع صرير مفاتيح، واصطفاق أقفال... كان آخر المتأخرين يغادرون.

كان المشرب يبدو حزيناً في هذه الساعة المتأخرة من النهار، الخدم القلة بوجوههم المجهدة، الطاولات المجموعة بما يسمح بتنظيف القاعة، كله يبعث نوعاً من الحزن. طلب مارك عليم كوب سحلب وقطعة خبز، وجلس عند طرف الحاجز، فهو لم يكن يرغب أن يزعجه أحد. وراح يشرب كأسه ببطء ويقضم قطعة الخبز، بدون شهية تقريباً. وعندما انتهى، خرج بخطى وئيدة دون أن ينظر حوله.

ظل فترة كالضائع في الرواق الطويل للطابق الأرضي. لم يكن المساء قد هبط بعد، لكن كل شيء كان يظلم شيئاً فشيئاً في غبش المساء. ومن زاوية الفتحة، في أعلى الجدار، كانت تسقط آخر أضواء النهار. ليس لديه أي سبب لأن يسرع، بإمكانه أن يتسكّع، في انتظار الموعد، بدلاً من أن يحبس نفسه مبكراً بين جدران قاعة العمل



Twitter: @ketab_n

القاسية، كان الرواق خالياً تماماً، وأحس بنوع من الرضى لكونه يستطيع أن يذرع وحيداً هذا الفراغ الهائل الذي ترسل الفتحة الكبيرة في آخره ضوءاً هو بعد رمادي، حتى من وراء الغبار الذي يكسو زجاجها.

كان مارك عليم قد وصل إلى تحت هذا الشباك وبعد أن رفع رأسه إلى هذا المستطيل الضوئي، كأنما يفعل من قعر حفرة، همّ بالانعطاف في الممر، عندما خيّل إليه أنه سمع ضجة ما، في هذا العالم الأخرس الأطرش. توقف، وأصاخ السمع، كأنها ضجة أقدام تقترب أكثر فأكثر، وفكّر بأنهم قد يكونون الحرس الذين يراقبون إقفال الأبواب. وهمّ بالابتعاد عندما تناهت إليه أصوات جديدة، جعلته يتجمّد في مكانه... الآن أصبحت الضجة أكثر قرباً، إنها تصدر من الممر الملاصق للرواق الرئيسي. التصق مارك عليم بالجدار وانتظر. يا إلهي! صرخ في داخله، وهو يرى مجموعة من الأفراد يخرجون من المنعطف حاملين على أكتافهم نعشاً أسود. لم ينتبهوا له، واختفوا في الممر الفرعي. إنه صاحب الأحلام، القادم من المقاطعة البعيدة ـ قال في نفسه ـ بينما كانت ضجة الأقدام تضيع في البعيد. نظر حوله، ووجد أنه يقف في المكان نفسه الذي رأى فيه، ذاك اليوم، الحارس أمام باب السجن الانفرادي. يا إلهي! لا يمكن أن يكون إلا هو!...

اجتاحه قلق ناهش، متنامٍ، وهو يصعد السلم، كان قد فكّر كثيراً بهذا الرجل الحالم البائس، لكنه لم يظن أبداً بأن قدره يمكن أن يقوده إلى هنا. مرات عديدة، كان قد فتّش في المشرب عن ذلك الكاتب، ليسأله عن مصير صاحب الحلم هذا، ما إذا كان قد أطلق سراحه، أو ما يزال محتجزاً. لكن السجين المنكود لم يتوصل ـ على


Twitter: @ketab_n

ما يبدو ـ إلى نسيان حلمه. أو ربما كان من المعروف مسبقاً أن كل الذين يستدعون إلى (سرايا طابير) يجب أن ينتهوا هكذا؟

أيها الطاغية! قال في نفسه، وهو يعجب من استنكاره المفاجئ، ألا يكفيك كل ما تسحق إذن. تحتاج أيضاً إلى التهام كائنات بشرية؟؟

على الطاولة رأى ملفاً جديداً كان المراقب قد وضعه أثناء غيابه. تصفّحه بما يشبه الكره، ولاحظ أنه لا يتضمن إلا خمس ورقات عليه أن يدرسها كلها هذا المساء. كانت مصابيح القاعة قد أضيئت، والبرد قد اشتد، حيث إن أحداً لم يضف فحماً إلى الموقد منذ الظهر. أخذ يقرأ الحلم الأول، ولم يلبث أن لاحظ أن الحلم يغطّي كامل الصفحة الأولى، ويتبع على الثانية. وهذا نادراً ما يحصل. قلب الصفحة ليتفحّص نهاية وصف هذا الحلم، لكنه لاحظ أنه لا ينتهي في الثانية ولا الثالثة ليكتشف، بتعجّب كبير، أن الأوراق الست تخصّ حلماً واحداً. لم يكن قد حصل له أن وقع على نص بهذا الطول. لا بد أن الأمر يتعلّق بحلم ذي خصوصية متميزة ـ قال في نفسه ـ وأخذ يقرأه أفقياً، دون أن يلقي نظرة إلى اسم صاحبه أو عنوانه، سوف يمضي كل هذا المساء سجيناً مع هذا الهذيان الطويل، غير القابل للتفسير، بالضرورة.

أية ليلة محزنة حقاً!

وكان الحلم فعلاً هكذا: هذيان، وعموماً توكل أحلام الهذيان إلى المفسرين اللامعين. ويقال إنه في السابق كانت هذه الأحلام تجمع في ملفات خاصة يكتب عليها: ملف الهذيان. لكن هذا الأسلوب لم يلبث أن تُرك، لأسباب غير واضحة تماماً (يقال إن


Twitter: @ketab_n

السبب الحقيقي هو التوجه الذي أخذ يتكوّن نحو اعتبار هذا الملف ملفاً فوق العادة). ومن ثم عادت هذه الأحلام ووزعت حسب مضمونها، على مختلف فئات الأحلام الأخرى. غير أن مراقبي القاعات ظلّوا يحرصون على أن يوكلوا هذه الأحلام، عند عملية التوزيع، إلى المفسرين الأكثر مهارة. ولم يكن مارك عليم يعرف كيف يعتبر عملية تكليفه بأحدها: هل هي علامة ثقة بالغة، أم أنها إشارة سوء نية؟ وفي هذا الوقت، كان يتابع تفحّص الحلم بعصبية متزايدة. إن هذا الحلم يبدو فعلاً غير عادي. إنه يبدأ بعصابة من الفزّاعات التي تجوب سهوباً تعبق فيها الرائحة النتنة لجيف نمور ميتة منذ القرن الحادي عشر. وكانت كل الصفحات الأولى تصف مسيرة هذه الفزّاعات التي يبدو أنها تطلق اللعنات على بركان كارتوه ـ... رينوه.. كريت (كان اسمه لا يتوقف عن أن يتقوّض، تماماً كما تنهار واجهته الغربية)، بينما كانت تلمع فوق السهوب نجمة مجنونة، ثم إن الرجل الحالم، الهاذي، الذي كان على مقربة من ذلك، قد وقع، وهو يجهد في الغوص تحت الأرض، على قطعة من نهار مشع، شبيهة بقطعة ماسية، أخفاها مجهول في فترة يوم بسيط من الزمن الكوني. قطعة غير قابلة للذوبان، ولا للكسر، ولا للتدمير حتى بالنار، وقد بهر ضوء النهار هذا، المنبثق من الوحل، فغشي عليه وعاد فوجد نفسه في الجحيم.

أي مجنون! قال مارك عليم، إنه بالتأكيد ذهن مشوّش! ولم يتابع قراءته.

الجزء الثاني من الحلم كان مخصصاً لوصف الجحيم، جحيم يختلف عمّا يمكن تخيّله، لا يسكنه مجموعة من البشر الموتى، بل


Twitter: @ketab_n

مجموعة من الدول ـ الموتى. وقد مددت أجسادها واحداً قرب الآخر، بشكل غير منتظم:

إمبراطوريات، إمارات، جمهوريات، ملكيات دستورية، اتحادات...

إحم! ها إن هذا الحلم، على عكس الانطباع الذي يعطيه لأول وهلة، وخارج مظاهره الأخرى، هو حلم خطير. قلب الصفحة ليتبيّن اسم الرجل الجريء الذي أرسله، وقرأ: «حلم قام به، في النصف الثاني من ليلة ١٨ ديسمبر، النزيل ×... في فندق (دو روبير) في ولاية ألبانيا الوسطى».

آه اللعين، لقد خلّص نفسه من الورطة، قال مارك عليم بإحساس عزاء. (وفي ذهنه ومض مشهد النعش المغطّى بالقماشة السوداء، والذي يرحل الآن نحو المقبرة الكبيرة في العاصمة).

لقد أفلت ذاك الحالم من الفخ في آخر لحظة، وولّى هارباً!.. التصق بكرسيه وتابع القراءة. إن الدول الميتة، التي تنزل إلى الجحيم، لا تنعم عادة بالرحمة التي نتصور عموماً أنها تشمل الموتى من البشر، إضافة إلى أن هذا الجحيم يتمتع بخصوصية، وهي أنه يمكن الإفلات منه والعودة إلى الأرض. وهكذا فإن دولاً تكون قد ماتت منذ وقت طويل، وأصبحت في حالة هيكل عظمي يمكن أن تنهض ببطء، في ذات يوم، وتعود إلى الظهور على سطح الكرة الأرضية. كالممثل الذي يقوم بعملية ماكياج قبل أن يصعد إلى المسرح لأداء دور جديد، يلزمها فقط أن تخضع لبضع عمليات (رتوش) ضرورية، تغيّر مثلاً اسمها، علمها، شعارها. لكنها تظل، في العمق، مطابقة لذاتها، وجدّتها... تمتم مارك عليم وهو المعتاد منذ طفولته على المناقشات حول الدولة وقضايا الحكم. فلقد فهم مباشرة ما رمى إليه مدّعي هذا


Twitter: @ketab_n

الحلم. لقد بدا له أن هذا الحلم مؤلف تأليفاً، باستثناء بدايته. بل إنه وجد غرابة في كونه قد عبر مرحلة الانتقاء، أو أنهم ربما يكونون قد تركوه يمر، كحلم باعث، لغايات أخرى. ولكن أية غايات؟ ولماذا حوّلوه له، تحديداً؟ وعلى الأخص بهذه الطريقة، وبكل هذا الاستعجال، وبعد دوام العمل العادي. أحسّ بارتعاشة تسري في ظهره. وما زالت عيناه تتابعان تحليل النص:

«لقد رأيت دولة تيمورلنك وهي تطلى بالدهان، لإخفاء بقع الدم، لأنها تتهيأ للنهوض. وعلى مسافة أبعد دولة هيردوس التي تخضع للترميم نفسه: إنها تنهض ـ يقولون ـ للمرة الثالثة، وستنهض لا ندري كم من المرات بعد أن تنهار...».

جمع مارك عليم الأوراق بأصابع مرتعشة، فقد كانت الإثارة ظاهرة. لكنه لن يقع في الفخ وسيريهم ما هي قدراته. سيأخذ ريشته ويكتب: حلم مخترع، لغايات التحريض ضد الدولة، من ضمن هذا المخطط أو ذاك. إلماحات تعريض بشكل أو بآخر... أجل هذا ما سيكتبه! إن الدول المعاصرة، ومنها الإمبراطورية العثمانية، ليست بحسب مرسل هذا الحلم، إلّا مؤسسات دموية قديمة، دفنها الزمن، ثم عادت إلى الأرض كالأشباح.

وجد مارك عليم هذه الصيغة مناسبة وَهَمّ بوضعها على الورق. لكن شكاً داهمه في هذه اللحظة: وإذا قالوا له: كيف تعرف كل هذه المسائل، كل هذه المعرفة، أنت يا مارك عليم؟ وضع ريشته جانباً. عليه ألا يعرِّض نفسه بهذا الشكل، وبأي ثمن. من الأفضل له أن يحرر تفسيره لهذا الحلم بطريقة أكثر تجرّداً:

حلم مخترع، يوحي بالإثارة، مرسل بنوايا سيئة، وهذا ما يؤكده غياب اسم وعنوان صاحبه.



Twitter: @ketab_n

أجل. هذا ما سيكتبه. ولكن لا داعي للتسرّع، على أية حالة. فكل الذين استبقوا لهذا العمل ما يزالون هنا. نظر مارك عليم حوله، كان ضوء القناديل الشاحب وحفنة الموظفين المبعثرين هنا وهناك، يجعلان منظر القاعة أكثر كآبة. وكان البرد يدخلها أكثر فأكثر، لقد فعل مارك حسناً، بعدم خلعه عباءته. كم من الوقت عليه أن يبقى هنا؟ لاحظ أن موظفين فقط يكتبان، بينما وضع الآخرون، مثله، رؤوسهم بين أيديهم وراحوا يتأملون. ترى أحيلت إليهم أحلام عادية، أو مثله، هذيان. ربما كان الحلم الذي أعطي له هو الوحيد من هذا النوع؟ لقد كانت الكوابيس نادرة جداً، مثل سمكة قرش تقع صدفة في شبكة مليئة بالأسماك العادية.

ورغم ذلك فإنه من الممكن أن تكون الأحلام الأخرى، من هذا النوع. وهذا المجيء المفاجئ للرئيس، في هذه الساعة المتأخرة، عند انتهاء فترة الدوام العادي... لا بد أن شيئاً ما قد حدث. وارتعش مارك عليم من جديد.

أخيراً... نهض أحد الموظفين، اقترب من المراقب، أعطاه ملفّه، وخرج. تناول مارك عليم ريشته، لكنه قال في نفسه، إن الوقت ما يزال أمامه، وأفلتها من جديد، فكتابة التفسير لن تأخذ منه أكثر من ربع ساعة، وباستطاعته أن يؤجل ذلك قليلاً. وراح يقلّب في رأسه كل أصناف الأفكار المظلمة.

بعد نصف ساعة، خرج موظف ثانٍ. وكانت قدما مارك عليم قد تجلّدتا من البرد، وفكّر بأن يديه قد تتجمدان أيضاً، فلا يستطيع تحريك ريشته، مما جعله يخرج أخيراً من ذهوله، ويأخذ بالكتابة. وفي وقت لاحق سمع أحد الموظفين يخرج، لكنه لم يرفع رأسه ليعرف من هو، وعندما انتهى من الكتابة لاحظ أنه ما يزال في القاعة


Twitter: @ketab_n

ثلاثة أشخاص غير المراقب. سوف أنتظر ذهاب واحد آخر، ثم أخرج.

ولم يعرف لماذا طار تفكيره إلى ذلك الفندق الغريب الاسم «فندق دو روبير» حيث حلم أو ألّف هذا الحلم. وحاول أن يتخيّل ذلك المسافر، ذا الوجه المغبر، الذي رمى مظروفه في الصباح الباكر، في صندوق البريد المثبت على باب الفندق، ثم ابتعد راسماً ابتسامة سخرية شيطانية.

سحبته قرقعة كرسي من تأملاته. ها هو موظف آخر قد غادر. والآن، وإذ لم يتبق إلا موظّفان سواه، فقد قال في نفسه، إنه من الأفضل، كونه أحدثهم تعييناً، أن يكون آخر من يغادر أو على الأقل قبل الأخير. وانتظر إلى أن خرج واحد من الاثنين المتبقيين: الآن، سأنهض ربما كان المراقب يتمنى هو أيضاً، لو أن هؤلاء الذين ما زالوا هنا، كانوا قد انتهوا مبكراً أكثر.

نهض مارك عليم، أغلق ملفه، لا بد أن الوقت أصبح متأخراً. وقد بدا المراقب، بتعابير وجهه المشدودة، أكثر استعجالاً من الآخرين. اقترب منه، أعطاه الملف، وبصوت منخفض حيّاه:

- تصبح على خير.
- وأنت أيضاً. هل تعرف المخرج؟ لقد بات الوقت متأخراً وكل أبواب الطابير مغلقة.
- آه.. ولكن كيف نخرج إذن؟ (كانت المرة الأولى التي يسمع فيها هذا).
- من الساحة الخلفية، عبر الاستقبال. من المؤكد أنك لم تخرج أبداً من هناك، لكنك ستجد طريقك بسهولة. فإن مصابيح


Twitter: @ketab_n

الممرات والأروقة المؤدية إليه هي وحدها التي تظل مضاءة إلى هذه الساعة. وليس عليك إلا أن تتبعها.

- شكراً.

خرج إلى الممر، ولاحظ أن الأمر هو فعلاً كذلك، فلم تكن القناديل مضاءة إلا في جهة واحدة، مشى في الاتجاه الذي أرشد إليه، مصغياً إلى صوت خطاه الذي بدا له مختلفاً في هذه الوحدة. وإذا تهت؟ (فكّر مرتين أو ثلاثاً) ربما كان من الأفضل له لو خرج في الوقت نفسه مع واحد من الآخرين الذين يعرفون الطريق. وكلّما كان يتقدم كان يسيطر عليه إحساس بعدم الأمان. ومن الممر الرئيسي، انعطف إلى ممر جانبي، أودى به إلى رواق لا يكاد يتبين نهايته. كان كل شيء مقفراً، وكان ضوء المصابيح الضعيف يضيع في البعيد. نزل خطوتين أو ثلاثاً، ووصل إلى رواق آخر، ضيّق جداً، وتعلوه قبة. ومع أن مصابيحه كانت أقل، وأكثر خفوتاً، إلّا أنها كانت أيضاً مضاءة. إلى متى عليّ أن أسير هكذا؟ سأل نفسه، وفي لحظة ما أحس بأن الرجال الذين يحملون النعش الأسود، سيندفعون من أحد المنعطفات، أمامه، وهم ما يزالون تائهين في ممرات المبنى الضخم. سأجن إذا استمررت في التسكع هكذا!! ربما، إذا توقف هنا، يظهر أحدهم ويرشده إلى الطريق. وربما يكون من الأفضل أن يرجع إلى التفسير، ليغادر من جديد مع الرجلين الآخرين؟ بدت له هذه الفكرة الأكثر حكمة، لكن شكاً ما لم يلبث أن تملّكه: وإذا لم يعثر على طريقه إلى هناك؟ وحده الشيطان يعرف ما إذا كانت هذه المصابيح تقود إلى حيث يجب. وأحس لعابه يجف، مع أنه جهد في أن يطمئن نفسه: في آخر الأمر، حتى لو تاه، فإن ذلك لا يشكّل مأساة كبيرة. فهو ليس في غابة، ولا في ذلك السهل الكبير، ولكن داخل القصر نفسه.



Twitter: @ketab_n

ولم يكن هذا الاحتمال ليبدو له أقل رعباً. كيف سيقضي الليل بين هذه الجدران، هذه القاعات، وهذه الكهوف المليئة بالأحلام وبالهلوسات الشاذّة؟ كان يفضّل أن يكون في وسط سهل ثلجي، أو في غابة تعيث فيها الذئاب. أجل يفضل مئة مرة.

حث الخطى وتساءل: منذ متى وهو يسير هكذا؟ وفجأة أحسّ بأنه يسمع ضجة في البعيد، ربما لم يكن هذا إلّا وهماً، قال لنفسه واستأنف السير. لكن بعد قليل تكرّرت ضجة الأصوات، أكثر وضوحاً هذه المرة، مع أنه لم يستطع أن يميّز جيداً الجهة التي تصدر منها.

نزل أيضاً، متّبعاً خط المصابيح المضاءة، خطوتين أو ثلاثاً في ممر آخر لا بد أنه ممر الطابق السفلي. اختفت الضجة لحظات، ثم عادت تسمع، أكثر قرباً. أصاخ السمع ومشى بسرعة خوفاً من أن تفلت منه هذه الضجة التي بات يرى فيها أمله الوحيد. والحقيقة أنها كانت تضعف تارة وتقوى طوراً دون أن تختفي نهائياً. مرة، أحسّ أنه سمعها بقربه تماماً، لكنها بعد لحظة، عادت وابتعدت من جديد. إنه الآن يتقدم شبه راكض، دون أن يحيد نظره عن آخر الممر حيث يظهر مستطيل غامض مضاء من خارج. يا إلهي، عسى أن يكون هذا الباب الخفي!

كان كذلك فعلاً. فباقترابه أكثر، تأكد أنه أمام باب. وعندها تنفّس بعمق، واسترخت أطرافه حتى كاد يترنّح. وهكذا خطا بضع خطوات باتجاه الباب الذي تندفع منه، مع الهواء البارد، الضجة التي تناهت إليه للتوّ. وكان المشهد الذي تبدى أمامه، عندما بلغ العتبة، أكثر من غريب: فقد كانت الساحة الخلفية للقصر تسبح في ضوء مصابيح قوية، مختلفة عن تلك التي في الداخل.

ضوء مضطرب، تتلاشى سحابته في بعض الأمكنة، وتسطع في


Twitter: @ketab_n

أمكنة أخرى، مشكّلة بقعاً على البلاط الرطب، حيث يروح ويجيء بشر، خيول، عربات بعضها مضاءة المصابيح، وبعضها الآخر مصابيحها مطفأة تماماً، في فوضى قصوى، أشبه ما تكون بفوضى كابوس. وكانت أضواء المصابيح الدكناء، وصهيل الخيول الذي يعبرها في كل الاتجاهات، يمنحان هذا المشهد الضبابي مظهراً شبه سوريالي.

ظل مارك عليم متسمراً على عتبة الباب، غير مصدِّق عينيه.

- ما هذا؟ سأل رجلاً مرّ حاملاً رزمة مكانس بين ذراعيه.

التفت إليه الرجل، مندهشاً، لكنه، وقد لاحظ أن مارك عليم يحمل إشارة طابير على عباءته، أجابه بصوت ودود:

- حملة الأحلام، آغا، ألا ترى ذلك؟

إنهم هم إذن؟ كيف لم يفكر بذلك؟ ها هم يتجولون بملابسهم الجلدية، وأحذيتهم الملوّثة بالوحل بينما العربات أيضاً، بعجلاتها المكسوة بالوحل هي الأخرى، تتباهى على مؤخرتها بشارة الطابير.

وتوقف نظره عند قاعة مضاءة ذات سقيفة على يمين الساحة، يدخل ويخرج إليها ومنها حملة الأحلام. لا بد أن قسم الاستقبال يقع هنا، هذا القسم الذي يقال إنه يعمل ليل نهار. سار مارك عليم على البلاط الرطب، واندس في غوغاء الرجال، والعربات التي يبحث بعضها عن موقف، متجهاً بشكل آلي نحو السقيفة، ووقف في ظلّها. كانت الضجة أكبر مما هي عليه في الساحة. وأمام حواجز طويلة كان يقف عشرات حملة الأحلام، ممن كانوا قد أنهوا معاملاتهم على شباك الاستلام، أو ممن ينتظرون دورهم، يشربون القهوة أو السحلب. بينما يلتهم غيرهم قطعاً من الخبز أو كرات من اللحم تنتشر رائحتها في الجو.



Twitter: @ketab_n

ترك مارك عليم نفسه ينساق مدفوعاً بين الأكتاف القاسية لرجال في ملابس جلدية، يدورون حول أنفسهم بلا مبالاة وهم يمضغون العلكة ويضحكون ويقسمون بأصوات عالية.

هؤلاء هم إذن حملة الأحلام المشهورون، الذين تخيّلهم منذ طفولته، سعاة بريد نصف سماويين، يعبرون الإمبراطورية في عرباتهم الزرقاء، بعضهم لم يكن الوحل يلطّخ أحذيتهم فقط، بل أكواعهم أيضاً، وحتى ظهور ثيابهم. ربما يكونون قد اتسخوا وهم يحاولون تجليس عرباتهم التي انحرفت، أو أحد جيادهم الذي انقلب؟ وعلى ملامحهم المعذّبة كانت تقرأ علامات التعب والأرق. وحتى حديثهم أيضاً فقد كان، ككل شيء عندهم، مختلفاً عن حديث الموظفين المقيمين في السراي: قاسياً، وقحاً بعض الشيء، مرصعاً بكلمات مالحة فجة. وراح مارك عليم يحاول، ضائعاً في وسط هذه البلبلة، أن يلتقط بعض الجمل.

هنا يمكن معرفة أخبار كل الإمبراطورية، فقد كان المراسلون يروون المفاجآت التي طرأت على رحلاتهم، شجاراتهم مع الموظفين المحدودين في المقاطعات، مع أصحاب الفنادق المخمورين، مع حرّاس نقاط الحواجز، على طرقات الولايات التي تعيث فيها الاضطرابات.

شدّ انتباهه صوت عريض، ودون أن يدير وجهه، ليتبيّن وجه المتحدِّث، حاول جهده أن يميّز كلامه... كانت جيادي ترفض التقدّم، تصهل وتحمحم في مكانها، دون أن تقبل التحرّك بوصة، كنت وحيداً في الفيفاء، عند خروجي من ينيشهير، وهي قرية صغيرة بعيدة، جمعت منها حفنة أحلام خمسة أولاً وآخراً، جمعت طوال الشهر: تخيّلوا أي مكان بعيد هي! جيادي لم تكن تتحرَّك إذن،


Twitter: @ketab_n

هززت لها الرسن، لكزتها حتى سال دمها، لكنها ظلّت متسمّرة مكانها، كما تفعل عادة عندما تقطع جنازة طريقها. أَجلتُ نظري حولي، لم يكن هناك إلّا الفيفاء الخالية: لا قبر، لا شاهد مقبرة في أي مكان، كنت أفكّر بما أستطيع أن أفعل عندما تذكّرت ملفّ الأحلام الذي حملته من ينيشهير. وقلت لنفسي ثم، أليس الموت والنوم قريبين؟

بسرعة فتحت كيسي، أخرجت منه ملف ينيشهير، نزلت من السيارة، ذهبت أضعه بعيداً عنها في السهل. ثم عدت إلى العربة وحرّكت الجياد، فسارت في طريقها دون تعب، يا للشيطان! قلت في نفسي، إذن كان هذا هو السبب! توقّفت من جديد، وعدت على عقبي إلى المكان الذي وضعت فيه الأوراق، لكنني ما إن أعدتها إلى العربة حتى عادت الجياد تصهل وترغي متسمِّرة في مكانها، ماذا أفعل؟ لقد سبق وحملت آلاف الأحلام، لكن شيئاً من هذا لم يحدث لي. عندها قرَّرت أن أعود إلى (ينيشيهر) بدون الملف. تركته في وسط السهل، وعدت. وهناك بدأ الجدال مع مسؤول قسم طابير، قلت له: لا أستطيع حمل احلامك، تعال وانظر بنفسك كيف ترفض جيادي أن تتحرَّك خطوة، ما إن أضع الملف في العربة. وأخذ الرجل الفظ يصيح: منذ خمسة أسابيع لم يحمل أحد أحلامي، وها أنت الآن ترفض حملها. سأشتكي لإدارة الطابير... سأكتب لشيخ الإسلام نفسه! وأجبته: يمكنك أن تشتكي لمن تريد. فجيادي ترفض السير، ولا يمكنني أن أؤخِّر إيصال كل الملفَّات الأخرى بسبب هذه الأحلام الخمسة.

ولم يحتج الأمر إلى المزيد كي ينقضّ عليّ ذلك الشرس: أجل، أكيد! فهكذا تحكمون على أحلامنا نحن. طبيعي أنكم تجدونها غليظة


Twitter: @ketab_n

وبدائية، فأنتم لا تحبّون إلا أحلام المتملّقات، والفنّانين الذين في العاصمة. لكن قيل في الجهات العليا أحلامنا هي الأحلام الحقيقيّة، لأنها تأتي من آخر أعماق الإمبراطورية وليس من المتقندرين المتعطرين! واستمر سيل الشتائم يرغي، لدرجة لم أعرف معها كيف تمالكت نفسي ولم أنهل عليه ضرباً بعنف. وخلاصة الأمر أنني لم أضربه، حقاً، ولكن ماذا كان بإمكاني أن أجيبه بدوري؟ لقد كنت أغلي غضباً لكوني تأخّرت في جولتي، وقد أفرغت غضبي في وجهه. أمطرته سباباً، هو وقريته البعيدة، التي لا تساوي بنظري حيّاً من أحياء بلده، وهذه الولاية التي تقطنها حفنة من السكارى، والبُلْه، العاجزين عن تكوين أحلام مناسبة، ما دامت أحلامهم تخيف حتى الخيول!

ولو أن الأمر عائد لي ـ أضفت ـ لكنت حرمت ينيشهير بعد هذا الحادث من حق تفحّص أحلامها لمدة عشر سنوات على الأقل! جنَّ الرجل من الغضب وراح يزيد أكثر من جيادي نفسها، قال لي إنه سيرسل تقريراً لصاحب الشأن، عن كل القدح والذمّ الذي صدر عني. لكنني هدَّدته بأنني، إذا فعل، سأنقل كل الشتائم التي وجَّهها لسرايا طابير. كيف؟ أخذ الرجل يزمجر. أنا شتمت (سرايا طابير) المقدّسة؟ كيف تجرؤ على قول كهذا؟ وأجبته: أجل لقد شتمتها، إذ وصفتها بمكان للمتملّقين والمتقندرين المتعطّرين! وعندها أفلت الأمر من يد ذلك البائس، وراح يتوسَّل ويبكي. أشفق عليّ يا آغا، إن لي زوجة وأطفالاً... لا تفعل ذلك.

ولبضع لحظات غطَّت الضحكات كلام الساعي، إلى أن سأله أحدهم:

ـ وبعدئذٍ، ماذا حصل؟

ـ عندئذٍ وصل وكيل الوالي والإمام حيث إن أحداً قد أخطرهما



Twitter: @ketab_n

بالأمر. وعندما سمعا ما حدث، أخذا يحكّان الرأس، غير عارفين أي قرار يتّخذان، لم يكونا يجرؤان على إجباري على حمل الملف لأن هذا يعني بقائي هناك، فقد كان الجميع مقتنعاً بأن الجياد لن تسير بهذا الملف. كما أنه لم يكن من الممكن لهما القبول بأن أحلام ولايتهما هي سيّئة إلى الحد الذي تشكّل فيه معوقاً لحركة السعاة. لكن وقتي كان ثميناً فقد كنت أحمل آلاف الأحلام من المناطق الأخرى. ويمكن لهذا التأخير أن يكلّف غالياً، وقد طلبت إليهما أن يأتيا معي إلى السهل ليريا بعينيهما.

وافقا، وهكذا تكدّسنا في العربة وانطلقنا إلى السهل. عند الخروج من ينيشهير، كان الملفّ ما يزال هناك. حملته إلى العربة، فتسمّرت الجياد مُرْغية مُزبدة، أعدتُه ولكزتها فانطلقت تخبّ. وعندها فكّرت في أن أتركهما على الأرض فاغري الفاه، وأمضي تاركاً الملف في أيديهما. لكني فكّرت بأن ذلك قد يعرّضني للمتاعب، فعدت، هل رأيتما؟ قلت لهما. هل اقتنعتما الآن؟ وبذهول أخذا يتمتمان: الله! دون أن يدريا ماذا يفعلان. وبما أنهما كانا يفتّشان عن وسيلة يخرجان بها من هذا المأزق، فإن مسؤول القسم، الذي هاله أن يكون أول من يتضرّر من الوضع لكونه أرسل إلى (سرايا طابير) حلماً شيطانياً إلى هذا الحدّ، قد عثر على فكرة سحب الأحلام التي في الملفّ واحداً واحداً، لاكتشاف الحلم السيّئ. وهكذا لا يتحمّل الآخرون أي ذنب من وراء هذا العمل. صفّقنا للفكرة، وبدأنا التجربة دون إضاعة وقت. ولم يكن صعباً اكتشاف الحلم السيّئ، فرفعناه من الكيس. وهكذا استطعت أن أتابع طريقي.

- لم يكن هذا حلماً، بل كان سمّاً صرفاً.

علّق أحدهم وتساءل آخر:



Twitter: @ketab_n

- والآن ماذا سيفعلون به. إن أية عربة لا تستطيع حمله، أليس كذلك؟
- ليس أمامه إلّا أن يبقى حيث هو، قال الرجل.
- لكن من الممكن أن يكون حلماً مهماً ما دام يتمتَّع بهذه القدرة الفائقة.
- يستطيع أن يكون ما يريد. يمكن أن يكون من الذهب! أجاب الساعي، فبما أن الجياد ترفض حمله، فمعنى ذلك أنه ليس حلماً بل هو شيطان متجسِّد! هل تفهم أنه الشيطان ذو القرون، بنفسه؟
- ومع ذلك...
- لا مجال لـ(مع ذلك)، فما دامت الجياد ترفض حمله، فليس أمامه إلّا أن يموت في مكانه، في هذا الجحر المنسيّ الذي اسمه ينيشهير.
- لا، هذا ليس صحيحاً، علّق ساعٍ عجوز: أنا لا أدري ماذا يفعلون اليوم، أما في أيامنا، فقد كان يلجأ في حالات كهذه إلى السعاة المشاة.
- هل كان هؤلاء موجودين فعلاً؟
- بالتأكيد. لقد كانت الحالات التي ترفض فيها الجياد حمل الأحلام نادرة، لكنها موجودة. وكان يلجأ إلى السعادة المشاة. إن لبعض القواعد القديمة فوائدها.
- وكم من الوقت كان الساعي يحتاج لنقل الحكم سيراً على القدمين؟
- هذا يختلف بحسب المسافة، لكنني أعتقد أن المسافة من ينيشهير إلى هنا تستغرق عاماً ونصف العام.


Twitter: @ketab_n

هنا، أطلق اثنان أو ثلاثة من الحاضرين صفير الدهشة، فقال الساعي العجوز:

- لا تتعجَّبوا لشيء. إن بإمكان الحكومة أن تلحق بأرنب، بعربة ثيران.

بدأوا يتحدَّثون عن موضوعات أخرى، وتقدَّم مارك عليم في طريقة أكثر، وكان الحديث الضوضاء، هو هو في كل مكان، في المداخل كما في وسط القاعة، وحتى أمام شباك الاستلام حيث كان السعاة يسلّمون ملفَّاتهم، حسب نظام لا يفهمه مارك عليم. واحد منهم سمعه يقول إنه قد أضاع ملفه في فندق، شرب فيه حتى سكر، كان يقف جانباً وعيناه محمّرتان كالجمر، ويتابع الشرب والتعبير عن سخطه.

من الساحة، كانت تتعالى ضجة أصوات متواصلة: قرقعة عجلات العربات على البلاط، بعضها قادم لتوّه من مقاطعات بعيدة، وبعضها الآخر يذهب بعد أن أنهى تسليم حمولته. وصهيل الخيول المتقطّع، الذي يجعل مارك عليم يرتعش حتى أعمق أعماق نفسه، وسيستمرّ هذا حتى الفجر ـ قال في ذاته ـ شارد الذهن، حتى صباح الغد. يا إلهي! ردّد وهو يشقّ طريقه عبر الضوضاء حتى منزله.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# IV

# يوم إجازة

مرّتين أو ثلاثاً، استيقظ مذعوراً، قلقاً من فكرة الوصول متأخّراً إلى المكتب، كانت يده تهمُّ برفع الغطاء، عندما انبجست فجأة، في ذهنه الغارق في ضباب النعاس، فكرة أنه في عطلةٍ هذا اليوم. وعاد يغرق في غفوة قلقة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يُمنح فيها إجازة منذ تعيينه في (سرايا طابير).

أخيراً، فتح عينيه، وكان ضوء النهار يصل وسادته أكثر لطفاً، بعد أن يخترق ستائر المخمل، تمطّى برهة، ثم رمى غطاءه ونهض. لا بد أن الوقت أصبح متأخّراً. . . تقدّم من المرآة وتأمّل وجهه المنتفخ من النعاس، وأحسّ رأسه ثقيلاً كالرصاص. لم يكن قد تصوَّر أبداً أنه سينهض أكثر تعباً في يوم الإجازة الأول هذا، خاصة عندما كان يستعجل الخروج إلى الشوارع الرطبة الغارقة في الضباب، كي يصل على الموعد إلى عمله.

غسل وجهه فأحسّ بأنه أكثر نداوة، وراوده شعور بأنه يستطيع، بجهد بسيط، أن يتذكّر حلمين أو ثلاثة رآها قرب الفجر. فمنذ أن بدأ العمل في (سرايا طابير) لم يعد يحلم إلّا نادراً ـ كأن الأحلام ـ وقد باتت تعرف أنه يفهم أسرارها بعمق، ويمكن أن يقول لها: اذهبي وابتزي واحداً آخر، لا أنا ـ لم تعد تجرؤ على زيارته.



Twitter: @ketab_n

واشتمَّ، وهو ينزل السّلم، رائحة القهوة المحمّصة الذكيّة، والخبز المحمّص، فقد كانت أمّه ولوك تنتظرانه للفطور.

- صباح الخير، قال لهما.

- صباح الخير، أجابتا، وهما تنظران إليه بحنان، هل نمت جيداً؟ تبدو عليك الراحة التامّة؟

أشار برأسه أن نعم، وجلس قرب المنقل المليء بالجمر المحمر، والذي قرّبت منه الطاولة التي تحمل أدوات القهوة.

كان قد نسي تقريباً، وهو يذهب كل يوم على عجل، مع طلوع الفجر، هذه الساعة الدافئة، التي تخلق فيها انعكاسات الأواني الفضيّة، والجمر، والحوافي النحاسيّة للمنقل المنزلي العتيق، مع نور الصباح الضعيف، إحساس صباح أبديّ غارق في الحنان.

أكل ببطء، ثم تناول قهوته مع أمه، وكعادته، قلب الفنجان بعد أن انتهى من شرب ما فيه، واقتربت لوك لتقرأ له طالعه.

في السابق، كان الجميع يروون، في هذه الساعة، الأحلام التي رأوها في الليل. ولكن منذ تعيينه لم يعد أحد يذكر أحلامه. وقد حصل التوقّف عن ذلك إثر حادث بسيط جرى في الأسبوع الأول لتعيينه، حين جاءت إحدى عمَّاته، فجأة، مثيرة ضجّة كبيرة، لتروي له الحلم الذي رأته في الليل الفائت.

نحن أصحاب حظ، قالت بإعجاب، لقد بات لدينا مفتاح الأحلام المنزل، ولم نعد بحاجة لأن نجري وراء المفسّرين، والبوهيميات! قطّب جبينه، وانفجر غضبه كما لا يحصل له إلّا نادراً. كيف تجرؤ هذه البلهاء أن تحمل له أحلامها الغبيّة، الخالية من أية أهمية، ليفسِّرها؟ من تظنّه؟ ظلّت العمّة ذاهلة لفترة، ثم ذهبت مهانة، ذليلة. ووجدت بنات عم مارك عليم صعوبة كبيرة في تهدئتها.



Twitter: @ketab_n

كان يتأمَّل الجمر الذي يبدو الآن شاحباً تحت طبقة الرماد البيضاء، عندما قالت له أمّه:

- الطقس لطيف اليوم. هل ستقوم بجولة؟

- أجل، أظن.

- ليست الشمس مشرقة. لكنه يفيدك على أية حال، أن تشمّ الهواء قليلاً.

حكّ رأسه، وأجابها:

- هذا صحيح. منذ وقت طويل لم أتنزَّه.

ظلَّ فترة صامتاً، وعيناه معلَّقتان على المنقل، ثم نهض، فارتدى عباءته، وحيّا والدته وخرج.

كان الطقس غائماً تماماً، ورفع رأسه مفتِّشاً عن بعض آثار الشمس في هذه السماء المهجورة، التي بدا له خواؤها، فجأة، غير محتمل.

منذ وقت طويل لم ير سماء المدينة في هذه الساعة من النهار، وبدت له فقيرة بشكل عجيب، ببضع الغيوم التافهة هذه، وبهذه العصافير المشتتة التي لا نفع لها.

منذ أن عيّن في طابير وهو يعبر الطريق في ساعة مبكِّرة جداً. وغالباً في طقس سيّئ، ورأسه ما يزال مضطرباً من قلّة النوم، ثقيلاً من النعاس، ويعود عند الغروب، شديد التعب لدرجة لا يعير فيها انتباهاً لأي شيء. مما يجعله اليوم، ينظر إلى المدينة وكأنه عائد من منفى قصير. وتدور عيناه يميناً ويساراً بشبه استغراب. الآن ليست السماء وحدها هي التي تبدو له رطبة وتافهة، بل كل شيء آخر: الجدران، السقوف، السيارات والأشجار. وتساءل: ما الذي يجري؟ إن العالم كله يبدو له وقد فقد ألوانه، كأنه خارج من مرض طويل.



Twitter: @ketab_n

أحسّ ببرد ثلجي في صدره، وقادته رجلاه، بعد الشارع الذي يسكن فيه، إلى مركز المدينة. على جانبي الطريق كانت الأرصفة تغصّ بالناس، لكنهم كانوا يمشون بحركات مشدودة، قاسية، بإحكام حقير. كل شيء بدا له شحيحاً: سير العربات، صوت نداء منادٍ حكومي بائس في ساحة الإسلام، بدا كل حزن العالم يفوح منه، يعبق فيه.

ما الذي حدث إذن للحياة، للناس، لكل شيء هنا ـ تحت؟ هناك (وابتسم في أعماقه، كمن يثير سراً غالياً) هناك، في ملفّاته، كل شيء مختلف جداً، جميل جداً، مليء جداً بالغرابة... ألوان الغيوم، الأشجار، الثلج، الجسور، الطرقات، العصافير، المداخن، كلها أكثر حيوية، وأكثر ثباتاً! وحركات الناس والأشياء، أكثر حرية، ودقّة، وتناسقاً، إلى درجة كبيرة، كسباق غزلان عبر الضباب، متحدياً قوانين الفضاء والزمن! كم يبدو هذا العالم مقيّداً، بخيلاً ومضجراً، بالمقارنة مع ذلك الذي يخدم!

استمر يراقب الناس والسيارات، والمباني مندهشاً. كان كل شيء تافهاً، وحزيناً فقيراً! لقد فعل خيراً طوال الأشهر الفائتة حيث إنه لم يخرج ولم ير أحداً. ربما لهذا لا يعطى موظفو قصر الأحلام، إجازات، إلّا نادراً. لقد أدرك الآن أنه لا يحتاج إلى هذا النوع من الاستراحة. وبدا له التجول في هذه المدينة الذابلة ضرباً من العبث.

ظل مارك عليم يتفحّص ما حمله ببرود.

وكان يزداد اقتناعاً بأن ما يحسّه ليس إحساساً عارضاً، في شيء. بل إن ذاك العالم الآخر، هناك، هو مقبول أكثر عنده، رغم ما يثيره فيه من غيظ أحياناً. لم يكن يصدِّق أبداً بأنه سينفصل بهذه السرعة عن هذا العالم، بمجرَّد أن يغيب عنه بضعة أشهر، فقط. لقد سمع سابقاً


Twitter: @ketab_n

عن موظفين قدامى في قصر الأحلام، انسحبوا بطريقة ما من حياة الناس، وكانوا إذا وُجدوا صدفة وسط معارفهم، يبدون وكأنهم قادمون من القمر، ألن ينتهي هو الآخر، بعد بضع سنوات، إلى أن يصبح مثلهم؟ وبعد؟ قال في سرّه: انظر إلى هذا العالم الجميل الذي ستتخلّى عنه! إن المارّة يرسمون ابتسامات ساخرة وهم ينظرون إلى موظفي قصر الأحلام، التائهين، لكنهم لا يتخيّلون إلى أي مدى يبدو وجودهم ذاته قاسياً وبائساً في نظر مفسِّري طابير.

أخيراً، وجد نفسه أمام مقهى «البجعة» حيث كان يأتي غالباً لتناول القهوة، عندما كان... (وبلمحة، أبعد ذهنه كلمة: حي، ثم كلمة: مستيقظ).

أما وقد وصل إلى هذا المقهى، حيث كان من عادته أن يشرب القهوة عندما لم يكن إلّا شاباً عاطلاً عن العمل، فقد دفع الباب، ودخل المبنى دون أن ينظر حوله. اتجه نحو الزاوية اليسرى حيث كان يجب أن يجلس عادة. كان هذا المقهى يعجبه، لأنه يختلف عن صالات الشاي ذات الطراز القديم، حيث استبدلت فيه المقاعد الواسعة بكراسيّ مغطَّاة بالجلد، ومريحة جداً.

بدا له صاحب المقهى شاحب الوجه، وصاح وقد فوجئ، وهو يقترب حاملاً صينية القهوة:

- مارك عليم! أين اختفيت طوال هذه المدّة؟ فكّرت بأنك لا بدّ مريض، لأنني لا أستطيع أن أصدِّق أنك لم تعد من زبائني.

استعاض مارك عليم عن التوضيح المطلوب بابتسامة. وابتسم الرجل أيضاً، ثم قرّب رأسه من مارك عليم قائلاً بصوت خفيض:

- لكنني بعدئذٍ عرفت أن ما حصل...

وإذ رأى وجه محدِّثه يتجهَّم استطرد قائلاً:



Twitter: @ketab_n

- قهوتك. سكر. قليل، كالعادة؟
- أجل. سكر قليل، أجابه مارك عليم دون أن يرفع إليه نظره.

كتم تنهيدة في صدره وهو يتابع بنظره خيط القهوة المنسكبة من الفنجان ثم، عندما ابتعد الرجل، نظر حوله ليرى ما إذا كان الزبائن المعتادون هنا، ووجدهم، كلهم تقريباً: أمام المسجد المجاور، وبصحبته رجلان طويلا القامة، لم تصدر عنهما يوماً كلمة واحدة، المهرِّج علي، وحوله جمع من المعجبين، رجل أصلع وقصير القامة، ينحني كالعادة فوق بضع أوراق قديمة، يقول صاحب المقهى إنها إما مخطوطات قديمة يجهد زبونه في ترجمتها، وإما نتف من ملف قضية أثرية، تمَّ العثور عليها، وإما بضعة طلاسم مبهمة، لا فائدة منها، اكتشفت في صندوق منخور لعجوز خرف.

وها هم العميان... يجلسون في مكانهم المعتاد، إلى يمين الحاجز. مرّة أسرّ له صاحب المقهى: آه... لقد سبَّبوا لي ضرراً كبيراً! لقد كنت استفدت من زبائن مختارين، لو أنهم لا يرتادون مقهاي، ويحتلُّون دائماً بمظهرهم المنفِّر، أفضل المواقع. وكأنهم يقصدون إغاظتي، لكنني لا أستطيع معهم شيئاً، إنني محاصر. الدولة تحميهم، ولذلك فمن المستحيل عليّ طردهم.

سأله مارك عليم ماذا يعني بعبارة «الدولة تحميهم» وكأنه كان ينتظر السؤال ليندفع فيروي له قصة تركته ذاهلاً: إن العميان الذين يرتادون مقهاه، لم يفقدوا النظر بعد مرض جسدي، أو في حرب، أو حادث ما، ولو كان هذا سبب عاهتهم، لكان استقبلهم بطيب خاطر. لكنهم عميان من طبيعة أخرى، وسبب عاهتهم صعب التفسير. إنهم لم يعانوا يوماً من عاهة صحية، جسدية، وأنهم كانوا يتمتَّعون بالنظر. لكن عيونهم، على خلاف بقية عيون البشر، هي ذات نظرة مؤذية


Twitter: @ketab_n

شرِّيرة. وكما يعلم سيدي مارك عليم، فإن الدولة العثمانية العظيمة، كي تحمي نفسها ورعاياها من نظراتهم هذه، قرَّرت بمرسوم خاص أن تفقأ عيونهم جميعاً. وتعويضاً عن ذلك، بحلمها المعهود، فقد خصَّصت لهم منحة لمدى الحياة. هل تفهم الآن لماذا لا أستطيع أن أطردهم من المقهى؟ إنهم فخورون بتضحيتهم، وتعرف ماذا يعتبرون أنفسهم؟: ربما كأبطال.

كان مارك عليم يجهل وجود مثل هذا المرسوم، وقد بدت له الرواية التي كان صاحب المقهى يعيدها لكل زبون جديد، ثمرة دماغ مضطرب، ولكنه عندما استعلم عن ذلك، وجد أن هذا المرسوم موجود فعلاً، وأنه مطبَّق في كل الإمبراطورية.

والغريب أن مارك عليم لم يكن يجدهم مخيفين، بالرغم من عصاباتهم السوداء. فلقد سبق له أن أثيرت أمامه. وتخيّل هناك كل أنواع النظرات التي تبعث القشعريرة. وهو يتصوَّر الآن هذه العيون، في رعبها المسيطر، تنفتح ليس فقط على جبهات البشر، وإنما على أطراف السماء، أو في قلب الجبل، غارقة أحياناً في دمعة للقمر، تتجمَّد على ضفاف عينيه كنقطة من الشمع المذاب.

فلا إدانة هؤلاء الرجال ذوي العيون الشريرة، التي أثاره حديث صاحب المقهى عنها (يمكن أن ترمى الرسائل التي تشكو أصحاب العيون الشريرة، في أي صندوق بريد)، ولا الاجتماع الشهري لمحكمة الدولة، التي، بعد أن تدرس كل حالة على حدة، تقرِّر من هم، من بين المتهمين، أصحاب العيون الشريرة، التي يجب أن تفقأ، ولا حتى هذا التعذيب المفروض باسم الصالح العام، ـ كما يقال في الخطاب التقليدي الذي يلقى على هؤلاء مباشرة بعد أن يصبحوا عمياناً ـ



Twitter: @ketab_n

كل هذا لم يكن يجعل مارك عليم يرتعش كما كان سابقاً. وقد كان يمضي به التفكير أحياناً، إلى أنه بعد بضع سنوات، لن تثير فيه لا عجائب هذا العالم، ولا أهواله، أبسط انفعال، فهي ليست، في النهاية، إلَّا نسخاً شاحبة لتلك التي هناك، والتي استطاعت أن تتجاوز الحد الفاصل بين هذا العالم وذاك.

وكلّما كان يسمع عبارة: أية عجيبة! أي هول! كانت تتبادر إلى ذهنه الملاحظة: إن الجحيم والجنّة يختلطان هناك.

انفتح باب المقهى، ودخل منه بعض موظفي القنصلية الأجنبية التي تحتلّ المبنى المقابل، وفكّر مارك: إنهم ما يزالون يتناولون قهوتهم هنا. ران الصمت برهة على طاولة المهرِّج.

في السابق، كان مارك عليم هو الآخر يحسّ بنوع من الانفعال عندما يدخل غرباء إلى حيث يوجد. وكان يعجب في سرِّه بطراز لباسهم الأوروبي. لكن، حتى هؤلاء، يبدون له اليوم مجرَّدين من أي سحر.

كان الوقت صباحاً، حين يشهد المقهى التدفق الأغزر للروّاد. وعرف منهم موظفي بنك الأوقاف، الواقع على بُعد بضع خطوات، ثم دخل الشرطي المكلّف بتنظيم السير، وبدا واضحاً أنه أنهى خدمته للتوّ. ودخل وراءه بضعة رجال لا يعرفهم مارك عليم. وتصاعدت من على طاولة المهرِّج وعن جنبيه ضحكة مكتومة... فقال في نفسه: بإمكانكم أن تضحكوا، بعقولكم الطائشة، فالعالم حديقة من الورود...

وفجأة خطر في باله، كغيمة قاتمة، عشاء الليلة قبل الفائتة، في منزل خاله النافذ، الوزير. لم يكن قد رآه منذ أكثر من سنة، وعندما رأى، وهو عائد من عمله، السيارة التي تحمل الحرف (ك) على


Twitter: @ketab_n

أبوابها، متوقّفة أمام باب منزله، ارتعش كما يحصل له في كل مرّة مشابهة.

لكنه تعجّب أكثر عندما قالت له أمُّه إن خاله الوزير بعث في طلبه وهو ينتظره.

رغم الاستقبال الحار، بدا الوزير متعباً ومقطّباً. وكانت نظرته ذابلة وكأنه لم ينم جيّداً. أمّا بالنسبة لكلامه فقد كان يقطعه بوقفات صمت، ويعطي الانطباع بأنه ابتلع أكثر ما كان يريد أن يقوله. إنه همّ السلطة، قال مارك عليم في نفسه. سأله خاله عن عمله، وأخذ يصف له المظاهر المتعدّدة، ببعض الحرج في البداية، ثم بحرية أكثر فأكثر. لكن بدا له أن الوزير كان يستمع إليه شارد الذهن... بعيداً.

بعد قليل أحسّ بالاحمرار يعلو وجهه، فبينما كان يظنّ أنه يروي أشياء هامّة، لاحظ أن خاله لا يعرف فقط كل شيء عنها، بل إنه يعرف كل شيء وبتفصيل، عن سرايا طابير، وأكثر مما يعرفه كل العاملين فيها. وكان يتحدّث له عن ذلك ببطء وهدوء، قاطعاً كلامه بعدّة محطّات استراحة، وتاركاً أشياء كثيرة في الظل، ورغم ذلك كله، فقد عرف مارك عليم عن سرايا طابير، في هذه الفترة القصيرة من الوقت، أكثر مما عرفه طوال فترة عمله فيها.

كانا بمفردهما، وهذا ما لم يحصل حتى الآن، فناجين القهوة أمامهما على الطاولة. ومارك عليم لم يفهم بعد لماذا استدعاه خاله. وكان هذا الأخير يتحدّث بصوت خافت، مصلحاً من وقت لآخر الفحم المشتعل في المنقل، والذي بدا وجوده في الغرفة أهم من وجود مارك عليم. تحدّث الوزير عن علاقات آل كوبريللي بقصر الأحلام، إذ كانت هذه العلاقات ـ حسبما استطاع مارك عليم أن يسمع ـ على امتداد مئات السنين، الأكثر تعقيداً وتشويشاً. وبدا أنه


Twitter: @ketab_n

كاد يضيف شيئاً آخر: ربما عن الجهد المحموم الذي بذله آل كوبريللي لإلغاء قصر الأحلام، ـ وهو ما سمع عنه مارك عليم بعض الهمهمات ـ لكنه راجع نفسه، على ما يبدو، وظلّ برهة طويلة يعيد ترتيب الجمر، وهو يضغط الملقط بين أصابعه بعصبية. ثم قال: ليس سراً أن سرايا طابير كان قبل بضع سنوات تحت سيطرة المصارف، وأصحاب مناجم النحاس، بينما هو قد اقترب اليوم من دائرة نفوذ شيخ الإسلام. وربما تتساءل ما هي التي يمكن أن يحملها ذلك؟ إنها ـ إذن ـ أهمية كبرى!

فإن ما يقال هذه الأيام الأخيرة، في كل مكان، من أن من يسيطر على قصر الأحلام، يسيطر على مفاتيح الدولة، ليس قولاً غير مبرّر.

كان مارك عليم قد سمع فعلاً كلاماً ما حول هذا الموضوع، ولكن ليس بهذه الصيغة القاطعة، ولا من مسؤول كبير بهذا المستوى، ولذلك فقد ظلّ مفاجأ. وكأن ذلك لم يكفه، فقد سأله الوزير عما إذا كان يعرف ماذا يفعلون بعشرات آلاف الأحلام التي يتفحّصونها في سرايا طابير. وأجابه، وقد أصبح وجهه قرمزي اللون، أنه... متمنياً أن تنشقّ الأرض وتبتلعه. فالحقيقة أنه كان قد حدث له أن تساءل في مناسبة أو أخرى: ماذا يفعلون بها؟ وللحال كان يعتقد، بسذاجة، أنه ما إن يختار منها الحلم ـ الرئيس، كما يفصل الحَّب عن القش، حتى يجمعوها في رزم، وينزلوها إلى الأرشيف. لكن ما كاد الوزير يطرح عليه هذا السؤال حتى فكّر بأنه من العبث الاعتقاد أن من الممكن أن يحوّل جبل من الأحلام كهذا الجبل، إلى النفايات، بمجرَّد أن ينجب الزهرة النادرة: الحلم ـ الرئيس.

وباختصار شرح له الوزير أن اختيار الحلم ـ الرئيس يشكّل قطعياً واحدة من المهمَّات ذات الأولوية التي يضطلع بها موظفو هذا


Twitter: @ketab_n

القسم، بدليل أنه يحمل اسمه. بيد أن المكلّفين بقسم الحلم ـ الرئيس يتولون أيضاً مهمة أخرى: وهي تدوين التحذيرات التي تخص مؤسسات الدولة الرئيسية. كذلك فهم يكتبون أيضاً بعض التقارير، وبعض الدراسات السريّة حول بعض القضايا، خاصة حالات الاختلال النفسي التي تتعرَّض لها مختلف الطبقات الشعبية، وعدد كبير من سكّان الإمبراطورية.

كان مارك يشرب هذه العبارات، وكان محدِّثه قد قال محدّداً: بالطبع يظل الحلم ـ الرئيس عنصراً أساسياً، خاصة في لحظات كهذه، وبالأحرى فيما يمس آل كوبريللي، وقد تفرّس الوزير طويلاً في وجه ابن أخته، كأنما ليتأكَّد من أنه يفهم جيِّداً، أن أيّاً من الأحلام لم يشر إلى آل كوبريللي، وخصوصاً بحلم ـ رئيس، أنت تفهم ما أريد قوله؟ أضاف سائلاً، وعيناه تكتسيان وشاحاً مشدوداً، قاتماً لكنه مشع. فباتجاه الحلم ـ الرئيس تلتقي جميع الـ. . . .

ومن جديد، عادت عبارات الوزير ضبابيّة، تتخلّلها غالباً فسحات من الصمت. . . إن عدداً من الشائعات يدور حول هذا الموضوع، ولن أحدِّد ما إذا كانت صحيحة أم خاطئة، ولكن ما يهمنّي أن أدلّك عليه، هو أن حلماً ـ رئيساً قادر على أن يثير ضوضاء مهمّة في حياة الدولة. . . ولمع في عيني الوزير شعاع ساخر، عابر. . . إن حلماً ـ رئيساً هو الذي ولّد فكره مذبحة الزعماء الألبان في «مونا ستير»، هل سمعت عنها؟ كذلك فإن حلماً ـ رئيساً آخر هو الذي أدّى إلى عملية المراجعة السياسية تجاه نابوليون، وإلى سقوط الوزير الأول يوسف. والحالات التي من هذا النوع لا تعدّ ولا تحصى. . . وليس الأمر صدفة، أن يصل مديرك، الذي يبدو في الظاهر بسيطاً لا يحمل أي لقب، لأن ينافسنا في السلطة، نحن الوزراء الأكثر نفوذاً.



Twitter: @ketab_n

ابتسم ابتسامة مليئة بالمرارة وتابع بصوت بطيء:

- إذا كان يستطيع أن ينافسنا، فذلك لأنه يمتلك سلطة يخشى منها، سلطة لا تستند إلى الوقائع.

كان مارك عليم معلّقاً على شفتي خاله، وهو يردِّد في نفسه: سلطة لا تستند إلى الوقائع... بينما الوزير يتابع شرحه له أن أية مبادرة لم تخرج أبداً ولا يمكن أن تخرج من (سرايا طابير). وإن طابير لا يحتاج إلى ذلك مطلقاً. فهو يطلق أفكاراً، تمنحها آليته الغريبة على الفور، قدرة الكارثة، لأن هذه الأفكار قد استخرجت، برأيه، من الأعماق السحيقة للحضارة العثمانية. تلك التي لم تعد تعيها الذاكرة.

كما كنت أقول لك الآن، فإننا نحن آل كوبريللي كنا دائماً معنيين بأحلام ـ رئيسة... وكانت كلمات الوزير تخرج من فمه مضغوطة وكأنها صفير: غالباً ما وجّهوا لنا ضربات.. وتراءت في خاطر مارك عليم ليالي الوشوشات والقلق في منزله الكبير. كانت الأحلام ـ الرئيسة تأخذ في خياله شكل أفاع تلسع أغطية الكروشيه عندهم.

أخذ كلام الوزير يصبح أكثر غموضاً شيئاً فشيئاً. ويطفو على سطحه، من وقت لآخر، بعض ما يقلقه، لكنه يسرع إلى إخفائه من جديد. كان يجب أن تدخل منذ وقت مبكِّر إلى (سرايا طابير). لكن ربما لم يفت الأوان بعد... الحديث يصبح مبهماً أكثر فأكثر، تتخلّله وقفات صمت وتردّد. ومارك عليم لا يعرف إلى ماذا يريد خاله أن يصل. وكان يحسّ جيّداً أن الوزير لا يريد أن يكشف أفكاره في العمق. يا إلهي! لكن له الحق في ذلك ـ قال مارك عليم في نفسه ـ إنه رجل دولة بينما لست أنا سوى موظفٍ بسيط. إنه يترك له أن يفهم، ويصرِّح له بشبه وضوح، أنه لم يعيّن هناك صدفة، وأن عليه أن يشقّ طريقه وسط الزحام، وأن يفهم آلية العمل كلها، والأهم... أن يفتح



Twitter: @ketab_n

عينيه، كي يكون عند مجيء الوقت... لكن ماذا؟ أي وقت؟ (كاد يسأل لكنه لم يجرؤ). وقال له الوزير: كان كل شيء غامضاً، سنتحدَّث في ذلك مرّة أخرى، نحن الاثنين، لكن مارك عليم أحسّ أن الوزير ما زال يتردَّد في أن يفتح له قلبه بصراحة. كان يعود إلى نقطة وردت في الحديث، وظلّت معلّقة، يلقي عليها بعض الضوء ثم لا يلبث أن يطفئه بسرعة.

- أعتقد أنك سمعت أن سلطة سرايا طابير كانت تميل، في بعض أوقات الأزمات، إما إلى الانحدار وإما إلى التنامي. ونحن نعيش اليوم واحداً من هذه الأوقات، وللأسف فإن سلطة قصر الأحلام تتجه صعداً.

لم يجرؤ مارك عليم على أن يسأله عن أية أزمة يتحدّث. ورغم أنه كان قد سمع، على ما يظن، حديثاً عن مشروع إصلاحات كبيرة، كان من شأنه أن أثار رجال الدين، والعسكريين، إلّا أنه لا يعرف تفاصيل دقيقة عن الموضوع. وربما يكون لآل كوبريللي يد فيه؟

- الوقت حَرِج ـ استأنف الوزير قائلاً ـ والحلم ـ الرئيس يمكن أن يضرب من جديد...

كان مارك عليم يجهد في ألّا تضيع منه كلمة واحدة من كلام الوزير الذي تابع بعد برهة صمت:

- القضية التي تطرح نفسها، هي معرفة أي من العالمين سيسيطر على الآخر...

يا إلهي! ها هو يعود إلى الغموض من جديد، في اللحظة التي ظننت فيها أنه بدأ يبوح بما في نفسه!

- بعضهم ـ تابع الوزير ـ يظنون أن عالم القلق، والأحلام، وباختصار، عالمكم، هو الذي يسيّر هذا العالم. أما أنا فأعتبر أن



Twitter: @ketab_n

كل شيء يسيّر من عالمنا هذا، وهو الذي يختار، في النهاية، الأحلام، والهذيان، والأفكار المقلقة، التي يتركها تطفو على السطح، كما تخرج دول الماء من قعر البئر. هل تفهم ما أريد قوله؟ إن هذا العالم هو الذي يختار من قعره ما يهمّه.

قرّب الوزير رأسه من رأس ابن أخته وفي عينيه كان يلمع شعاع بلون الكبريت.

- يقال إن الحلم ـ الرئيس يركّب أحياناً من قطع من أحلام مختلفة ـ قال بهدوء ـ هل تخيّلت يوماً شيئاً كذلك؟

تجمّد مارك عليم من الرعب. الحلم ـ الرئيس. مركّب؟ لم يكن قد تخيّل أبداً أن ذهناً بشرياً يجرؤ على التفكير بخطأ مهول كهذا. وبالأحرى أن يترك فمه ينطق به بوضوح. وتابع الوزير كلامه عمَّا يقال عن الحلم ـ الرئيس، لكن مارك عليم، فكّر لمرّتين أو ثلاث: يا إلهي! لكن يبدو واضحاً أن هذا ما يعتقده هو!

لم يكن قد استعاد نفسه من ذهولها، وكان صوت الوزير يأتيه، كأنما من جوف فوضى ركام ثلجي.

يقال، إذن، إن بعض الأحلام ـ الرئيسة هي غير صحيحة، وإنها أُلِّفت في (سرايا طابير) على أيدي الموظفين أنفسهم بحسب مصالح الفئات النافذة المتنافسة على السلطة، أو حسب مزاج السلطان. هذا إذا لم تكن كلّها كاذبة تماماً، أو على الأقل محرّفة جزئياً.

أحسّ مارك عليم برغبة جارفة في أن يرتمي على قدمي الوزير ويتوسّل إليه: دعني أترك هذا المكان، يا خالي، أنقذني! لكنه كان يعني تماماً أنه لا يستطيع التلفُّظ بهذا الطلب، حتى ولو كان متأكّداً من أن عمله سيؤدّي به إلى المشنقة.

وفي طريق عودته من بيت الوزير، هذه الليلة، ألحّ عليه هذا


Twitter: @ketab_n

القلق الحزين. كانت السيارة تسير في الشوارع ذات المصابيح المطفأة. وكان هو يحسّ، وهو سجين هذه المركبة السوداء، التي تحمل على جانبيها كإشارة شؤم حرف (ك)، أنه يطيّر عصفوراً ليلياً وحداً، على الحدود، بين عالمين لا يعرف أحد أيّاً منهما يسيّر الآخر.

عليه أن يكون متيقِّظاً عندما تأتي اللحظة... لكن، أية إشارة ستدلّه عليها، أي ملاك أو أي شيطان سيأتي لينبِّهه إليها؟ وكيف سيتعرّف إليها، مع من عليه أن يكون على اتصال عبر ضباب (سرايا طابير)؟

... في المقهى، تذكَّر تلك الواقعة وهو يقلِّب فنجانه الفارغ بين أصابعه، فحتى الآن، ورغم مرور عدة أيام، يحسّ بهذا الضيق يخنق صدره. ثمة شيء ما، دفعه لأن يلتفت نحو طاولة المهرِّج علي ومعجبيه، الذي كان قد توقف عن الثرثرة وراح يتأمَّله بعينين اتّسعت حدقتاهما واستدارتا.

أزعجه ذلك. فالظاهر أن صاحب المقهى قد أخبرهم لتوّه أن مارك عليم يعمل في (سرايا طابير). لم يكن يجهل أن هذا الرجل لا يستطيع أن يمسك لسانه. ولكن... أن يكون ثرثاراً إلى هذه الدرجة!. وفي النهاية يستطيع أن يذهب إلى الجحيم هو وكل الفضوليين الآخرين! والأرجح أنه هو نفسه، لن يأتي إلى هذا المقهى أكثر من مرّتين أو ثلاث طوال الفصل كله. وربما أقلّ... وربما لن يأتي أبداً...

كلّما كانت تقترب ساعة الغداء، كان المقهى يفرغ. كان الديبلوماسيون الأجانب قد رحلوا، وموظفو البنك أيضاً، ومثلهم معجبو المهرِّج نهضوا بدورهم، وخرجوا بعد أن ألقوا نظرة دهشة


Twitter: @ketab_n

أخيرة، على مارك عليم. وحدهم العميان ظلّوا في أماكنهم قبل فترة، فقد رفعوا أعناقهم، مستقيمة، كمن يواجه العالم مغتاظاً ومخاصماً. كانت هذه الرؤوس الصامتة تبدو وكأنها تقول: هل تسير أمور الدولة أفضل الآن، بعد أن فقئت عيوننا، التي كانت تسيء لها كما يدّعون؟ لقد ظلّ العالم، حسب ما نسمع، كما كان، إن لم يكن قد أصبح أسوأ.

أخيراً. دفع مارك عليم ثمن قهوته ثم نهض، مغادراً. اتجه ببطء نحو منزله بعد فترة ندم لأنه لم يمتط عربة. كان قد دخل في الشارع المؤدي إلى بيته عندما سمع أصواتاً تقول موشوشة... إنه يعمل الآن في (سرايا طابير)... تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً، وتابع طريقه رافع الرأس.

حيّاه بائع الكستناء، والشرطي الواقف على زاوية الشارع باحترام خاص. لا شك أنه قد بلغهما أين يعمل. وبات يرتسم في نظراتهما نوع من الذهول، وكأنهما يتعجّبان من رؤيته ما يزال رجلاً من لحم ودم، وهو الذي يجب ألّا يظهر بعد إلّا بمظهر أثيري.

ولاحظ وجود شخص خلف زجاج نافذة البيت المقابل. كان يعرف أن هذا المنزل يؤوي أختين جميلتين، طالما وجد متعة في التفكير بهما. لكن، حتى هذه النافذة التي كانت تجذبه عادة، تبدو له اليوم، فارغة!

ها هي زيارتي الأولى لعالم المستيقظين تصل نهايتها، قال وهو يدفع بوابة الحديقة، وكان هدير يشبه حفيف الأجنحة قد رافق نزهته، وكأن نسيماً من العالم الآخر ظلّ عالقاً بجسده. لقد كانت فكرة أنه قد يواجه الموت قد أنهكته، عند الوزير، قبل عدة ليالٍ. أما الآن فإنه


Twitter: @ketab_n

لامبالٍ إزاءها. إن العالم باهت إلى الدرجة التي لا يستحق معها عناء العذاب بسبب التفكير بأننا قد نفقده.

فتح الباب الداخلي، ودون أن يلقي نظره إلى الوراء، دخل. غداً... قال لنفسه، وهو يتخيّل الغرف الباردة، والملفَّات التي تنتظره على الطاولة، غداً سيعود إلى هناك، إلى ذلك العالم الغريب، حيث يخضع الزمن، ومنطق الأشياء، وكل شيء آخر، لقوانين مختلفة جذرياً، وقال في نفسه، إنه إذا حصل وأعطوه يوم إجازة جديدة، فلن يخرج أبداً إلى المدينة.

* * *


Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# V

# الملفّات

بعد استراحة الصباح مباشرة، أُبلغ مارك عليم أن المراقب يطلبه. اتجه نحو مكتب رئيسه وهو يسير على رؤوس أصابعه كي لا يثير أية ضجة. وقبل أن يصله ببضع خطوات، تعرّف إلى الملف الموضوع فوقه، إنه الملف الذي حوِّل إليه هذا الصباح.

- مارك عليم ـ قال له الآخر ـ أعتقد أنه من الأفضل، فيما يخص أحد هذه الأحلام (وقلّبت أصابعه الملف بسرعة).. ها هو... أعتقد أنه من الأفضل بالنسبة لهذا النوع من الأحلام...

تفحّص مارك عليم لبرهة الورقة التي دوَّن في أسفلها تفسيره هو للحلم الذي تحمله، ثم رفع رأسه.

- يمكنك أن تفضَّل كما تريد، لكني أعتقد أن عليك أن تتبع نصيحتي. لديّ إحساس بأن هذا الحلم مهم، وفي حالات كهذه، عموماً، تفضِّل العودة إلى الخبرة المكتسبة.
- أجل. أنا لا أشكك أبداً في صحة ما تقول ومع ذلك...
- ألم يحصل أن ذهبت أبداً إلى الأرشيف؟ قاطعه المراقب.

أومأ برأسه بالإيجاب، فابتسم المراقب.

- هذا بسيط جداً. يوجد هناك أناس مكلّفون خصيصاً بهذا. وما



Twitter: @ketab_n

عليك إلا أن تخبرهم عن طبيعة الحلم الذي جئت بشأنه. وفي حالة هذا الحلم، الأمر سهل بشكل خاص: الأحلام التي رؤيت غداة مواجهات دامية تصنّف وتجمع معاً. وأنا واثق من أن إلقاء نظرة على بعضها سيساعدك على تحليل هذا.

ونقر المراقب بإصبعه الورقة التي يحملها.

- بكل تأكيد ـ قال مارك عليم وهو يمدّ يده ليأخذها.

- الأرشيف، تحت، في الطابق الأسفل، ولا بد أن تلتقي في الممرّات من يدلّك عليها.

خرج مارك عليم بخطى محسوبة، وما إن أصبح في الممر، حتى تنفّس بعمق قبل أن يقرّر أي اتجاه يسلك، لكنه عاد فتذكّر أن عليه أن ينزل أولاً إلى الطابق الأرضي، ومن هناك يبدأ تفتيشه عن الطريق.

كان هذا ما فعله. واحتاج إلى أكثر من نصف ساعة حتى وصل إلى قبو القصر. والآن؟ قال لنفسه عندما وجد نفسه وحيداً داخل رواق طويل جداً، مسقوف بقبّة، وتضيئه إضاءة ضعيفة مصابيح معلّقة على جانبيه. ظنّ أنه سمع وقع خطوات غير بعيدة، وحثَّ السير كي يلحق بها، لكن خطوات الآخر كانت تسرع بدورها، توقّف... ففعل الآخر مثله. وعندها أدرك أن تلك لم تكن إلا خطواته وصداها...

يا إلهي! قال في نفسه. إنها دائماً القصّة ذاتها، في هذا القصر الملعون! ماذا كان سيكلّفهم تثبيت بعض اليافطات الصغيرة التي ترشد إلى مختلف الأقسام؟ الآن بات لديه إحساس بأن هذا الرواق دائري... ظنَّ أنه يسمع وقع خطى بعيدة... لكن قد تكون هذه أيضاً خطاه هو. وقد تكون خطوات أناس يسيرون في طوابق أخرى. والغريب أنه كان يحسّ نفسه هادئاً، رغم ذلك. فعلى أية حال، سينتهي به الأمر إلى الخروج من هنا، كما حصل في المرَّات السابقة.



Twitter: @ketab_n

لقد أصبح الآن متعوِّداً على هذا النوع من المغامرات المزعجة. واكتشف، إذ تابع طريقه، أن هذا الرواق يتقاطع مع ممرَّات تختلف في عرضها، لكنه لم يجرؤ على الدخول في أي منها، خوفاً من أن يضيع أكثر. وبعد حوالي نصف ساعة، أحسّ بأنه عاد إلى حيث انطلاقه وقال في نفسه: أنا أدور حول نفسي، كحصان على بيدر... توقّف لحظة... تنفّس بعمق، ثم تابع تقدّمه بإصرار صلب. وهذه المرة دخل أول رواق جانبي قابله. ولم يلبث أن اغتبط لذلك، فبعد خطوات قليلة، رأى باباً في أحد الجدران، تابع تقدّمه، ووجد أبواباً أخرى تنفتح واحداً إثر الآخر في الجدارين، اقترب من أحدها، لكنه عاد فأمسك عن طرقه، وقال: سأطرق الباب التالي... لكن تصميمه غاب أمام التالي أيضاً. فكيف يستطيع أن يقتحم مكاناً هكذا، وهو يجهل أين هو؟ لعلّ من الأفضل له أن ينتظر أن ينفتح أحد هذه الأبواب من تلقاء نفسه ويخرج منه من هو قادر على إرشاده. تجمّد في مكانه، لا يدري ماذا يفعل. ولكن ماذا لو مرّ أحدهم، وراءه هنا مزروعاً كقصبة، وسأله:

ـ ها أنت: ماذا تفعل هنا؟... أي سأم! قال في نفسه، ثم تابع سيره.

دائماً القصة نفسها. إن لديه الآن الإحساس بأنه منذ عيّن في هذا القصر وهو لا يفعل شيئاً إلّا التّيهان في هذه الممرات، دون أن يجد ما يفتِّش عنه، فليذهب التردّد إلى الجحيم، ولأتكل على الله. قال في نفسه، وطرق، بطريقة مباغتة، الباب الأول الذي صادفه أمامه. وبسرعة تراجعت يده عنه، ولو أنه كان يستطيع، لحاول أن يمحو الضربات التي طرقها، لكنها، وللأسف، كانت قد ترجّعت في الجانب الآخر. انتظر بضع ثوان: لم يأته أي صوت من الداخل ـ


Twitter: @ketab_n

عندها حزم أمره وطرق الباب مرّة أخرى، ثم أدار المقبض، لكن الباب لم ينفتح. إنه مقفل بالمفتاح ـ قال في نفسه ـ وكل تردّدي كان سدىً. تقدَّم قليلاً، وبخجل أقل، طرق باباً آخر. وكان هذا الباب أيضاً مقفلاً. حاول أيضاً مع أبواب أخرى لكنها كانت كلها مقفلة. أين أنا إذن؟ ليست هذه مكاتب الأرشيف؟

حثَّ الخطى منزعجاً، وكان وهو يشمي بحركات نزقة، ودون أن يطرق الباب، يضغط على كل مقبض معدني، بغيظ لم يحاول تبيّن مصدره. كانت لديه رغبة مجنونة في أن يرفس برجله هذه الأبواب الصمّاء. ولكان فعل ذلك بالتأكيد، لولا أن أحدها انفتح أمامه فجأة، في ذات اللحظة التي قطع فيها الأمل كلّياً. كان قد دفعه بقوّة، إلى درجة جعلته يكاد يسقط على وجهه. وبلمحة تراجعت يده، محاولة أن تمسك بالمقبض وتشدّ الباب إلى الوراء. لكن الأوان كان قد فات. والباب قد انتفح على مداه، وكأن ذلك لم يكف فإن مجموعة عيون منذهلة بهذا الاقتحام المفاجئ، من قبل هذا الإنسان الذي بدا تائهاً، كانت تتفرّس في وجهه ببرود.

ـ ماذا يجري؟ سأل صوت طالع من عمق القاعة.

واستمرَّت عينا الرجل الباردتان تتفحّصانه:

ـ عذراً! قال مارك وهو يتراجع خطوة، أرجوكم أن تعذروني (كانت جبهته قد اكتست بحبيبات العرق). أنا أستميحكم عذراً!

ـ ما الذي يحدث. يا آغا شاهين؟ كرّر الصوت الآتي من البعيد.

ـ لا شيء هامّاً. أجابه الآخ وعيناه ما تزالان على الغريب. وسأله: عمَّ تفتّش؟

فتح مارك عليم فمه دون أن يدري ما يقول، وهو يكاد يموت



Twitter: @ketab_n

خجلاً. ولحسن الحظ، فقد كانت يده في الجيب الذي وضع فيه الورقة.

- لقد جئت أبحث في الملفّات... كما يحصل عادة، من أجل حلم... قال بصوت متردّد. لكنني أشعر أنني أخطأت الباب. اعذروني فهذه هي المرّة الأولى..
- لكنك لم تخطئ... قال الصوت الثاني، ذاك الذي ارتفع في البداية، من وراء عدة صفوف، ولم يحدِّد مارك عليم مصدره إلّا الآن. وجه مألوف، ذو عينين صافيتين، ضاحكتين، ظهر أخيراً.
- أنت... قال بصوت منخفض وهو يتذكّر صباحه الأول في المشرب، حيث تعرّف إلى هذا الرجل... أنت تعمل هنا؟
- أجل. إذن فأنت تذكرني؟ قال الآخر وهو يرمقه بمودة.
- بالتأكيد. لكنني لم ألتقك أبداً منذ تلك المرة.
- أنا رأيتك مرّة عند الخروج، لكنك لم تلحظني.
- آه. نعم؟ لا بدّ أنني كنت شارداً... كان يسرّني أن...
- أنت لا تبدو صافي المزاج. كيف يسير عملك؟
- جيداً.
- ما زلت في «الفرز»؟
- لا، لقد نقلت إلى «التفسير».
- حقاً! قال الآخر بتعجّب. لقد ارتقيت الدرجات بسرعة. أهنّئك! إنني سعيد بذلك بصدق.
- شكراً. هذا هو الأرشيف إذن؟
- أجل. الأرشيف. أنت جئت من أجل استشارة.

هز رأسه موافقاً.

- سأساعدك.



Twitter: @ketab_n

وأسرّ موظف الأرشيف شيئاً في أذن رفيقه الذي كانت عيناه حتى الآن، باردتَي النظرة، فالتمع فيهما تعبير فضول حادّ.

- في أي قطاع تريد أن تبحث؟ سأله الرجل.

هز مارك عليم كتفيه وأجاب:

- لا أدري. إنها المرة الأولى التي أنزل فيها إلى هنا.
- سأساعدك.
- أكون لك شاكراً.

غادر موظف الأرشيف الغرفة، ومارك عليم في أثره.

- كنت أعتقد أنني سأعود والتقيك يوماً ما. قال له الرجل وهما يعبران الرواق.
- لم أعد أراك في المشرب.
- كيف لك أن تميّزني في كل تلك الزحمة هناك؟...

كانت خطاهما تتراجع بإيقاع منتظم.

- هل قسم الأرشيف هو حقاً بهذا الاتساع؟ سأل مارك عليم وهو يشير إلى الأروقة الكثيرة التي تتقاطع عمودياً مع الرواق الذي يعبرانه.
- أجل. إنها متاهة حقيقية. يمكن أن نضيع فيها.
- لقد كنت محظوظاً إذ وجدتك. ولا أدري ماذا كنت سأفعل بدونك.
- كان موظف آخر سيساعدك.

أجابه الرجل. ومشى، متقدماً مارك عليم الذي كان يتألم لأنه لم يجد الكلمات المناسبة ليعبّر له عن امتنانه:

- نعم. كنت ستجد بالتأكيد من يساعدك غيري. لكني أنا سأجعلك تزور كل قسم الأرشيف.



Twitter: @ketab_n

- حقاً؟ قال مارك ـ إليم الذي أحسّ بموج من الامتنان يغمره. ولكن قد يكون لديك عمل ـ أضاف بصوت منخفض ـ لا أريد أن أزعجك.
- أبداً! يسعدني جداً أن أستطيع تقديم خدمة صغيرة لصديق.

خجلاً، لم يعرف مارك عليم بماذا يجيبه.

- إذا كان سرايا طابير، كالنوم بالنسبة للحياة الواقعية، فإن الأرشيف هو النوم الأثقل داخل نوم الطابير.

دخل مارك عليم وراءه إلى غرفة بيضاوية، جدرانها مغطاة حتى السقف بالرفوف.

- هناك عشرات الغرف مثل هذه، قال الرجل وهو يشير بيده إلى الرفوف. هل ترى هذه الملفات؟ إنها تعد بالآلاف، إن لم نقل بعشرات الآلاف.
- وكلها مليئة؟
- بالطبع. قال رجل الأرشيف وهو يشدّ على كلامه. لكننا سنمر بكل الغرف، وسيمكنك رؤية ذلك بعينيك.

كانا يسيران في رواق ضيق بدا لمارك عليم أن أرضه تنحدر قليلاً. وكانت إضاءته ضعيفة آتية، ربما، من مصابيح الأروقة المجاورة، أو الرواق الدائري.

- هنا يوجد كل شيء. قال رجل الأرشيف، وهو يتباطأ في السير. هل تفهم ما أريد قوله: إذا اختفت الكرة الأرضية يوماً، إذا تعرّضت الأرض، مثلاً، للاصطدام بأحد المذنّبات، إذا تحوّلت إلى فتات، تبخّرت أو غرقت في الفراغ، إذا اختفى كوكبنا دون أن يترك أثراً إلّا.هذه المغارة المليئة بالملفات، فإنها تكفي لأن تعطي صورة كاملة عما كانت عليه الحال. (وأدار الرجل رأسه


Twitter: @ketab_n

كأنما ليتأكد من أن أقواله قد تركت تأثيرها على محدِّثه) هل ترى ما أريد قوله؟ إن أية قصة، أية موسوعة، كل الكتب المقدّسة وما يلحق بها، أية أكاديمية أو جامعة أو مكتبة... كلها لا تستطيع أن تصوّر حقيقة عالمنا بطريقة مكثّفة إلى الحد الذي يصوّره هذا الأرشيف.

- لكن أليست هذه الحقيقة مشوّهة قليلاً؟

اعترض مارك عليم مخاطراً.

وبدت له ابتسامة الرجل، من جانب الوجه، ساخرة أكثر مما بدت عليه، مواجهة.

- ومن الذي يستطيع أن يقول إن المشوّه ليس إلّا ما نراه بعيوننا المفتوحة. وإن ما هو مكتوب هنا، هو على العكس من ذلك، الجوهر الحقيقي للأشياء؟ ألم تسمع أبداً العجائز يتنهّدون قائلين: آه، ليست الحياة إلا حلماً.

دفع الباب، ودخل. كانت قاعة طويلة كأقصى ما يمكن. وكالقاعات الأخرى، كانت جدرانها مغطاة بالرفوف المحشوّة بالملفات. وعلى الأرض وضع قنديل، لم يجد له مكاناً على ما يبدو، وأمام الرفوف التي في قاع الغرفة كان رجلان مُنهمكين بالعمل.

- عمَّ يتحدّث حلمك؟ سأل الرجل. وتلمّس مارك عليم الورقة المطوية في جيبه.

- إنه يتوقع خسارة كثير من الأرواح في الحرب.

- آه. الأمر يتعلق بالأحلام التي تُرى غداة المجازر الكبرى. إنها في شبعة أخرى. ولكن لا تقلق، سنجدها. هذه الأحلام (وأشار إلى الرفوف التي على يساره) هي أحلام الشعوب المعتمة. وهذه أحلام الشعوب المشرقة.



Twitter: @ketab_n

وأراد مارك عليم أن يسأله عما يعنيه بهذه التسميات، لكنه لم يجرؤ. وتبعه وهو يعبر الممرات الضيقة بين الرفوف المتحركة. وتوقف الرجل الآخر أمام واحد منها تقوّس تحت ثقل الملفات.

- هنا توجد نهاية العالم، حسب الشعوب التي تعاني من الشتاء الكثير الرياح.

مرر يده على الرف وكأنما أراد أن يرفعه من جديد، ثم قال وهو يدير وجهه نحو مارك عليم: أحياناً يكون المفسرون الذين ينزلون إلى الأرشيف مدّعين ومزعجين. أما أنت فتعجبني جداً، لأنك لطيف، وسأكون مسروراً في أن أدلّك على كل شيء.

- أشكرك، قال، مارك عليم.

كانت هذه الغرفة الطويلة تتصل بغرفة مجاورة أخرى بواسطة باب واطئ. وأخذت رائحة الورق العتيق تزداد نفاذاً، وأحس مارك عليم أنها تزعج تنفسه.

- قيامة الأموات... قال رجل الأرشيف. يا الله، أية أشياء مرعبة لا توجد هنا!... أخيراً، فلنذهب أبعد قليلاً. هاك الفوضى: الأرض والسماء مختلطتان في هذه الرفوف، الحياة ـ الموت أو الموت ـ الحياة، كما تريد... مشاريع حياة ذات أصل مؤنث أو مذكر... لنذهب أبعد من ذلك. الأحلام الجنسية: كل هذه القاعة، والقاعات الملاصقة لها، مليئة بها. الأزمات الاقتصادية، هبوط العملات، الإيرادات العقارية، البنوك، الإفلاسات. كله مجموع هنا. هاك أيضاً: المؤامرات، الانقلابات التي خنقت في مهدها، المكائد الحكومية...

وأحسّ مارك عليم بأن صوت رجل الأرشيف يبتعد أكثر فأكثر. وفي لحظات ما، خاصّة عندما كانا يعبران من غرفة إلى أخرى، لم



Twitter: @ketab_n

يكن يميِّز كلماته... وكانت قبة السقف ترجع صداها المرتجف.

- الآن... آن.. سنرى.. رى.. رى.. أحلام العبودية.. بو... بو... دية... دية... وعند كل صرير لباب، كان مارك عليم يرتعش حتى نخاعه الشوكي.

- أحلام الفترة الأولى من العبودية... قال الرجل وهو يشير إلى الرفوف الملاصقة، أو كما يسمّونها أيضاً: أحلام العبودية الأولى تمييزاً لها عن أحلام المراحل اللاحقة، أي مراحل العبودية العميقة. في الواقع، إنها تختلف كلياً بعضها عن بعض. إنها كالحب الأول الذي يختلف عن علاقات الحب التالية. ومن هنا إلى نهاية القاعة، ملفات الهذيان الكبير.

الهذيان الكبير... ردّد مارك عليم من ورائه، دون أن يحوّل نظره عن الرفوف، إلى متى سوف يستمر تائهاً في هذا الجحيم؟

- أمس، قام المكلفون بالحلم ـ الرئيس بالبحث هنا حتى ساعة متأخرة من الليل، أسرّ له الرجل بصوت خفيض، يجب ألّا نتعجّب من ذلك، حيث إنه يمكن أن توجد فيها المصائب الكبرى مجتمعة، بدءاً بتلك التي أخذت بعض الشعوب تسمّيها: اليقظة القومية. إن هذا لا يتعلّق، كما تفهم، بقيامة ميت، بل ببعث أمة كاملة. نوع من الأمور التي لا نجرؤ حتى على التلفّظ باسمها... قلت لي إنك تريد الأحلام التي حدثت غداة سفك دماء.

- أجل... هذه.

- هاك الملفات. إنها، في الغالب، أحلام حصلت غداة المعارك الكبرى... وفي جزء منها عند اقتراب الفجر... معركة كيرك ـ كيلي.. معركة بايزيد يلدريم ضد تيمورلنك. حملتا هنغاريا...

- وهل يوجد شيء عن حرب كوسوفو؟ سأل بصوت خافت جداً.



Twitter: @ketab_n

رفع رجل الأرشيف حاجبيه:

- أنت تقصد الأولى، التي قامت عام ١٣٨٩، ضد كل البلقان مجتمعاً، إن لم أكن مخطئاً؟

- أجل بالضبط.

- لا بدّ أن تكون موجودة. انتظر برهة.

استدار، واختفى بين الرفوف التي تنوء تحت ثقل الملفات، ليفتّش عن الموظف المكلّف بهذا القسم، على ما يبدو. ولم يتأخّر في العودة وإياه.

- هنا توجد السبعمائة حلم التي تخصّها، والتي رآها أصحابها بعد ذلك اليوم المشؤوم. قال الرجل وهو ينقّل نظره بين مارك عليم وموظف القسم الذي كان رأسه الهزيل يهتز موافقاً على كل كلمة يقولها الآخر.

- كان المفروض أن يكون هناك عدد أكبر منها. لكن يحتمل أن يكونَ بعضها قد ضل، قال العامل بصوت خافت، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من هذه التي بقيت هو مقتضب، كما تكون عليه الأحلام المكتوبة على عجل عند الفجر.

- حقاً! لم يتمالك مارك عليم نفسه من أن يصبح متعجِّباً. إذ كان قد سمع الحديث في بيته عن هذه الحرب المأساوية.

- لقد تم اختيار الحلم ـ الرئيس على عجل، هو أيضاً، كي يؤخذ غداً مع طلوع الفجر إلى خيمة السلطان.

- أكان الوقت كافياً لاختيار الحلم ـ الرئيس؟ سأل مارك عليم مندهشاً.

- مفهوم. وكيف يفعلون؟

- وهل هو موجود هنا؟



Twitter: @ketab_n

- لا . . . إنه محفوظ مع الأحلام ـ الرئيسة الأخرى في قاعة الحلم ـ الرئيس، قال الموظف. وتدخّل رجل الأرشيف قائلاً:
- سنذهب إليها أيضاً . . . لا تقلق . . .
- أنا أستطيع أن أصفها لك بشكل تقريبي، قال الموظف . . . طبعاً، إذا كان ذلك يهمّك.
- أجل، بالتأكيد.

تفحّصه رجل الأرشيف لحظة ثم خفض جفنيه بإشارة تفهم. كيف يمكن ألا تكون مهتماً، وأنت من آل كوبريللي . . .

- رأى أحد الجنود في الحلم رفيقاً له كان قد مات قبل فترة. وكان يدعوه لأن يلاقيه خلف تلة. فسأله: إيه . . . ماذا تفعل هناك وحدك؟ ألا تحسّ بالضجر؟ لماذا لا تأتي إلينا؟ إن أكثريتنا موجودون في هذه الجهة . . . وكان هذا يعني أن النهار سيكون دامياً جداً، وهذا فعلاً ما حصل. وكان الموظف يروي هذه القصة بصوت يبدو أنه يأتي فعلاً من وراء القبور.
- أقسم بالله. لم تكن هذه مزحة . . . فهناك تمّت إبادة المجموعة البلقانية.

كان مارك عليم ينظر مليّاً إلى كل من محدِّثيه.

- حتى اليوم، وبعد خمسة قرون ما زال البلقانيون يحلمون بهذه الحرب. هذا ما قاله لي صديق يعمل في قسم «الشعوب المعتمة».
- ليس في ذلك شيء غير مفهوم. لاحظ رجل الأرشيف، وعيناه مثبتتان دائماً على مارك عليم.

وسأل الموظف:

- هل تريدان أن نفتح الملفات؟
- لا، ليس الآن، أجابه رجل الأرشيف. سنعود بعد برهة. أليس


Twitter: @ketab_n

كذلك؟ سأل وهو يلتفت إلى رفيقه الشاب. لنقم أولاً بزيارة كل الأرشيف، وبعد ذلك يمكنك العودة إلى هنا والبقاء إلى ما تشاء.

- موافق. أشار مارك عليم.

وعادا من جديد إلى الرواق حيث عاد صوت المتحدث يترجع صدى مضاعفاً.

- الآن... آن.. ســـوف نـــرى.. ورف... رى روف... رى... الأحلام الأثرية.. لام... رية... لام العثمانية.. نية.

- وما هذه؟ سأل مارك عليم مرافقه وهما يجتازان باباً، استعاد الرجل بعده صوته الطبيعي.

- إنها الأحلام العثمانية القديمة، الأحلام الأولى لمؤسسي الإمبراطورية، أو كما يسمّونها الأحلام الأثرية.

- وقد حُفظت؟

- بطريقة ما ـ أجاب الرجل ـ بقدر ما يمكن أن تُحفظ رسوم جدارية قديمة. إنها هنا في هذه الملفات.

حيّا مارك عليم بإشارة من رأسه الموظف الصامت الذي أطل من بين الرفوف.

- إن عددها قليل جداً. وهذا ما يجعلها ثمينة أكثر، تابع رجل الأرشيف. والواقع أنها وصلتنا تالفة، لدرجة لم نستطع معها أن نكتشف إلّا أشياء قليلة. ورغم عمليات الترقيم المتتالية، كتلك التي تجري للجداريات القديمة، فإنها ظلت في حالة من التفكك ودون أي رابط بينها. ولكن هذا لا ينتقص من قدسيتها المستمدة من درجة مساهمتها في تأسيس الدولة. وينزل المفسِّرون الحاليون غالباً إلى هنا، كي يستوحوا الطريقة التي فسِّرت بها.

- أليس كذلك يا فوزول؟ قال مخاطباً الموظف.



Twitter: @ketab_n

- هذا صحيح. فليلة أمس ظل عدد منهم هنا حتى ساعة متأخرة من الليل.
- مفسِّرون من قسمنا؟ سأل مارك عليم.
- من قسم الحلم ـ الرئيس. هل تعمل هناك؟

احمرّ وجهه وأجاب:

- لا. أعمل في التفسير.
- يبدو أن المكلفين بالحلم ـ الرئيس كانوا في كل مكان ليلة أمس. قال رجل الأرشيف بصوت ظن مرافقه أنه يحمل معنى مضمراً. ثم توجّه للموظف: شكراً يا فوزول. وخرج في المقدمة.
- من الصعب أن نفهم أي شيء من هذه الأحلام الأثرية حتى بعد أن رممت، استأنف كلامه متوجهاً إلى مارك عليم. لقد سبق أن رأيت بعضها، وبدت لي ممحية، كتلك السجادات القديمة التي لم نعد نستطيع أن نتبين عليها أية رسوم. ومع ذلك فإن المفسرين يمضون ساعات وساعات وهم منكبون عليها. (وضحك في سرّه) لكنني أقبل أن أعلّق على مشنقة إذا كانوا يفهمون منها شيئاً! ويظلون هنا يضيِّعون وقتهم وجهدهم. ويتظاهرون بأنهم يعملون فكرهم في اكتشاف المعاني الخفية. بينما هم في الحقيقة لا يفكرون إلّا في همومهم العائلية الصغيرة، أو في علاجهم غير المكتمل، أو في أشياء أخرى... آه.. ها هو أخيراً قسم الأحلام ـ الرئيسة.

ارتعش مارك عليم، وكأن الآخر على عشّ أفاع ـ مع فارق أن هذه قد نفثت سمّها منذ أمد بعيد ـ ومع ذلك فإنها لا تبدو أقل خطورة.



Twitter: @ketab_n

- يوجد منها حوالي أربعين ألفاً، قال رجل الأرشيف وهو يتنهّد: الله!

وتنهد مارك عليم هو أيضاً.

- والآن... تعال نَرَ أحلام السلاطين.

كان مارك عليم قد توقّع أن يدخل إلى قاعة مهيبة، متميزة، لكنه وجدها كالأخريات. فقد كانت الرفوف وكل ما تبقى شبيهة بما في الغرف الأخرى مع فارق واحد هو أن الملفات تحمل على غلافها شارة السلطان. وفوقها اسم كل سلطان: نوم السلطان مراد الأول، نوم السلطان بايزيد، نوم السلطان محمد الثاني، سليمان القانوني... إلخ...

- لا يمكن فتح هذه الملفات إلّا بأمر السلطان. قال الرجل، وأي شخص يخالف هذه القاعدة يُقطع رأسه. (ووضع كفَّه المفتوحة على عنقه).

بعد ذلك دخلا إلى قاعات أخرى جمعت فيها أحلام (الجيا أورس)، أي المسيحيين، أحلام العبودية العميقة، الضيق والقلق، التي تملأ ثلاث غرف كبيرة ثم الهذيان ـ ولطالما دار النقاش حول ما إذا كان يجب تحليل هذه في سرايا طابير ـ ثم أحلام المغتربين في القاعة الأخيرة.

- الآن أعتقد أنك كوّنت فكرة عما هو عليه قسم الأرشيف، قال له الرجل وهما يغادران هذه الغرفة الأخيرة.

نظر إليه مارك عليم بعينين تلتمسان الشفقة. ثم عادا باتجاه الرفوف التي تحمل ملف حرب (كوسوفو) وهناك افترقا بعد أن قال له رجل الأرشيف:

- عندما تنتهي، اتبع هذا الممر حتى تصل إلى الرواق الدائري،



Twitter: @ketab_n

ومن هناك تستطيع أن تسلك أي اتجاه، فكلها توصلك إلى الدرج.

عرض عليه الموظف المناوب أن يجلس على طاولة صغيرة، وضع عليها الملف المطلوب.

وبأصابع خدرة، راح مارك عليم يقلّب الصفحات الكرتونية القديمة، ذاك النوع من الورق الذي لم يعد يستعمل منذ أمد بعيد جداً. كانت كلها تقريباً ملطّخة بالبقع، وحبرها قد بهت لونه، وعدد كبير من كلماتها غير مقروء. فجأة أحسّ مارك عليم بلمعة في رأسه، وكأن ضربة فأس قد أصابته. وأحس كأن رف ذباب يتطاير أمام عينيه، فأغلقهما لفترة كافية للاستراحة، ثم عاد ففتحهما وراح يقرأ ببطء دون أن يتمكن من التركيز. ثمة شيء ما كان يبعد معنى النص عن ذهنه، ويجعله يرتجف ويترجع كصدى صوت رجل الأرشيف تحت قبة الرواق. ومع ذلك فقد كان يجبر نفسه على التركيز. كانت اللغة قديمة، كثير من المفردات غير مفهومة بالنسبة له، والأصعب من ذلك ترتيب الكلمات في الجملة، فقد كان غير طبيعي. . . شلة من المتقاتلين! لكن عليه أن يقنع بما حصل عليه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها إلى نصوص بهذا القِدم، تعود إلى خمسة قرون. وشيئاً فشيئاً، أخذ إحساسه بالرضى لفهمه بعض الأشياء هنا وهناك، فيما يحلّله.

كانت أكثر الأحلام موصوفة باختصار شديد، بسطرين أو ثلاثة، بعضها بسطر واحد، مما جعل مراجعة الملف على غير ما توقّع من الصعوبة.

ولولا التفسيرات المكتوبة تحت النصوص، لما استغرقت قراءتها كلّها إلا بضع ساعات.

وبشكل غريب، أحسّ مارك عليم بتعبه يتبدد، وأخذت عيناه


Twitter: @ketab_n

تعتادان على هذا النمط من الأحرف، الذي لم يعد مستعملاً منذ وقت طويل. وأصبح ترتيب الكلمات المبعثر يجذبه. وتدريجياً، كان سهل (كوسوفو) في ألبانيا الشمالية، الذي لم تطأه قدماه قط، ينبسط في خياله، رؤية حلمية، غامضة. كما يكون عليه مشهد بيئي تصورته عدة مئات من الأدمغة الناعسة. وكأنما ذلك لا يكفي، فإذا بهذه الرؤى الضبابية، المفرغة من المعنى، تستتبع بتفسيرات تجعلها أكثر أثيرية. ومع ذلك، فإن هذا النتاج المشترك لمئات الأدمغة الناعسة كل في زاويته، هذه اللوحة المبرقشة تمثِّل وحدة غريبة. ربما، بسبب القلق المشترك لدى الحالمين، فجر ذلك اليوم المشؤوم.

وربما أيضاً بسبب القلق المشترك لدى الذين كلِّفوا بتسجيل هذه الأحلام على عجل.

قبل الفجر... عندما لم يكن قد رطّب السهل بعد إلّا الندى، وعندما كان الجند ما يزالون في غفوتهم، ملأت السهل سيول كبيرة من دم تخثَّر وكمد لونه مع حلول النهار وفي البحيرات الأكثر قدماً، كانت تنصبّ جداول من دم جديد، ذي لون أزهى، أخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى القتامة، لكن ليس إلى الدرجة التي تجعله يختلط مع القديم. ثم كانت نهاية القتال مع الغسق، وهزيمة البلقانيين، واغتيال السلطان في اللحظة التي كان ينعم فيها بانتصاره. ثم الخيمة التي حملت إليها جثة السلطان القتيل، الذي أخفي نبأ موته عن الجيش، واجتماع الوزراء، كلجنة صغيرة، وأخيراً الرسول الذي ذهب إلى أحد ولدي السلطان: يعقوب شلبي: تعال، إن والدك العظيم يطلبك... الأمير الذي يتقدم نحو الخيمة، حيث يظن أن أباه ينتظره، دخوله إليها، واغتياله، بكل برود، بضربات فأس، على يد الوزراء الذين كان كل همّهم تفادي الصراع على السلطة بينه وبين أخيه.



Twitter: @ketab_n

فرك مارك عليم عينيه ليزيح عنهما الشعاع الذي يغطيهما. ما هي إذن الحقيقة؟ وهل يمكن اكتشافها، ما دامت أسسها تتجذّر في الحلم؟ خاصة وأنه ليس هناك حد دقيق محدد يفصل بين الحلم والواقع! وإن كل ما شكّل ملامح ذلك السهل ـ الطوبوغرافيا، تقلّبات الطقس، الأحداث، المشاهدات ـ قد تشابكت. أما الأرواح البيضاء لثلاثمائة ألف بلقاني، فقد شكّلت، في لحظاتها الأخيرة، قبل مغادرتها لهذا العامل، مظراً ثلجياً هائلاً، يتطاير، ويتطاير في جو الأرض، لماذا يعدو السلطان الكبير تائهاً وسط عاصفتها الجنوبية، وكأنه كان يريد أن يهرب معها؟ إلى أين تذهب هكذا يا سيدي السلطان؟ تمالك نفسك! هتف في نومه الجندي الإنكشاري سليم، الذي ذهب مسرعاً عندما صحا، ليروي حلمه.

وعلى مسافة منه، كان السلطان المدمّى، يعقوب شلبي، يركض عبر السهل تحت شكل حصان مقصوص العرف.

ومن جديد، أنهار من الدم، الصيف والشتاء، الفصول ممتزجة، المطر والشمس، الثلج والخضرة، الزهور والخواء الشتوي... كل شيء يختلط في هذا السهل.

كان يجب أن تمطر أسابيع كاملة، ربما أشهراً كي تغسل كل هذا الدم. كما كان يجب أن يأتي الثلج الكثيف ويغطي كل شيء كي تبدو هذه المأساة مغطاة... لكن... في الربيع التالي، عندما تستأنف السواقي جريانها عبر الغطاء الأبيض النقي، فستجرف معها قطعاً من دم متجمّد، كأنما الثلج نفسه كان قد جرح. وهكذا، يا الله! إنه في وقت ما، شتاءً أم صيفاً... تحت المطر الأخرس أو الريح، هذا السهل، هناك في ألبانيا الشمالية.

تذكّر مارك عليم فجأة أنه مدعو إلى العشاء، مع أمه، هذه الليلة


Twitter: @ketab_n

عند الوزير. إنه العشاء التقليدي الذي يستمع خلاله إلى أناشيد (الرابسود) القادمين من البلقان. ومن المؤكد أنه سيكون هناك هذه المرة إضافة إلى البوسنيين، (الرابسود) الألبان الذين دعاهم (كورت).

أقفل الملفات ونهض. كان رأسه يؤلمه لطول ما قرأ. وربما بسبب رائحة الفحم التي تشم في القبو، أكثر منها في الطوابق العليا. وبإشارة من رأسه حيّا الموظفين المناوبين وخرج. وكان صوت خطواته يترجع في الرواق. كم الساعة الآن؟ لم تكن لديه أية فكرة عن ذلك. هناك في الأعلى يمكن أن يكون الوقت وقت الغداء، أو ما بعد الظهر، وربما المساء. وتملّكه القلق للحظة: ماذا لو كان قد تأخر عن العشاء؟ لكنه طمأن نفسه. لا يمكن أن يكون الوقت قد مرّ بهذه السرعة. كان يبدو له أن هذا العشاء ينتمي إلى عالم آخر، يقع في مكان ما، في الأعلى تماماً، في الغيوم تقريباً، بينما تنتصب على يمينه، ويساره، جدران الأروقة الصمّاء، التي يرقد وراءها، في آلاف وآلاف الملفات، كل نوم العالم. وأحس بجفنيه يثقلان، وتساءل: ما الذي يصيبني؟ ماذا يكون هذا النعاس الذي يتسلل إلى كل عضو من أعضائه؟ ارتجف رعباً، ثم لم يلبث أن طمأن نفسه: إنه تأثير الغازات المتصاعدة من الفحم... إيه! ماذا تفعل هناك وحدك؟ لماذا لا تنضم إلينا؟ ففي هذه الجهة يتواجد أكثرنا...

حثّ مارك عليم الخطى، كي يفضي بأقصى سرعة إلى الممر الدائري، لكنه لم يكن يظهر له. وكلما كان يتقدم، كان يحس بأنّه يتيه.

وكاد ينهار. فماذا لو غلبه النوم في هذه الممرات المهجورة؟ ومن جديد أحس بجفنيه يثقلان كالرصاص وتساءل: ما الذي جعلني أنزل إلى هنا؟

ضاعف سرعته، ثم أخذ يركض. كان صوت خطواته،


Twitter: @ketab_n

المتضاعف صدى، يزيد في رعبه. وكان يأمر نفسه قائلاً: لن أنام! لا، لن أقع في فخّكم!

الله وحده يعلم كم من الوقت كان سيستمر في هذا العدو المجنون، لولا أن رجلاً برز أمامه فجأة، عند أحد التقاطعات:

- ماذا هناك؟ سأل الرجل بقلق، ماذا حصل؟
- لا شيء! أين باب الخروج؟
- لكن قل لي، أنت شاحب تماماً. هل عرفت ما الذي حدث؟
- ماذا حدث؟ أنا أفتش عن باب الخروج.
- سألتك ما إذا كنت على علم بشيء، فوجهك بلون الرماد.
- ربما بسبب الفحم...
- ذاك إنني، عندما رأيتك، ظننت...
- من أين الخروج؟
- من هنا.

فكّر مارك عليم أن يقول له:

- أنت أيضاً شاحب الوجه، فلماذا فاجأك شعوري هكذا؟

لكنه لم يكن يرغب في أي تأخير هناك، حتى ولو للحظة واحدة. حسبي أن أخرج من هنا بأسرع ما يمكن ـ تحسّر في سرّه ـ أن أصعد من هذه البئر!

أخيراً، ظهر له الدرج، وراح يقفز درجاته ثلاثاً ثلاثاً، أربعاً أربعاً، حتى وصل إلى الطابق الأرضي لاهثاً. أحس أنه سمع ضجة، فاستدار، وتعجّب إذ رأى مجموعة من الرجال الذين يرتدون أوشحة طويلة، يختفون فجأة في آخر الممر.

في الطابق الأول التقى مجموعة أخرى من الأشخاص المتجهّمين. ومن آخر الرواق كانت تُسمع ضجة خطى. ماذا تكون إذن


Twitter: @ketab_n

هذه الحركة الذاهبة الآيبة؟ وتذكّر الرجل الذي التقاه في رواق الأرشيف. فأحسّ بأن شيئاً من يحدث في داخل القصر. وأسرع في سيره كي يبلغ قسم التفسير. وعلى نعم النقرات الحزينة التي كانت تفترش الزجاج، أدرك أن النهار بدأ يرحل.

- أين ذهبت؟ سأله زميله على الطاولة المجاورة ـ أين كنت طوال النهار؟

- كنت في الأرشيف.

بحلق الآخر عينيه، قبل أسبوع فقط أجلسوه هنا، إلى جانب مارك عليم، لكن الأسبوع كان كافياً لإقناع هذا الأخير بأن جاره مولع بالتّطفل، واكتشاف الأسرار، خاصة ذات الطابع السياسي، التي لا تقال إلّا وشوشة في الأذن، الممنوعة والخطرة، حيث إن المخاطرة هي التوابل التي تجعلها أطيب مذاقاً.

ومن الممكن أن نستغرب جداً كونه لم يعرف بعد أنه من آل كوبريللي.

- ثمة شيء ما يحدث. قال وهو يحني جذعه كليّاً إلى جهة مارك عليم. ألم تحسّ بذلك؟

رفع مارك عليم كتفيه واكتفى بأن يجيب:

- أجل، لقد لاحظت جيداً حركة ما في الممرات. لكنني لا أعرف شيئاً أكثر.

- لقد استدعي رئيسنا ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يعود والخوف على وجهه. وللتو، استدعي للمرة الرابعة ولم يعد بعد.

- ماذا يمكن أن يكون الأمر؟

- وهل لنا أن نعرف أبداً؟ يمكن أن يكون أي شيء.

فكّر مارك عليم في أن يحدّثه عن الرجل ذي الملامح المرتعبة،



Twitter: @ketab_n

الذي لاقاه في الأرشيف. لكن هذا لن يكون من شأنه إلّا أن يغذّي موج الوشوشات بينهما. وعاد إلى ذاكرته حديث رجل الأرشيف عن المكلّفين بالحلم ـ الرئيس وعمليات البحث التي استغرقتهم طوال الليل. إن شيئاً ما قد حدث.

- يمكن توقّع أي شيء ـ تمتم جاره دون أن يدير وجهه نحوه، وكانت كلماته تخرج من طرف شفتيه، كأنما ليحدِّد لها الاتجاه المعيّن ـ كل شيء يمكن أن يحدث من عزل الموظفين إلى إغلاق القصر نفسه.
- إغلاق (سرايا طابير)؟
- ولمَ لا؟

هذه البلبلة... هذه الحركة المشبوهة ذهاباً وإياباً في الممرات... منذ سنوات وأنا أعمل هنا، وقد انتهيت إلى معرفة عادات القصر، لكن مسار هذا اليوم لا يبشِّر بالخير... بعد نهار كهذا يمكن توقّع كل شيء.

- هل حصل أن أغلق السراي سابقاً؟ سأل مارك عليم بصوت مرتعش.
- هم... أي سؤال! همهم الرجل وهو يصرّ أسنانه. ستكون مأساة لنا جميعاً إذا ما وصلنا إلى هنا!... والواقع أنني كنت شاهداً على بعض المراحل القاتمة، التي علّق فيها السلطان، بمرسوم خاص، استقراء الأحلام في (سرايا طابير). لكن هذا لم يحدث إلا نادراً... بل نادراً جداً هل تفهم؟ وفي هذه الحالة، وحدها أحلام السلطان هي التي تؤخذ بعين الاعتبار. وعندها يكون (سرايا طابير) في شبه حالة حداد. حتى لتظنّه ركاماً يتيه فيه الموظفون عبر الممرات، كأرواح معذّبة. ويبدو كل شيء على


Twitter: @ketab_n

حافة الانطفاء، على وشك لفظ النفس الأخير. وكلهم لا ينتظر، وقد تجمّدت دماؤهم، إلّا الإغلاق الكامل. إذ ليس بين حالة الحداد هذه، والإغلاق إلّا خطوة واحدة...

أحسّ مارك عليم بكتلة من القلق والضيق تتصاعد من معدته إلى حلقه. وتذكّر بشكل غامض عبارات الوزير.

أليس هذا الاحتمال هو ما أراد إثارته دون أن يريد تحديد فكرته وتوضيحها أكثر؟

كان جاره مستمراً في ثرثرته، لكنه لم يعد يستمع إليه أبداً. وكان صدغاه ينبضان حتى يكادا ينفجران، وأفكاره تختلط بضبابة مبهمة...

لقد فهم (على ما يظن)، من خلال تلك الأحاديث الطويلة حول (سرايا طابير)، ومن خلال لقائه الغامض الأخير مع الوزير، أنه كلما ساءت الأمور بالنسبة إلى (سرايا طابير)، تحسنت بالنسبة لآل كوبريللي. وعليه يفترض أنه كلّما بدا هذا النهار أكثر شؤماً للطابير، أصبحت لديه ـ على العكس ـ أسباب أخرى للابتهاج، لكن الأمر لم يكن كذلك في شيء. ولم تثر حالة القلق التي كانت تحيط به أي فرح في داخله، بل إن كل ما فعلته أن جعلته يرتجف أكثر.

أصاخ السمع إلى همهمات جاره، لكنه لم ينجح في أن يفهم منها أقل لفظة. فقد كان الآخر يتمتم كأنما يكلّم نفسه.

وتذكّر ذلك اليوم الذي سأل فيه جدّته:

لماذا تتحدثين يا جدتي بصوت عالٍ؟ وأجابته: كي لا ألعب دورين يا صغيري، إنني وحدي...

وأحسّ مارك عليم بالرغبة في أن يتنفّس بقوة هو أيضاً، كما كانت جدته في الماضي... لقد كانا وحيدين تماماً، أمام هذه


Twitter: @ketab_n

الطاولات الباردة التي تنتشر عليها هذه الرؤى شبه الجنونية، لأدمغة مجهولة، دون أي رابط بينها...

- لكن لماذا؟ قال مارك عليم، مقاطعاً بصوت يكاد لا يسمع، تمتمه الآخر، لماذا يحصل هذا؟

- لماذا يحصل هذا؟ (وأحسّ أن زاوية فم جاره، الملوية، ترشقه بدفعة من الابتسامات الساخرة الجليدية...) يا إلهي كيف يمكن أن نطرح السؤال: لماذا؟ بين جدران هذا القصر. هل يمكن أن تعرف أبداً (لماذا الأشياء) هنا؟

تنهّد... وكان الزجاج الذي أصبح معتماً تماماً، ينبئ بأن الليل قد هبط كليّاً. وضوء المصابيح يضيء قليلاً الجبهات المنحنية فوق الطاولات.

- هه. هاك الرئيس. لقد عاد أخيراً.

نظر مارك عليم في الاتجاه الذي أشار إليه جاره. وعلّق بصوت خافت:

- أنا لا أجد وجهه شاحباً إلى الحد الذي وصفت.

- آه؟ تساءل الآخر... ثم أضاف بعد برهة صمت: في العمق، أنت محق. يبدو لي أنه لم يعد كذلك. عسى أن تكون الأخبار سارّة.

وأحسّ مارك عليم بالضيق يعتصر معدته وقال:

- بل يبدو عليه الابتهاج.

- لن أذهب إلى هذا الحد. لكن أساريره أكثر تفتُّحاً، على أية حال.

- أتمنى بحرارة أن ينتهي هذا النهار! قال مارك عليم وعيناه تتركزان على رئيسه، وأعتقد أنه ميّز في نظرته وميضاً ملتهباً جعله يضيف: اللّهم احمنا!..

- النهار سينتهي... أما نحن... فهل سنستطيع الذهاب؟



Twitter: @ketab_n

- كيف؟

- في أيام كهذه يحدث أن نمضي الليل هنا.

تذكّر مارك عليم أنه مدعوّ هذه الليلة عند الوزير، وكاد يبوح بذلك لجاره، على أية حال ـ قال في فكره ـ سوف أستأذن في الذهاب. وهل سيجرؤون على منعه من الذهاب إلى خاله المتنفِّذ؟

فرك جبينه براحته، وتساءل: وإذا لم يكن هذا كله إلّا ثمرة خيال مجنّح؟ وفي النهاية، إنها ليست سوى افتراضات لا ترتكز إلى أية وقائع ملموسة. مجرّد أناس في الممر... وجه الرئيس المنقبض، والمتفتح، يا للشيطان، كيف يمكن أن نبني على مؤشرات كهذه؟! لقد كان جاره مجنوناً. فكيف ترك نفسه ينقاد إلى هذيانه؟

انتفض إذ سمع صوت الجرس، معلناً التوقف عن العمل. وعندما التقت عيناه بعيني جاره كاد يقذف في وجهه: أيها الأبله! لقد أحرقت دمي دون سبب. هذا نهار ككل الأيام، وهذا هو الجرس يقرع في الساعة المعهودة. ما الذي جرى لك، أيها الغبي كي تضربني بهذا الهلع؟

كان جاره أوّل من أغلق ملفه، وألقى إليه بنظرةٍ تقول: اذهب بسرعة، ولا تسأل عن شيء! فلقد فعل هو نفسه كذلك بسرعة كليّة. وتبعه مارك عليم. كانت الممرات والأدراج تزخر بالموظفين. وكان وقع الخطى الأخرى، الرتيب، يبدو وكأنه يهز المبنى حتى أعمق أساساته. وأحسّ وهو يدسّ خطواته بين خطى الجمهور بالعزاء الذي يحسّه الخائف إذ يضيع في حشد من الناس. ولمرتين أو ثلاث، كان يحسّ بأنها نهاية يوم عادي، لكنه لا يلبث أن يعود فيشعر بالعكس تماماً.

وبطرف عينيه راح يتفرّس في وجوه الناس، ظناً منه بأنه سوف



Twitter: @ketab_n

يكتشف في وجناتهم مظاهر حمى، ما هي إلا انعكاس لتوهج مخفي في أعمق جماجمهم. ليس مجرد إثارة تافهة، بل هو غليان نفاد الصبر، في انتظار المجهول. هراء! قال لنفسه بعد قليل: لا يوجد شيء من هذا على هذه الوجوه التي أذبلها التعب وهذيان الأحلام. إنها أعصابي أنا التي تنهار...

بعد أن اجتاز عتبة البوابة الخارجية، انفصل عن حشد الموظفين، وبقدر ما كان يبتعد عنهم، كانت تصوراته تبدو له عبثية أكثر. إن هذا المهووس هو الذي جعلني أقلق كالأحمق ـ قال لنفسه ـ والحقيقة أن المشهد الذي دار بينهما كان كوميدياً من الدرجة الأولى.

وتطلّع يبحث عن عربة تقله بسرعة إلى منزله. فقد كان حريصاً على ألّا يتأخر عن العشاء. وأشار مرتين أو ثلاثاً بيده، لكن العربات لم تتوقف. إما لأنها لم تره أو لأنها كانت مشغولة. ولم يكن مارك عليم من ذلك النوع الذي ينادي عالياً: هيه... أيها الحوذي! كان يفضّل أن يتابع ماشياً، تحت المطر أو الثلج، على أن يشد الانتباه إليه. ولحسن حظّه، كان الرصيف في تلك الليلة شبه خالٍ من المارة، مما سمح له بأن يمشي بسرعة أكثر، وفكّر بأنه لو أن الطريق تكون هكذا حتى البيت، فإنه سيجد وقتاً كافياً لتبديل ثيابه، وربما لأخذ حمّام، قبل العشاء.

كان غارقاً في تأملاته مما كاد ينسيه مخاوفه الداخلية، عندما سمع شيئاً ما، شيئاً لم يتحقق هو نفسه، للحظته، من ماهيته: صرخة مفاجأة، خطوة طارئة، وشوشة قريبة؟ جعله يرفع رأسه وينظر باتجاه الطريق. كانت هناك دوريتان قد نصبتا في وسطه يتفحّص أفرادها المارّة بنظرة شك، ما الذي يجري؟ لم يتح له الوقت ليتبيّن أي افتراض، حيث إنه رأى أيضاً دورية أخرى أبعد قليلاً من الأوليين، ثم


Twitter: @ketab_n

رابعة بعدها. هناك جنود في كل مكان، والقلق الذي اعتقد أنه تخلّص منه عند خروجه من قصر الأحلام يمتلكه من جديد. المارة الآخرون، يرقبون الدوريات، من طرف عيونهم. وبعضهم يلتفت إلى الوراء، حتى بعد أن يبتعد، لينظر إليها مرّة أخيرة.

لكنه بعد لحظات، قطع فيها جزءاً آخر من الطريق دون أن يرى أية بدلات عسكرية أخرى، قال في نفسه: قد لا يكون هذا إلا صدفة؟ ربما لم يكن هذا إلّا صدفة؟

كان الناس يدخلون ويخرجون من وإلى المقاهي الصغيرة المنثورة على امتداد الشارع، دون أن تلاحظ أية إشارة خطر. هذا أيضاً مقهى (ليالي رمضان) حيث تسمع الموسيقى، كالعادة. أجل ـ قال في سرّه للمرة العاشرة ـ إنها بالتأكيد مجرد صدفة! ثم ألم يسبق له أن شاهد في مرات أخرى، دوريات في هذا الموقع؟ بل إنه يذكر أنه شاهدها تستوثق من بطاقات هوية المارّة.

أجل. واضح أنها صدفة ـ كرّر لنفسه ـ خاصة وأن البنك المركزي قريب جداً. من يدري فقد يكون هناك تخوّف من سطو مسلّح. أو ربما لا يكون الأمر إلا تدابير أمنية احتياطية بسيطة...

أمام وزارة المالية، أحس مارك عليم بأن عدد الحراس مضاعف، لكنه لم يجرؤ على أن يدير رأسه، ليتأكد من ذلك. كانت المصابيح ترسل ضوءاً شاحباً، وهمهم غاضباً:

فليذهبوا إلى الجحيم! دون أن يدري إلى من يوجّه هذه اللعنة. وعادت تلك الرجفة التي كان قد جهد للسيطرة عليها تمتلكه من جديد. وعندما وصل إلى أمام قصر شيخ الإسلام تأكد أن شيئاً في هذا الهيجان غير المألوف لم يكن من قبيل الصدفة. وأن أمراً هاماً يحدث حقاً.



Twitter: @ketab_n

فقد كانت هناك ثلة كبيرة من الجند والشرطة (حوالي نصف كتيبة)، محتشدة أمام الدرابزين الحديدي. ثمة شيء يحدث ـ تمتم قائلاً ـ شيء ما... لكن ما هو؟ مؤامرة؟ محاولة انقلاب؟ حالة طوارئ؟ أراد أن يسرع خطاه، لكنه كان عاجزاً عن ذلك، فقد شلّ القلق ساقيه. أسرع ـ أمر نفسه تكراراً ـ لكنه كان يحسّ أن كل جهده عبث. فكّر في حفل العشاء، وفي هذا التقليد القديم، الذي بمقتضاه لا يلغى عشاء مثله أبداً عند آل كوبريللي.

على جسر (كرواسان)، رأى من جديد جنداً بخوذاتهم، لكنه كان قد أصبح في وضع نفسي لم يعد معه شيء يؤثّر، تفاقماً أو تخفيفاً. ها هو يبلغ أخيراً شارعه، بشجرات كستنائه القاتمة، التي يرى من خلالها أضواء الطابق الأول من منزله. ومن بعيد استطاع أن يميّز أمام الباب، شكل سيارة ميّز على بابها، عندما اقترب أكثر، حرف (ك). تنفّس الصعداء مطمئناً، ودخل.

* * *


Twitter: @ketab_n

# VI

## العشاء

حرصاً منه على عدم إقلاق أمّه، امتنع مارك عليم، في البداية، عن إطلاعها على مخاوفه، لكنه لم يتمالك نفسه، بعد ساعة، عندما صعدا معاً إلى السيارة، في الطريق إلى منزل الوزير، فبادرها:

- ثمة حركة غير عادية سادت جو القصر هذا اليوم.
- كيف؟ صاحت وهي تقبض على يده، حركة... خضّة؟ لماذا؟
- لم أستطع أن أعرف شيئاً محدداً، لكنني لاقيت في طريق عودتي عدداً كبيراً من الدوريات.

أحسّ بيد أمّه ترتجف فوق يده، وندم بسرعة لأنه تكلّم.

- لكن... قد لا يكون في ذلك شيء ـ قال لها مطمئناً ـ ربما لم يكن إلّا ضوضاء فارغة.
- وماذا سمعتهم يقولون؟ سألته بصوت مخنوق.
- أوه. تفاهات أجابها جاهداً في اصطناع لهجة لامبالية ـ يبدو أن السلطان قد أعاد الحلم ـ الرئيس ليوم أمس. لكن ربما لا يكون ذلك صحيحاً، وقد يكون لهذا الاضطراب سبب آخر تماماً.

وبدت لهما قرقعة العجلات، التي تقطع الصمت، شيئاً لا يطاق.



Twitter: @ketab_n

- إذا كان صحيحاً أن السلطان قد أعاد الحلم ـ الرئيس، فليس ذلك دون أهمية. قالت الأم.
- لكنني أؤكد لك أنه قد لا يكون في كل ذلك شيء من الخطورة.
- إذن فالأمر أسوأ. فهذا يعني أن ما يجري مقلق أكثر.

كان عليّ ألا أحدثها بشيء ـ فكّر مارك عليم في ذاته ـ.

- ولكن. ما الذي يمكن أن يكون، ويكون مقلقاً أكثر؟ سألها بذات اللهجة المستخفة. تنهّدت الأم وقالت:
- هل نستطيع أن نعرف؟ أنا لا أعرف الكثير عن أعمالكم هناك. أنت نفسك حدثتني عن أخطاء تحدث في التفسير، عن اتهامات مفاجئة، مارك، قلْ لي الحقيقة: هل تكون متورطاً في قضية قذرة؟

جهد في أن يضحك قبل أن يجيب:

- أنا؟ أنا لست على معرفة بأي شيء، أقسم لك. لقد أمضيت نهاري كله، هذا اليوم، في الطابق الأسفل، في الأرشيف. ولم أسمع بأن شيئاً يحدث إلّا بعد أن صعدت من هناك.

من خلال قرقعة العجلات، سمع أمَّه تتنهّد بعمق مرة أخرى، وتمتم: اللّهم احمنا! حمانا الله!

من وراء زجاج العربة، كان يكاد يميِّز، على ضوء القناديل الشاحب، المباني القاتمة من على جانبي الشارع، وندرة من المارة هنا وهناك...

وإذا كان حفل العشاء قد منع؟ قال مارك عليم في نفسه. وراحت هذه الفكرة تلحّ عليه أكثر، كلما اقتربا من منزل الوزير. لكنه عاد فطمأن نفسه: إنه شيء مستحيل بالقدر الذي يرتبط به، بملحمتهم العائلية، أي الأسس الأرستقراطية لسلالة كوبريللي. لا يمكن قطعياً


Twitter: @ketab_n

تأجيله. والواقع أنه لم يكن يعرف تماماً ما إذا كان هو نفسه يتمنى إلغاء الحفل أم لا، ولكن أياً يكن الأمر، فقد أحسّ بالاطمئنان والعزاء، إذ رأى أنوار القصر، وسيارات الضيوف المتوقفة أمامه، على امتداد الأرصفة. وأحسّ أيضاً أن أمّه قد تنفّست بعمق، هي أيضاً، وكأنها تحررت من حمل كان يثقلها. ها هم حرس الوزير على البوابة الحديدية، وكل ما تبقى على ما يكون عليه عادة في أمسيات الاستقبال الكبرى: الشمعدانات المتألقة على جانبي الممر المؤدي من البوابة إلى درج المدخل، القهرمان على المدخل، وعطر شراب النعناع يفوح من الداخل. وعلى الفور تكوّن إحساس بأن قلق هذا النهار المنتهي، لم يكن من طبيعته أن يتمكن من عبور عتبة القصر.

دخل مارك عليم وأمّه إلى الصالة الكبيرة، حيث كان منقلان فضيّان كبيران، في وسطها، ينشران دفئاً هادئاً، يتزاوج مع لون السجاد الأحمر الغامق، ومع نغم الحديث الدائر...

كان هناك بعض أبناء أخواله، من أصحاب المناصب العليا، وعدة أصدقاء قدامى للعائلة، ابن قنصل النمسا، وشاب طويل القامة، أشقر الشعر، كان كورت يحدِّثه بالفرنسية، ومدعوان أو ثلاثة ليس لمارك معرفة بهم. سمع أمّه تسأل أحد الخدم بصوت منخفض، عن الوزير، ويجيبها بأن سيده في الطابق الأعلى، ولن يتأخر في النزول. أحسّ مارك بأن نفسه قد هدأت، وبأن ذلك القلق الثلجي، الذي جعله يرتعد طوال آخر هذا النهار، كمن أصابته برودة مؤذية، قد تبخّر من جسده.

كان الخدم يقدمون العرق في كؤوس من الفضة. ومن خلال أصوات الأحاديث كان مارك يحاول جاهداً أن يلتقط ما يدور بالفرنسية بين كورت والشاب النمساوي. وبعد أن سكب كأساً من


Twitter: @ketab_n

العرق في جوفه، دفعة واحدة، أحسّ بموجٍ من المرح يغمره. وعندما التقت عيناه بعيني أمّه، حوّل نظره بسرعة فقد كانت نظرتها كأنما تقول له: ما هي إذن هذه الترهات التي كنت تشغلني بها للتو؟

بدخول الوزير، تجمّد الجو في قاعة الاستقبال. ولم يكن ذلك بسبب مظهره المتجهّم، فهو مألوف بالنسبة لأكثرية الحضور، وإنما بسبب شرود كان يتبدى على ملامحه، وكأنه يستغرب أن يراهم جميعاً هنا، وينتظر منهم أن يخبروه عمّا جاؤوا يفعلون. بعد أن سلّم عليهم، ظل برهة منزرعاً أمام المنقل، باسطاً كفّيه فوق الجمر، كأنما ليدفئهما، وبدت تجاعيده لمارك عليم أكثر بروزاً مما كانت عليه في المرة السابقة، ليلة لقائهما المشهود.

وإذ أحسّ كورت بأن عليه أن يتدخل لإحلال جو طبيعي في مطلع هذه السهرة فقد تقدم من أخيه وأسرّ في أذنه بشيء لم يتمكن مارك من التقاطه، لكنه كان متعلقاً بالنمساوي، إذ إن الوزير قد أجابه وهو يتوجه مباشرة لهذا الأخير، الذي راح يحك رأسه باحترام، بينما يترجم له كورت كلام أخيه الأكبر، أخذ المدعوون ينقسمون اثنين اثنين، بينما الوزير يتابع حديثه مع النمساوي، وكورت يقوم بالترجمة لهما.

أراد مارك عليم أن يقترب ليستمع إلى الحديث، لكن أحد أبناء أخواله، الأصلع الذي تعشّى عنده غداة تعيينه في قصر الأحلام، تقدم منه وسأله بصوت خافت:

- كيف يسير عملك في الطابير؟
- جيد. أجاب مارك عليم، لكنه زم شفتيه في تعبير يقول: بين بين.
- أنت تعمل الآن في التفسير؟

أشار برأسه أن نعم، ولمح في عيني قريبه بريقاً ساخراً، لكنه لم


Twitter: @ketab_n

يأبه له. فلم يكن هناك ما يجذبه في هذه السهرة، كخاله المفضّل كورت: لم يره يوماً بهذا الجمال، وبهذه الأناقة، بقبّته البيضاء المنشّاة، التي تعكس على وجهه ألقاً ساحراً.

والحقيقة أنه اقتنع منذ البداية، بأنّ محور هذه السهرة ما هو إلّا كورت نفسه، لأنه هو صاحب الفكرة الغريبة بدعوة الرابسود الألبان. كان صبره يكاد ينفد لسماع ملحمتهم التي ظلّت مجهولة لهم حتى الآن، كالوجه الآخر للقمر.

دخل أحدهم معتذراً عن تأخّره، وكان واضحاً أنه آخر المدعوّين:

- إن اضطراباً ما يخيّم في الخارج، وقوى الأمن تدقق في بطاقات الهوية.

اتّجه بعض المدعوين بأنظارهم إلى الوزير، لكنه بدا وكأن هذه الكلمات لم تلامسه قط. إنه يعرف ولا شك ما الذي يجري ـ فكّر مارك عليم ـ وإلّا ظلّ لامبالياً أمام خبر كهذا. كان يبدو عليه وكأنه لم يلحظ وجود ابن أخته، وكأنه نسي تماماً ذلك الحديث الذي دار بينهما، ذات مساء قبل بضعة أسابيع. وقبل ساعة فقط، كان مارك عليم يفكّر في أن يروي لخاله ما حصل في (سرايا طابير).

ألم يحن الوقت بعد ليأخذ حذره؟

لكنه أصبح يشعر الآن، وهو يراه غير مبالٍ على هذا النحو، بأنه هو الآخر قد اطمأن.

وبهدوء راح يتأمّل رسومات السجادة العجمية الكبيرة، الأكثر جمالاً والأوسع مساحة مما رآه في حياته، هدية السلطان للوزير في عيد ميلاده. إنها واحدة من ندرة الأشياء التي ظلّت تحتفظ بجمالها في


Twitter: @ketab_n

عينيه، بعد أن أصبح العالم كلّه يبدو له باهتاً منذ دخوله إلى (سرايا طابير).

وإذا كان قد حوّل نظره عنها فلأن الصمت الكامل الذي خيّم حوله قد جذبه. لقد اتخذ الوزير وضعية من يريد أن يتكلم، وأعلن لضيوفه أنهم سيستمعون الآن إلى الرابسود القادمين من ألبانيا، ثم يستمعون أثناء العشاء وبعده إلى الرابسود السلاف، الذين سينشدون قطعاً من النشيد الملحمي الخاص بآل كوبريللي.

- دعهم يدخلون. قال الوزير للقهرمان. لحظة، ودخل الرابسود وسط صمت عميق، كانوا ثلاثة، يرتدون أزياء مميَّزة، اثنان متوسطا العمر، والثالث أصغر سناً. وكل منهم يحمل آلته الموسيقية الهزيلة في يده. وعلى هذه الآلة تركّز كل انتباه مارك عليم: (اللاهوتاس) كما تسمى، وهي شديدة الشبه بالـ(غوسلاس) التي يحملها الرابسود السلاف. وأحسّ بذات التعجّب، إن لم نقل بذات الإحباط، الذي كان قد أحسّه يوم رأى الـ(غوسلاس). فبقدر ما سمع عن هذه الأنشودة الملحمية الشهيرة، كان قد تخيّل أن الآلات الموسيقية التي ترافقها، ستكون هي أيضاً غير عادية، مهيبة، فخمة، مخيفة، إلى الحد الذي يجعل الرابسود يجرّونها وراءهم بصعوبة. غير أن الـ(غوسلاس) لم تكن إلّا آلة بسيطة صغيرة، ذات وتر واحد، ويمكن حملها بيد واحدة، بسهولة. وبدا له أنه من غير المعقول أن تستطيع هذه القطعة الخشبية الواهية، التي تحمل وتراً واحداً، أن تثير الحياة في الأنشودة القديمة العظيمة. والآن، وقد رأى الـ(لاهوتاس)، فإن خيبته كانت أكثر حدّة. لأنه كان قد قال في نفسه منذ أن سمع كورت يتحدث عن الملحمة الألبانية، إن اللاهوتاس الألبانية ستمحو الحرج الذي


Twitter: @ketab_n

تركته (الغوسلاس) السلافية، في خياله. ولم يكن يتوقع أن يرى فيها فقط آلة فخمة وثقيلة، بل أيضاً آلة شبه مضرجة بالدماء التي تقترن في ذهنه بقساوة ملحمتهم. غير أنها كانت تقشفية كالغوسلاس: نفس العلبة الخشبية، ذات الفتحة على صفحتها العليا، التي يعبرها وتر وحيد.

الرابسود يقفون الآن بين الصفين اللذين شكّلهما المدعوون تلقائياً. رؤوسهم شقراء، نظراتهم صافية، وعيونهم تبدو وكأنها تنطق برفض كل ما يقدم لهم، وبردّهم له مجملاً.

الخدم يقدمون للرابسود شراب الراكي في كؤوس كتلك التي قدموها للضيوف، لكن الألبان اكتفوا بأن لامسوها بشفاههم.

إذن بإمكانكم أن تبدأوا ـ قال الوزير بالألبانية.

جلس أحد الرابسود على كرسي حمله له القهرمان، وضع آلته على ركبتيه، ثم ظل برهة صامتاً ونظره مركز على وترها. بعد ذلك تحركت يده اليمنى ترفع الريشة وتخفضها ملامسة الوتر. وجاءت الأصوات الأولى المنبعثة من الآلة، ضعيفة، رتيبة، تحمل نوعاً من الإصرار على العودة إلى نقطة البدء. كانت أشبه بأغنية مأساوية طويلة تضغط على عنقك. وقال مارك عليم في نفسه إنه إذا تابع العازف كذلك قليلاً فإن الجميع سيشعر بالاختناق. فهل سيتأخّر في أن يرفق هذا اللحن المذيب بكلام؟ كان السؤال يرتسم في عيون الجميع. يجب أن تغطى موسيقى كهذه بكلام، وإلّا فإن هذا الوتر سيجرح، بأنينه الممتد، نفوسهم حتى يدميها.

عندما فتح الرابسود أخيراً فمه لينشد، أحسّ مارك عليم بالعزاء قليلاً. لكن صوت الرابسود جاء كآلته، يحمل شيئاً ما قاسياً لا إنسانياً. حتى ليمكن القول إنه خضع لعملية ما، نزعت منه كل النبرات العادية


Twitter: @ketab_n

المألوفة، كي لا يبقى فيه إلا تلك الأزلية. لقد كان صوتاً اتخذ فيه حلق الإنسان وحلق الجبل، منذ أمد بعيد، مزيلين أي تمايز بينهما. ولا بد أنهما اتفقا أيضاً مع أصوات أخرى بعيدة أكثر.. وأكثر، كي يذوبوا جميعاً في أغنية النجوم الحزينة. بل أكثر من ذلك، فإن كلاً من الصوت والكلمات كان يبدو ممكن الصدور من فم الأحياء كما من فم الأموات. لا بد أيضاً، من أن يكون هناك اتفاق وثيق مع الأشباح، وهو الذي يبدو الأكثر متانة، الأكثر اكتمالاً.

لم يكن مارك عليم قادراً على تحويل نظره عن الوتر الدقيق الوحيد، المشدود فوق علبة الصدى، إن هذا الوتر هو الذي كان يذرف الأغنية الحزينة، والعلبة تحته، ترجعها، ناشرة إياها على أبعاد مخيفة. وفجأة أوحي له أن هذه العلبة المجوّفة هي الصدر الذي يضم روح الأمة التي ينتمي إليها. ومنه تتصاعد، مرتجفة، الأغنية المعمّرة الحزينة. لقد سبق له أن استمع إلى مقاطع منها، لكن لم يقيّض له إلّا اليوم أن يستمع إليها كاملة. إنه يحسّ تجويف اللاهوتا هذا، في صميم صدره هو.

أخذ الرابسود الثاني ينشد (موشّح الجسر)، وأحسّ مارك أنه سمع من أعماق الصمت المخيّم، صدى طرقات البنائين الذين يبنون، تحت الشمس الباردة، الجسر المخضّب بدماء الضحية. هذا الجسر الذي لم يكتفِ بأن أعطى اسمه لآل كوبريللي، بل وصمهم أيضاً بقدره السيئ.

ومع أن الضيق كان يخنق صدره، فقد أحسّ فجأة برغبة جارفة في أن يرمي الجزء الثاني، الآسيوي، من اسمه في المهملات (عليم) وأن يحمل اسماً آخر، واحداً من تلك الأسماء التي يحملها الناس في وطنه الأصلي: جون، جرجي، جورج.



Twitter: @ketab_n

ماك ـ جون ـ أورا، مارك جرجي أورا، مارك جورج أورا...
كان يكرِّر هذه الأسماء لنفسه، وكأنه يبذل جهده في التعوّد على اسمه البديل كلما سمع كلمة أورا، الكلمة الوحيدة التي كان يفهمها من نشيد الرابسود.

فجأة، وكحلم تستعيده الذاكرة، خطر في باله، غائماً مشوشاً، ذلك الحلم الذي رآه بائع ما، والذي كان يتحدّث عن آلة موسيقية تسمع أنغامها في حقل غامض. لم يعد يتذكّر التفاصيل، لكنه يذكر فقط أنه أراد في البداية أن يرميه في سلّة المهملات، ثم عاد وتركه يمر. والآن، لديه إحساس مفاجئ بأن تلك الآلة الموسيقية التي وصفها، تشبه اللاهوتاس بشكل عجيب.

كان الرابسود يتابع الغناء بذات الصوت المترجع. وكورت، مشتعل العينين، كمن أصابته حمى قوية، لا يفارقه بنظره. ومن وقت لآخر، يترجم مقطعاً، ربما بيتاً من الأغنية لصديقه النمساوي الذي كان هو أيضاً يستمع بشغف بالغ. أما الوزير فظلّ جامداً. يداه متشابكتان على صدره، وعيناه الغائمتان ترتسم حولهما تجاعيد تزداد تجهّماً أكثر فأكثر. من هنا وهناك كان مارك عليم يلتقط معنى بعض الأبيات، لكن أكثرها ظل مستعصياً على فهمه.

«ولقد وجدت القبر، يا أنت، المرتبط بالـ (Bessa)!»

(Bessa = عهد تقليدي ألباني).

لاشعورياً، تقدّم مارك من الزاوية التي كان يجلس فيها خاله الشاب والنمساوي. كان كورت يجهد في أن يترجم له هذا البيت، وأصغى مارك الذي كان يعرف الفرنسية قليلاً:

ـ ليس أصعب من ترجمته ـ قال كورت ـ بل إنه شبه مستحيل...

لكن مارك كان يحاول جاهداً، بفضل بعض ما توصّل إلى فهمه


Twitter: @ketab_n

بنفسه، من جهة، وبفضل ما سمعه من ترجمة كورت من جهة ثانية، أن يتابع نص الملحمة.

- إنها تتحدث عن شخص حي، يدعو عدوه الميت إلى المبارزة فوق قبره... شيء مرعب أليس كذلك؟ سأل كورت.

- بل رائع. أجابه الآخر...

- والميت، الذي يغتاظ لأنه لا يستطيع أن ينهض، يتخبّط ويئن. تابع كورت تفسيره.

يا إلهي! قال مارك لنفسه فجأة. كل شيء واضح! كل شيء بات ولا أوضح!

إن علبة اللاهوتا هي القبر، حيث يتخبّط الميت. وأنّاته تتصاعد من داخلها، من أسفل، وتثير القشعريرة كما لا يستطيع أي شيء غيرها أن يفعل.

- وها هو الآن البوم. طيور الشؤم هذه. قال كورت بصوت خافت.

مدققاً في كلٍّ من هذه العبارات كان النمساوي يحك رأسه علامة الموافقة.

- هذا هو الشهم (زوك) الذي خانته أمّه وعشيقها وسلباه بصره. يتيه في الجبال الثلجية على مطيّته العمياء أيضاً.

- أمُّه سلبته بصره! يا إلهي قال النمساوي متعجباً. لكن هذا يذكّر بآل (أوريستي)!

لقد أصبح مارك عليم مندساً تماماً قربهما كي لا تضيع منه كلمة مما يقولان. وكان كورت على وشك أن يتابع شرحه عندما سُمعت، في هذه اللحظة المحدّدة، ضجة قوية. أدار أكثر الموجودين رؤوسهم باتجاه الباب والآخرون باتجاه النوافذ.



Twitter: @ketab_n

تجدّدت الضجة ممزوجة بصرخات حادّة، ثم سمعت، وسط الضجة، طرقات عنيفة على الباب.

- ما هذا؟ ما الذي يجري؟ سألت أصوات قلقة ـ ثم صمت الجميع.

قطع الرابسود أغنيته وخيّم السكون... من جديد، طرق الباب بعنف أكثر...

- يا إلهي، ماذا يمكن أن يكون هذا؟

همهم أحدهم.

واستدار الجميع نحو الوزير الذي أصبح وجهه بلون الشمع الأصفر... سمع باب ينفتح، ثم صرخة قصيرة، تبعها صوت ثقيل لخطى تتقدم. وتجمّدت أعين المدعوين المذعورين على الأبواب. وأخيراً دفعت من الخارج، وبرزت على العتبة مجموعة من الرجال المسلحين. شيء ما، ربما أضواء الصالة، أو منظر المدعوين، وربما صرخة لا يعرف أحد من أي حلق صدرت، جمّدهم قليلاً في مكانهم. واحد منهم فقط تقدّم، وبعينين تبدوان محرومتين من النظر، ولا تجدان ما تفتّشان عنه، قال دون أن ينظر إلى أحد:

- شرطة السلطان.

صمت الجميع.

- الوزير كوبريللي؟ سأل الرجل الذي بدا أنه اهتدى إلى من يبحث عنه. تقدّم خطوتين من الوزير، وانحنى باحترام عميق:

- يا صاحب السعادة، لقد تلقيت أمراً من السلطان، فهل تسمحون لي بتنفيذه؟

وأخرج من صدره لفافة مرسوم فتحها أمام الوزير.

كانت كل أنواع التحوّلات قد تألبت على ملامح هذا الأخير.



Twitter: @ketab_n

وظل الشمع متجمّداً فوقها. لكن تعبير الرعب هذا، كان يحمل للشرطي معنى الموافقة.

- أوراقكم! صرخ وهو يستدير فجأة نحو المدعوين، وبحركة من رأسه أشار إلى رجاله بالدخول.

كانوا حوالي ستة، بكامل سلاحهم، يحملون على القبّة والقبعة شارة الحرس الإمبراطوري.

- أنا أجنبيّ! جاء صوت النمساوي يردد، وسط البلبلة التي بدأت تسيطر.

وعبثاً فتّش مارك عليم بنظره عن أمّه، وكان صوت يتعمّد القسوة، مع ضبط النفس، يردد على مرات متباعدة: من هنا! من هنا!

من خلال باب جانبي راح الجنود يدفعون جزءاً من المدعوين، إلى قاعة الاستقبال الملاصقة.

- كورت كوبريللي. صاح أحد الجنود بصوت عالٍ وهو يدل رئيسه إليه. إنه هذا!

تقدّم الضابط نحوه، وقبل أن يصل إليه كان قد أخرج الكلبجات من جيبه.

ورأى مارك عليم الضابط يجمع، بحركة سريعة وواثقة، يدي كورت، بإحدى يديه، وباليد الأخرى يطبق عليهما القيد الحديدي. والعجيب أن كورت لم يبد أية حركة مقاومة، واكتفى يتأمّل القيد وقد أذهلته المفاجأة. وتطلّع مارك عليم وجزء من المدعوين إلى الوزير، منتظرين أن يقوم بحركة تضع حداً لهذه المسرحية العبثية، لكن وجه الوزير ظلّ جامداً. ولا شك أن الجميع قد ظنّوا أن عدم انفعال الوزير القوي إزاء ما يحدث تحت سقف بيته، يعود إلى الخوف. لكن مارك عليم أدرك أن وراء تسليمه وسكوته، سبباً آخر، مختلفاً... إنها ردة



Twitter: @ketab_n

الفعل القديمة لآل كوبريللي، التي تفرز في مثل هذه الظروف، التي تكرّرت عشرات وعشرات المرات في تاريخ العائلة، قناع القطيعة مع الواقع. لقد كانت ملامحه تحمل معاً: القدرية والذهول والملل. وتملّكت مارك عليم رغبة جامحة في أن يصرخ:

- استفق! تمالك نفسك! يا خالي. ألا ترى ماذا يحصل؟

لكن نظرة خضوع كانت تلتمع في عيني الوزير، حتى ولو أنهما كانتا تتابعان كعيون الآخرين، خروج كورت مقيّداً.

كان يمكن إدراك أن نظرته الحقيقية قد ذهبت إلى البعيد... إلى... من يدري أي بئر سحريّة، حيث قد تكون حرّكت الآلة الحكومية التي خططت لهذه المأساة. يا إلهي! عسى أن يكون تفكيره منصباً على كيفية إيقاف هذه الآلة. قال مارك عليم في نفسه، وهو يقترب منه ليتأكّد من أن الأمر كذلك. وربّما لأنه اقترب كثيراً، أم من قبيل الصدفة، فقد التقت عينا الوزير بعينيه، للمحة عابرة.

وأحسّ مارك عليم بأنه وجد، في تلك اللمحة القصيرة، وفي تلك النظرة التي اخترقت جبينه كجرح مفاجئ، تفسير حديثه الغامض معه في تلك الأمسية المشهودة. وفجأة نفذت إلى دماغه بألم، فكرة أن لكل هذا علاقة بقصر الأحلام، به هو مارك عليم. وأن آل كوبريللي قد أخذوا هذه المرة، على حين غرّة.

أحسّ بيدين تدفعانه بقوة نحو الصالة المجاورة. وفي اللحظة التي كان يعبر فيها العتبة، توقّف نظره عند الرابسود الذين ما يزالون معزولين عن جمهور المدعوين.

- مارك! جاءه صوت أمّه الهادئ بمجرد دخوله، كان يتوقع صرخة أو دمعة، لكن الغريب أن هذا الصوت كان هادئاً: ماذا يجري في الصالة الأخرى؟



Twitter: @ketab_n

هزّ كتفيه دون أن يجيب.

- كنت قلقة عليك. يا إلهي، ما هذه المأساة التي جاءت تصيبنا؟

استطاع أن يلاحظ أن معظم المدعوين أصبحوا متجمعين في هذه الغرفة. ومن وقت لآخر كان يرتفع صوت يسأل: ما الذي يحدث في الداخل؟ هل سيدوم الأمر طويلاً؟

- هل اقتادوا كورت؟ سألته أمّه.

- أعتقد ذلك.

إنها تتمالك نفسها ـ قال في نفسه ـ إنها من أسرة كوبريللي، لكنه لاحظ رغم ذلك أن وجهها كان أشبه بقطعة قماش صفراء.

فجأة، تناهت من وراء الأبواب التي تصل القاعتين، أصوات مرتعشة، تبعتها ضربات ثم أنين.

وتبع مارك عليم بقية المدعوين، وخطا خطوة باتجاه الباب، لكن أمّه أمسكت بذراعه.

صرخات أخرى سُمعت من وراء الأبواب ثم صوت جسد يقع على الأرض.

- ما هذا؟ سأل النمساوي.

- الأبواب مقفلة.

كانت كل الوجوه ممتقعة وبيضاء من الخوف. ومارك عليم يحسّ أصابع أمّه تنغرز في ذراعه كالأظافر. ومن وراء الباب تنبعث صرخة جارحة، لا تلبث أن تنطفئ.

- من الذي صرخ؟ سأل أحدهم. هذا الصوت...

- إنه ليس صوت الوزير. صوت آخر أيضاً، يأتي من وراء الباب، كأنه صوت جسد ثقيل يقع، وصرخة آه مرعبة.

- يا إلهي! ما الذي يحدث؟



Twitter: @ketab_n

بعد لحظات صمت الجميع... ثم اخترق الصمت صوت يعلن:

إنهم يذبحون الرابسود. أخذ مارك عليم وجهه بين كفّيه. ومن وراء الباب، تتناهى الآن أصوات البساطير التي تبتعد. وأحدهم يحاول أن يدير مقبض الباب:

- افتحوا. بحق الله.

ظل باب القاعة الكبرى مقفلاً، لكن باباً آخر فتح على ممر جانبي داخلي، وراح صوت يدل: من هنا. من هنا.

خرج المدعوون صفاً، كالأشباح، باستثناء واحدٍ منهم كان مغمى عليه، وظل مرمياً على أحد المقاعد. امتلأ الممر، الشاحب الضوء، بأصوات الخطى، وسأل أحدهم: ألم يقتلوا كورت؟ - لا بل اقتادوه من هنا، سيداتي سادتي، الخروج من هنا كان يقول أحد الخدم...

انتهى موكب المدعوين الصغير إلى الممر الرئيسي الذي يوازي قاعة الاستقبال الكبرى التي كانت أبوابها ذات الزجاج المحجّر تسمح بظهور الأشباح البشرية.

بحركة مفاجئة وعنيفة قليلاً، تخلّص مارك من قبضة أمّه، وحاول أن يقترب ليرى ما يحدث. كان أحد الأبواب ما يزال مفتوحاً ومن خلاله استطاع أن يرى زاوية من قاعة الاستقبال، كان كل شيء فيها مقلوباً رأساً على عقب. ثم استقر نظره على جثتين خامدتين ممددتين أرضاً، لاثنين من الرابسود، كانا شبه ملتصقين أحدهما بالآخر. بينما يلفظ الثالث أنفاسه على مسافة منهما، قرب المنقل المقلوب، الذي غطّى رماده جزءاً من وجه الضحية. ولم يَبْقَ بعد أن رحل الجنود، إلّا بعض الخدم الذين يتمشّون بصمت على السجادة المغطاة بحطام الزجاج. على الحائط، رأى ظل الوزير الذي كان واقفاً. توقف دون حراك. وكان يكفيه أن يدفع الباب قليلاً بإصبعه حتى يراه بذاته،



Twitter: @ketab_n

متجمِّداً في الوضع نفسه. يا إلهي! لقد حصل كل شيء أمام عينيه! ورأى أن هناك شيئاً مشتركاً بين عيني الوزير وكسر الزجاج المبعثر على الأرض.

فجأة، أحسّ بيد أمه تجذبه، وتشدّه إليها بعناد، ولم يكن لديه أية قدرة على المقاومة، كان يشعر فقط بالحاجة للتقيؤ.

كان بهو المنزل شبه مقفر. ومن الباب الرئيسي المفتوح كانت تُرى أنوار السيارات التي تغادر واحدة إثر الأخرى.

- لقد ذهب الجميع، قالت أمّه بصوت لا يكاد يُسمع. فماذا سنفعل نحن؟

لم يجبها.

أطفأ أحد الخدم الثريات، ووراء باب القاعة الكبرى، كانت الحركة الصامتة مستمرّة. بعد لحظات، حمل الخدم جثث الرابسود كلاً من الذراعين والساقين. وكان وجه الثالث، الذي كان مغطّى بالرماد، مخيفاً مرعباً. أدارت أم مارك وجهها كي لا تراه، وهو نفسه وجد صعوبة كبرى في إمساك نفسه عن التقيؤ. لكنه كان يشعر رغم ذلك بأنه لا يستطيع الابتعاد من هنا. خرج الخادم الآخر حاملاً الآلات الموسيقية. وبعد قليل عاد كل الخدم إلى القاعة.

- ماذا يفعلون؟ سألته أمّه همساً.

لم يدرِ بماذا يجيبها.

كانت أبواب قاعة الاستقبال قد فتحت على مصراعيها. ورأى هو وأمّه الخدم يرفعون السجادة الملطّخة بالدماء.

- أنا لا أتحمّل رؤية هذا لوقت أطول. إنه شيء فوق طاقتي. قالت أمه.

في القاعة كانت تطفأ الثريات أيضاً، ومارك يدير رأسه شمالاً



Twitter: @ketab_n

ويميناً عاجزاً عن اتخاذ قرار. من المؤكّد أن جميع المدعوين قد ذهبوا. وربما يكون من الأفضل أن يذهب هو وأمّه أيضاً! أم أن الأفضل أن يظلا كما يفعل الأقارب عندما تحل بالعائلة مأساة ما؟

لكن حتى ولو أنهما فضّلا الذهاب فإنهما عاجزان عن ذلك. إنهما يسكنان بعيداً جداً، ولا يمكن لهما أن يذهبا سيراً على القدمين في ليلة كهذه. أما العثور على سيارة نقل فهو أمر لا مجال للتفكير به.

معظم الثريات قد أطفئت. فقط بعض المصابيح الصغيرة ما تزال مضاءة هنا وهناك، في الممرات والأدراج الداخلية.

ندرة من الغلمان يروحون ويجيئون كالأشباح، حاملين شمعدانات، ينتشر ضوؤها الأصفر الضعيف، الشاحب حتى آخر الممرات.

- يا إلهي! كانت أم مارك تصرخ من وقت لآخر. ما هو إذن هذا الرعب؟

في لحظة ما، سُمع أزيز أحد الأبواب، ومن ظلام القاعة الكبرى، خرج الوزير. وراح يصعد السلّم الغارق في شبه عتمة، بخطوات واسعة مترنّحة، كمن يسير في نومه.

- الوزير. قالت أم مارك وهي تلمس يده. هل رأيته؟

بضع لحظات بعده، كان أحد الخدم ينزل السلّم قفزاً، أربع درجات فأربع، يمر من أمام مارك وأمّه ركضاً، ويخرج. وبعد ذلك مباشرة، سمعا صوت سيارة تقلع، دون أن يُعرف اتجاهها.

ظل مارك وأمّه وقتاً طويلاً في العتمة، يتبعان بأنظارهما الشعلة الصغيرة لشمعدان يتحرك في هذا الاتجاه أو ذاك، نحو هذه الزاوية أو تلك، في القصر الكبير. لم يكن أحد يهتم لهما. وبصمتٍ اتجها أخيراً نحو البوابة الحديدية الكبيرة. كان الحرس ما يزالون هناك، في


Twitter: @ketab_n

مواقعهم ولم يكن مارك يتذكّر بوضوح الطريق المؤدية إلى منزله، أما أمّه فتجهلها أكثر كونها لم تسلكها يوماً إلّا في سيارة مغطاة.

ظلّا يسيران حوالي ساعة، وهما يتساءلان إذا لم يكونا قد ضلا الطريق. بعدها سمعا من بعيد قرقعة دواليب سيارة تتقدم بسرعة. انحازا عن طريقها حتى التصقا بالجدار، واستطاع مارك أن يميّز عليها، عندما عبرت من أمامهما، حرف (ك).

- يبدو لي أنها سيارة الوزير - قال بصوت هامس - إنها السيارة التي خرجت الساعة.

لم تجبه أمّه بشيء فقد كان برد الليل ورطوبته يجعلانها ترتجف.

بعد قليل مرّت بهما سيارة أخرى وبالسرعة الهائلة نفسها. ورغم أن الشارع لم يكن مضاءً فقد استطاع مارك أن يميّز على بابها حرف (ك). وذهب إلى حد أنه أشار لها بيده أملاً في أن تتوقف وتحملهما إلى منزلهما. لكن السيارة عبرت وضاعت في الضباب. واقتنع مارك عليم كليّاً بأنه من العبث أن يأمل بمساعدة أي كان من ليلة القلق هذه، التي تحرثها أحرف (ك) التي تهدر، وهي تلامسهما عابرة كطيور شؤم.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير عندما وصلا إلى منزلهما. وكانت (لوك) ما تزال مستيقظة بتأثير حدس سيئ سيطر عليها. بكلمات قليلة رويا لها ما حدث لهما وطلبا إليها أن تحضّر لهما القهوة كي يستعيدا روعهما قليلاً. في المنقل كانت ما تزال بضع جمرات غطّتها لوك بالرماد، كالعادة، كي تستعملها في إشعال فحم الصباح. لكن هذه الجمرات لم تكن كافية لتبدد الرعدة التي تجتاح جسديهما.

لم يتأخّر مارك في الصعود إلى غرفته، لكنه لم يتمكن من النوم.



Twitter: @ketab_n

وعندما نهض مع الفجر وجد أمّه ولوك، ما تزالان في الوضع نفسه الذي تركهما فيه ليلاً، متكوّمتين على نفسيهما قرب الجمر المطفأ تقريباً.

- إلى أين تذهب؟ سألته أمّه بصوت خائف.
- إلى المكتب. إلى أين تريدينني أن أذهب؟
- يا إلهي. ولكن هل استعدت وعيك تماماً؟ في نهار كهذا...

وراحت تبذل جهدها، ومعها لوك، في إقناعه بعدم الذهاب هذا اليوم إلى عمله الملعون.

- هذا اليوم. ضروري - في أن يدّعي أي مرض أو توعّك، حتى ولو اقتضى الأمر أن يدّعي سبباً أكثر خطورة، المهمّ ألّا يذهب هذا اليوم بأيّ ثمن. لكنه لم يقتنع. ورجتاه أكثر، خاصّة أمّه، التي ذهبت حد تقبيل يده، وأغرقته بدموعها، زاعمة أن قصر الأحلام ربما لا يكون قد فتح أبوابه، في يوم كهذا... لكنه كان يزداد عناداً كلما كانت تزداد إلحاحاً. وتوصّل أخيراً إلى أن ينتزع نفسه منها، ويخرج إلى الشارع.

كان الطقس بارداً جداً هذا الصباح، وبخطى سريعة، اندفع في الشارع الذي كان كالعادة، في مثل هذه الساعة، شبه مقفر، وكان المارة القلة الذين يلفّون وجوههم بشالاتهم الصوفية، يبدون وكأنهم ما يزالون نائمين. لم يكن رأسه هو أقل خدراً من رؤوسهم. فهو لم يستعد نفسه بعد من مشهد الأمس. كما تفرز بعض المخلوقات البحرية حولها، ضباباً يحميها، كذلك فإن دماغه قد ابتكر طريقة يحمي نفسه بها من أي تفكير ثاقب. وللحظات، حصل له أن شك في أن شيئاً قد حدث حقاً بالأمس تخيّل بأن ذلك ليس إلّا حلماً، كابوساً، من تلك التي تملأ ملفّاته، هناك، في (سرايا طابير). لكن الحقيقة، كانت تعود


Twitter: @ketab_n

كإبرة، وتخز دماغه، الذي لا يطول به الأمر ويعود فيسقط في خدره، إلى أن يصيبه من جديد ذلك الوخز المؤلم. وقد لاحظ أنه في حالات عذاب من هذا النوع تصبح يقظته مؤلمة بشكل خاص، إذ يشعر أنه يعيش حالة مائعة، متوسطة بين النوم واليقظة.

وكان هذا هو أيضاً الإحساس الذي يثيره فيه العالم المحيط به: الجدران والمباني المزروعة ببقع الرطوبة، المارة ذوو الوجوه الرمادية، الذين يكثر عددهم كلّما اقترب من قلب المدينة، كان يميّز من بينهم موظفي الوزارات والإدارات المركزية، من طريقة استعجالهم في المشي، طريقة ربما وحّدها توقيت دوامهم الموحد.

وها هو يرى أن عدد الحرس قد تضاعف عما كان عليه أمس أمام قصر شيخ الإسلام. وعلى قبعاتهم المبلّلة بندى الليل تتحرك انعكاسات مضطربة. جنود آخرون يتمركزون أيضاً، بعرباتهم أمام البنك المركزي. يبدو أن حالة الطوارئ لم تُرفع بعد. لا، إن شيئاً من هذا لا ينتمي إلى عالم الحلم. وكورت موجود في السجن... وحتى، ربما يكون!...

السجادة الملطّخة بالدم، التي رفعها الخدم تصرّ على أن تلفّ أفكاره. كيف سيستطيع بعد الآن أن يطأها دون أن يصيبه الغثيان؟ إنه ما زال يحس، في حلقه، بهذه الحاجة، بهذه الحاجة للتقيؤ...

إن أبواب قصر الأحلام مفتوحة، قال في نفسه وهو يرى المداخل من بعيد. والموظفون يتدفقون عبرها، جماعات كبيرة. أكثرهم لا يعرفون بعضهم بعضاً، لا يحيّون، ولا يتكلمون فيما بينهم إلّا قليلاً. في الممر المؤدي إلى قسم التفسير، لم يلتق بوجوه مألوفة أكثر، ولحسن الحظ فقد وجد جاره جالساً على طاولته:

- إذن. قال بمجرد أن جلس مارك عليم قربه. هل علمت شيئاً؟



Twitter: @ketab_n

- لا. لا أعرف شيئاً. لقد وصلت لتوّي. ماذا حدث؟
- أنا نفسي لا أعرف شيئاً دقيقاً ولكن من المؤكد أن شيئاً هاماً قد حدث. ألم تر الجنود في الشارع؟
- بلى. أمس واليوم.

تصنّع الآخر أنه ينكبّ على ملفّه، لكنه اقترب منه وهمس:

- يبدو أن شيئاً ما حصل لآل كوبريللي، لكن لم يُعرف بعد ما هو بالضبط.

أحسّ مارك عليم بضربات قلبه تتسارع وقال لنفسه: أيها الأبله. أنت تعرف كل شيء، فلماذا تنفعل بكلام الآخر؟ ثم استزاده سائلاً:

- وماذا إذن؟

قالها وقد انطفأ صوته فجأة، كأنه يخشى أن يتجسّد ما حصل من جديد.

- أنا لا أعرف شيئاً بالتحديد. إنها مجرّد إشاعة. ربما مجرّد لغو.
- يمكن أن يكون الأمر كذلك. قال مارك وهو ينحني فوق ملفّه، مردداً لنفسه: أيها الغبي المكرّر، هل تتخيّل أنه يمكن أن تتدبّر الأمور هكذا؟

كانت عيناه عاجزتين عن القراءة. كان أمامه حلم لا معنى له. وكان هو يحتاج إلى من يفسّره لأنه أكثر جنوناً من هذا الحلم بعشر مرات. كان الموظفون الآخرون منحنين على ملفاتهم، ومن وقت لآخر يسمع حفيف الأوراق التي يقلّبونها.

- اليوم أيضاً يسيطر نوع من القلق تمتم جاره، سيحصل شيء ما، بالتأكيد.

ما الذي يمكن أن يحصل أكثر مما حصل؟ فكّر مارك عليم. وأحسّ برأسه ثقيلاً، كأنه محشو بالرصاص. وأحسّ أنه لا ينقصه إلّا


Twitter: @ketab_n

القليل جداً، لينام هنا، فوق ملفّه المفتوح، ويعيش حلماً يتركه يسقط، فور انتهائه، في داخل الملف، كما تسقط بيضة ساخنة من أحشاء طائر. كان من الأفضل لي أن أمتنع عن المجيء إلى العمل هذا اليوم.

لم يسبق أن تمنّى أبداً، سماع صوت حرس الاستراحة، كما يتمنّاه الآن. وها عيناه تغمضان على حلم رجل آخر، مكتوب على هذه الورقة في ملفه. وقبل قليل كان نومه يذوب في نوم آخر، ليشكلا واحداً. كما يلتقي أحياناً قدران إنسانيان، دون تبصّر.

ارتعش لصوت الجرس. وبخطوات بطيئة تبع جمهور الموظفين النازلين إلى الطابق الأسفل. هناك كانت تعمّ الضجة المألوفة، وكأن شيئاً لم يكن. والواقع أن شيئاً لم يحدث بالنسبة للآخرين. وعمل جهده ليلتقط بعض أطراف الكلام الذي يدور حوله. لكن لم يكن له كله أية علاقة بالحادث. ولم يلبث أن تساءل: ماذا سأستفيد من الكلام؟ فلا أحد يعرف أكثر منه عن تفاصيل ما حدث. وليس هناك ما يستنتجه من تعليقاتهم التافهة.

شرب فنجان قهوة، ثم عاد يصعد الدرج بخطى واسعة بطيئة. وحوله كان الناس يتابعون ثرثرتهم حول أشياء مختلفة. ولمرتين أو ثلاث سمع عبارة: حالة طوارئ، كما سمع سؤال: هل رأيت الحرس أمس؟ لكنه ابتعد وهو يكرر لنفسه: ماذا يهمني من هذا؟

لقد كان مقتنعاً بأنه لا يملك، في أعماقه، أية رغبة في معرفة أي شيء، ولو من باب الحشرية البسيطة. ومع ذلك فقد أدرك وهو يجلس إلى مكتبه بأنه ينتظر بفارغ الصبر، عودة جاره.

أخيراً، ظهر في الباب. ومن طريقة سيره فهم مارك عليم أن لديه أخباراً جديدة.


Twitter: @ketab_n

- يبدو أن حلماً كان السبب الأساسي في كل ما حصل، تمتم في أذن مارك بمجرّد أن أقترب منه.
- سبب ماذا؟
- كيف تسأل ماذا؟ النكبة التي حلّت بآل كوبريللي.
- آه. هل هذا صحيح؟
- أجل. إنه مؤكد. لقد ضُربوا بقسوة. يا إلهي! كنت أشك في ذلك... رغم أنه كان متوقّعاً هنا منذ مساء أمس.
- وما كان ذلك الحلم؟
- حلم غريب. رآه بائع خضار. آه. دائماً يتكوّن الإحساس نفسه للوهلة الأولى: ويعتقد أن الأمر يتعلق بأشياء بريئة، خضار، سهول معشّبة، لكن يكتشف بعد ذلك أن مأساة تكمن وراء ذلك كلّه. ولقد كان هذا الحلم من هذا النوع: جسر، وناي أو كمان، أو لا أدري أية آلة موسيقية.
- جسر وآلة موسيقية؟ قال مارك عليم، وهو يشهق. وبعد؟ ماذا كان فيه غير ذلك؟
- حيوان يدور... لكن الجانب الأساسي يكمن في الجسر مع الكمان. هل تفهم؟

أحس وكأن صدره ينسحق تحت قدم فيل. إنه فعلاً ذلك الحلم الذي أمسكه مرتين بيديه.

- ما بك؟ أنت لا تبدو في مزاجك المعتاد.
- لا شيء. لم أكن بخير، مساء أمس. لقد أصابني الاستفراغ طوال الليل.
- يبدو عليك هذا بوضوح. لكن عمّ كنت أتحدث؟
- عن هذا الحلم...


Twitter: @ketab_n

- آه. أجل. إن هذا الحلم هو الذي شكّل علامة، مؤشراً. وقد حلّل معناه. وبدا كل شيء واضحاً. لقد فسّر الجسر، بأنه يرمز إلى آل كوبريللي. أنت تعرف أن كوبري تعني جسر. وقد أقيمت المقاربة التي تحلّلت بعدها العقدة من تلقاء نفسها.

هذا إذن ما كان! أحس بريقه يجف، وهو يتذكّر الآن، كيف أنه حاول عبثاً تفكيك الحلم وتحليله، واكتشاف رابط ما بين الجسر والثور الهائج الذي يرمز دون شك إلى قوة مدمِّرة. وأنه قد انتهى إلى دسّ الحلم في ملف الأحلام غير القابلة للتفسير.

أما الآن، وقد استطاع واحد غيره أن يوضِّحه، ـ وبأي نجاح! ـ فربما سيسألونه لماذا لم يفعل هو ذلك؟ وربما سيشكون بأنه امتنع عن ذلك عن قصد، لتمويه الأمور... وهل أكثر من هذا منطقية؟ أوليس هو نفسه واحداً من آل كوبريللي؟

لكنه يستطيع أن يدافع عن نفسه بالقول إنه كان بإمكانه، وهو بعد في قسم الانتقاء يومها، أن يحذف هذا الحلم، في حين أنه قد حوّله بالواقع إلى قسم التفسير. لكنه لم يستطع إلا أن يفكّر باحتمال أن تلقى تبريراته أذناً صمّاء.

- ثم ـ استأنف جاره ـ كان هناك هذا الناي أو... لا أدري أية آلة موسيقية أخرى ـ لها صلة بأنشودة ملحمية، تغنّى عن آل كوبريللي في البلقان. لكن، قل لي. ما بك أنت... هل أنت مريض؟

أشار برأسه بالإيجاب، عاجزاً عن التلفّظ بأية كلمة. وأومأ إلى الآخر أن يتابع، كي لا يوقظ شكوكه، أكثر منه رغبة في الاستماع إليه. لقد أشار جاره إلى الأنشودة، وأحسّ مارك عليم بتلاشي كل أمل في أن يكون كلامه مجرّد تخيّلات مشوشة. إلقاء القبض على كورت،


Twitter: @ketab_n

قتل الرابسود، سببان كافيان للاعتقاد بأن ثمة دوراً للأنشودة فيما حصل، وأن هذا الحلم هو الذي سبّب كل شيء.

الآن... يبدو له الحلم المذكور واضحاً كالنهار: آل كوبريللي (الجسر)، من خلال نشيدهم الملحمي (الآلة الموسيقية)، يتورطون في انقلاب ضد الدولة (الثور الهائج). كيف لم يفكّر بذلك قبلاً؟ كان بإمكانه أن يمنع المأساة، لكنه لم يفعل شيئاً! ذلك العشاء مع الوزير، في تحذيراته الغامضة التي كانت تحثّه على أن يفتح عينيه جيداً، لم يكن في كل ذلك أي شيء من الصدفة. لكنه، هو الذي كان عاجزاً عن التقاط الإشارة، فنام فوق ملفاته، وانقضّ القدر السيئ على أهله.

- هل تشعر أنك أحسن قليلاً؟ سأله جاره.
- أجل. قليلاً.
- لحسن الحظ! لا تقلق لذلك، سوف يزول. كنت أقول، إن هذه الأنشودة طالما كانت قديماً سبباً للاحتكاكات بين السلطان وآل كوبريللي. ولذلك فإن أنصارهم إذ يطلبون منهم منذ فترة طويلة التخلي عن ملحمتهم هذه، فهم لا يطلبون ذلك دون سبب. ولكن يبدو أنهم، أي آل كوبريللي، يرفضون كليّاً ذلك، حتى ولو حصل لهم أن عانوا بسببها عدة مرات.

والأكثر من ذلك أنهم، وكأن الملحمة السلافية لم تعد تكفيهم، استدعوا هذا العام الرابسود الألبان. أترى؟

لقد حفروا قبورهم بأيديهم. وهذا ما أخرج السلطان عن طوره. فقرّر أن يضع حداً نهائياً لهذه القصة، وأن يستأصل هذه الملحمة الملعونة من جذورها.

ويبدو أنه قد تم، على عجل، تكليف مجموعة من الضباط،


Twitter: @ketab_n

سيوفدون بشكل طارئ، إلى البلقان، لتنفيذ هذه المهمة: تصفية الملحمة الألبانية التي تشكّل لب هذه البذرة الفاسدة.

- آه. نعم... كان مارك عليم يقول بين حين وآخر، وهو يتساءل في نفسه: لكن كيف استطاع هذا الرجل أن يتوصل إلى معرفة هذا كلّه؟

- أنت الآن أفضل... قلت لك إنه ألم سوف يزول... عمّ كنت أتكلم؟... آه يقال أيضاً إن هذا الحدث سوف يؤدي إلى تردي العلاقات مع النمسا، وتحسّنها مع روسيا. فلقد كان القنصل الروسي يبدي عدم رضاه عن سهرة أمس.

وتذكّر مارك عليم الوجه المنفعل لابن قنصل النمسا، أثناء السهرة. وقال في نفسه: يا إلهي! إن كل ما يقوله هذا الرجل صحيح إذن.

ومع ذلك فقد تمتم مخاطباً إياه:

- لكن ما علاقة روسيا بهذه الملحمة البائسة؟

- روسيا؟ لقد طرحت أنا أيضاً هذا السؤال على نفسي قبلك. لكن الأشياء أكثر تعقيداً مما تبدو عليه. يا أخي... ليست القصة قصة شعر وأغانٍ. ولو لم يكن الأمر إلّا كذلك، لما تنازل سلطاننا الكبير واهتم بها. إنها قضية، ولا أكثر تعقيداً. إن لكل ذلك علاقة بعمليات تهجير جماعي وإعادة توطين للسكان في البلقان، وبالعلاقات بين السكان السلاف وغير السلاف، كالألبان مثلاً؛ باختصار: إن هذا يتعلّق مباشرة بخريطة دول البلقان. ذلك أن هذه الأنشودة الملحمية تغنّى بلغتين: السلافية، والألبانية، مما يجعلها على علاقة مباشرة بقضايا الحدود الإتنية داخل الإمبراطورية. أنا نفسي كنت أتساءل في البداية: ما دخل النمسا، وأكثر منها



Twitter: @ketab_n

روسيا، في هذه القصة؟ حيث يبدو أن الاثنتين مهتمتان جداً بها: النمسا تساند الشعوب غير السلافية، بينما يتدخل، ـ أبونا الصغير القيصر ـ كما يسمّي السلاف الإمبراطور الروسي، دائماً لدى السلطان، لتحسين الظروف المؤمنة للسكان من أبناء عرقه. ولديه في كل مكان عملاء يزودونه بالمعلومات. ولهذه الملحمة علاقة بالعلاقات بين شعوب البلقان. ويبدو أن الرابسود الألبان قد قتلوا هناك، في منزل آل كوبريللي، وحطّمت آلاتهم الموسيقية معهم. أما زلت تشعر بالألم؟

أومأ مارك عليم بعينيه.

ـ لا تقلق... سوف يزول. أنا أيضاً أصابتني اضطرابات من هذا النوع. أجل يا صديقي. إن الأمور، دائماً، معقّدة أكثر مما تبدو في الظاهر. نحن، هنا، نعتقد أننا نعرف كل شيء، بينما الواقع أن كل ما نعرفه هو حفنة من الأحلام، بضع غيوم...

تابع ثرثرته، وهو يخفض الصوت تدريجياً، حتى وصل ما يقوله إلى مجرد همهمات يرددها لنفسه. وكان مارك عليم يحسّ بأن دماغه يضج بكل ما سمعه لتوه. آه لو أنه دمّر ذلك الحلم، عندما كان ما يزال تحت سلطته، كما يسحق رأس حيّة سامّة قبل أن تكبر! لكنه تركه يفلت، ويتسلّل من ملف إلى آخر، من قسم إلى آخر، يكبر، ويجمع السم، ليتحوّل أخيراً إلى حلم ـ رئيس.

كان الندم يقضم صدره. ولبرهة، حرص على أن يطمئن نفسه: ربما كان هذا الحلم، في كل الأحوال، سيشق طريقه ليصل إلى حيث يجب أن يصل؛ طالما أن تكتلات بهذه القوة، بل ودولاً كاملة كانت مهتمّة بإيصاله... ثم... لو أنه نجح في حذفه، ألم يكن ممكناً أن يركب حلم غيره؟ ألم يفهمه الوزير بوضوح أن أحلاماً تؤلف وتركّب،



Twitter: @ketab_n

بل حتى أحلام ـ رئيسة؟ لا لقد فعل خيراً، مئة مرّة خيراً، بعدم التدخّل في هذه القضية. فقد كان من الممكن أن يجري بعدها تحقيق دقيق، وأن يكتشف أنه قد أتلف هذا الحلم. وعندها ينزل العقاب (الذي يخشاه الآن أيضاً، لكونه لم يحلِّل هذا الحلم) ينزل ليس به وحده بل وبأسرته كلها. وربما كان هذا هو السبب الذي منع الوزير من إعطائه تعليمات دقيقة حول ما يتوجّب عليه فعله. ويظهر أنه قد تردّد، لكونه هو نفسه لم يكن واثقاً من السلوك الأفضل الذي يتبناه. آه! لماذا إذن عملت أنا في هذا المنزل الملعون!

وجاء صوت جاره:

- ينتظر أن يصدر اليوم الثناء الرسمي.
- الثناء؟ ولماذا؟
- لماذا؟ بسبب هذا الحلم الذي كان أساس كل شيء. كم أنت مشتت الفكر! عمّ كنا نتحدث حتى الآن؟
- بالطبع! أين تشتت تفكيري؟!...
- في النهاية لديك عذرك: فأنت مريض. موظفو الفرز تلقوا التهنئة هذا الصباح. والأرجح أن يكون الثناء قد وجّه أيضاً للأقسام الأخرى، بدءاً بالاستقبال. وربما يكون الثناء الرسمي قد أرسل مع المكافأة المادية إلى بائع الخضار هذا... شيء واحد يحيّرني: لماذا تأخّرت التهاني الموجهة للتفسير في الوصول؟
- آه... نعم...
- أنا لم أحدّثك عن التوتر العصبي الذي يسيطر على هذا القسم منذ الصباح. ويبدو أن هذا هو السبب: لأن التهاني لم تصل.
- ولماذا إذن؟


Twitter: @ketab_n

- كيف لنا أن نعرف؟ منذ برهة وأنا أراقب الرئيس، إنه قلق. ألا تشعر أنت مثلي؟
- أجل. هذا صحيح...
- في الحقيقة. له الحق. ففيما يتعلق بالثناء... إن قسم التفسير يستحقه أكثر من أي قسم آخر. هذا إذا لم...
- إذا... ماذا؟
- إذا لم يكن قد ظهر أن التفسير الذي أعطاه، هو تفسير خاطئ.
- لكن كيف صُوِّب تفسير هذا الحلم، إذن؟ فليس هناك أقسام أخرى تعنى بالتفسير، والمكلفون بالحلم ـ الرئيس لا يقومون إلّا بالاختيار من بين هذه الأحلام التي نفسِّرها، أليس كذلك؟
- معك حق. قال جاره وقد استغرب لرؤيته ينتعش قليلاً. من الصعب تخيّل أمور كهذه، دون أن يكون وراء تأخّر التهاني دائماً، تفسيرات ما...

انغمس الاثنان برهة في ملفاتهما، دون أن يستطيع أي منهما تحليل أي سطر يقرأه. وإذا كان على علم بقرابتي لآل كوبريللي؟ فكّر مارك عليم. لكنه سيعرف ذلك عاجلاً أم آجلاً، كرئيسه الذي لا بد وأنه قد أعلم بذلك. حتى ولو أنه كان يعتبر أن الغضب الذي حلّ بآل كوبريللي، يشكّل حدث الساعة. لكن ربما تكون لديه اليوم همومه الخاصة.

وقال مارك عليم في سرّه: إنهم لا شك سينظرون إليه من الآن فصاعداً نظرة مختلفة. هذا إذا لم يطردوه كليّاً من عمله.

- لقد استدعوا الرئيس الآن. إنه شاحب كرقعة صفراء. هل رأيت؟
- أجل. أجل.
- لقد قلتها لك. إنّ تأخّر التهاني ليس علامة خير، زد على ذلك أن


Twitter: @ketab_n

من الواضح أن أي نوع من التهاني لا يمكن أن يصل في مثل هذه الساعة. عسى ألّا يكون...

- يكون ماذا؟ سأل مارك بصوت مخنوق.

- إذا لم يكن هناك عقوبات.

- عقوبات... لماذا؟ لماذا إذن؟...

وأحسّ بذلك التخوّف المقموع يلتهب من جديد في داخله. أصبح وجهه كالشمع الأصفر فبدا كأنه على وشك أن يفقد الوعي.

- كيف لنا أن نعرف لماذا؟ أجابه جاره، هذا ما لا نفهم منه شيئاً.

بدا واضحاً أن الآخر يصبح أكثر فأكثر عصبية. لقد كانت فكرة أن شيئاً ما يحدث ولا يستطيع معرفته فوق ما يستطيع تحمّله.

وكان يدير رأسه تارة باتجاه الباب الداخلي، وتارة باتجاه الباب الذي خرج منه الرئيس، وطوراً باتجاه الباب المؤدي إلى الممر.

- ثمة شيء ما يحدث... هذا ما لا شك فيه... إنه شيء مرعب... مخفيف...

وكان يُبدي الحنق بشكل واسع ومكشوف، بطريقة يمكن معها التساؤل عما إذا كان هذا الشيء المرعب يكمن فيما يحدث بالذات، أم في عدم قدرته على معرفته.

أبداً لم يتمنَّ مارك عليم، بهذه الحرارة، أن يكون كلام جاره مطابقاً للواقع. فهو الذي كان يرتجف لسماع أن شيئاً ما يحدث، يصلّي الآن من كل قلبه أن يحدث شيء فعلاً. فإذا كانت التهاني على هذا الحلم الملعون لم تصل بعد، وإذا كان ينتظر وصول عقوبات بدلاً منها، فمعنى ذلك أن تحوّلاً ما قد طرأ على الوضع.

وبدافع التطيّر، أقصى مارك عليم عن ذهنه هذه الفكرة، خوفاً من



Twitter: @ketab_n

أن تؤدي إثارتها إلى تعريض تطبيقها للخطر. سيكون ذلك من قبيل الأعجوبة...

- إن هذا واضح، يبهر العينين، يجب أن يكون الواحد أعمى كي لا يراه... أخذ يتمتم الجار الذي أصبح على حافة الغضب، وكأن مارك عليم هو الذي يحول دون تحقق افتراضاته.

هنا وهناك، كان الموظفون يتهامسون فيما بينهم. والجالسون إلى جانب النوافذ يتطاولون بأعناقهم لينظروا إلى الخارج. يبدو أن جزءاً مما يحدث قد نجح في التسرّب إلى هنا.

وعادت إلى خيال مارك عليم السيارات التي تحمل حرف (ك)، التائهة في الليل بجنون، ولأول مرة استقرت قناعته على أن شيئاً ما قد حدث منذ البارحة، لم يبق الوزير مكتوف اليدين.

فالغضب الذي ابتلعه في داخله، وهو يترك قاعة الاستقبال، وطريقته في صعود السّلم كالسائر في نومه، كانا ينبئان برد انتقامي سريع. ثم تلك العربة التي انسلّت في الليل، وتلك السيارات التي رآها مارك وأمّه في الظلمة، دون أن يُعرف من أين كانت تأتي وإلى أين تذهب... يا إلهي! هذا صحيح...

- لم أعد أستطيع... سأذهب بحثاً عن الأخبار... قال جاره. إذا سألوا عني، قل إنني نزلت إلى الأرشيف.

وبخطى خفيفة، لا تثير الانتباه، انسلّ كخيال نحو باب الخروج. وتصاعدت في صدر مارك عليم موجة ارتياح، وهو يتابعه بعينيه، فبعد قليل سيستطيع أن يعرف منه شيئاً.

ظلّت عيناه معلّقتين لبرهة طويلة على ملفه دون أن يستطيع أن يفهم منه شيئاً قطعياً.

كان ما يعوّض نفاذ صبره لسماع آخر الأخبار، نوع من الرضى


Twitter: @ketab_n

الناجم عن كون تأخّر جاره في العودة يعني بالتأكيد أنه يجمع أنباءً جوهرية أكثر.

وكان يبذل جهوداً تفوق طاقة البشر، ليقمع تفتّح آمال لا أساس لها في داخله. فقد أحس أن إحباطاً جديداً، كان سيحطّمه كليّاً.

الآن، لم يعد الجالسون بالقرب من النوافذ هم الذين يتطاولون للنظر إلى الخارج، فقط، بل إنَّ ـ وهذا لم يحدث أبداً في هذه القاعة ـ موظفين آخرين قد تركوا أماكنهم واقتربوا من الممرات ليفعلوا مثلهم. لا يمكن إنكار أن هناك شيئاً غير عادي في الجو. وكان مارك عليم يدير رأسه من الشبابيك إلى الباب، الذي ينتظر رؤية جاره مندفعاً منه. هل يكون السلطان قد أعاد الحلم ـ الرئيس، كعروس تبيّن عدم طهارتها، فأعيدت إلى أهلها صباح عرسها؟ فاقتيدت.

على أية حال، هو لا يريد أن يدغدغ أحلاماً فجّة، سابقة لأوانها... لكن ما يحدث كان يفوق التصوّر.

الآن لم يعد الموظفون الجالسون على الطاولات التي في وسط القاعة، هم فقط الذين يتركون طاولاتهم، بل أولئك الذين على طاولات في آخر القاعة.

بل إن موظفين آخرين ينهضون، من أولئك الذين لم يجرؤوا مرة أبداً على التحرّك من أماكنهم، أولئك الذين كان يبدو أنهم يشكلون مع مكاتبهم قطعة واحدة، وليس فقط أنهم لم يفكّروا مرة بالاقتراب من النوافذ لإلقاء نظرة على الخارج، بل إنهم ربما لم يلاحظوا أبداً، أن للقاعة التي يعملون فيها نوافذ.

أحسّ مارك عليم بنفاد الصبر ينهشه، انتظر. وانتظر... ثم قام بما كان يبدو قبل قليل حركة عبثية، فقد اجتاز القاعة ليطل بدوره على إحدى الفتحات المزججة الكبيرة. وكان ما يثيره النهار الزائل القاتم



Twitter: @ketab_n

من وراء الزجاج. وكان الموظفون يتكئون، هنا وهناك، على حوافي النوافذ وينظرون إلى الخارج.

- ما الذي يحدث؟ سأل مارك عليم متمتماً.

- ألا ترى؟ تحت في الساحة؟

نظر مارك في الاتجاه الذي أشار إليه الآخر، ولأول مرة، اكتشف أن النوافذ تطل على ساحة داخلية في القصر. كانت الساحة تضجّ بالجنود الذين كانوا يبدون من أعلى وكأنهم صفيحة مسطحة، لكن خوذهم كانت ترسل لمعات غريبة.

- جنود!؟

لم يجبه الآخر... فعاد يسأل بعد لحظة:

- ولكن لماذا؟

التفت ليسمع الجواب فوجد أن الآخر قد اختفى.

غاص نظره نحو الرجال المسلحين كأنهم من الرصاص. وبذهن خدر، عاد يفكّر بغموض بتلك السيارات المزيّنة بحرف (ك) على أبوابها. هذه السيارات التي تجعله دائماً، دون أن يدري لماذا، يفكّر بطيور ليلية. وبسبب ذهنه المضطرب، وصل إلى حد أن يجد من الطبيعي أن يتخيّلها مرة في مظهرها الحقيقي كسيارة، ومرة في شكل طيور بوم تحلّق في الظلام...

- ماذا هناك، سأل صوت بجانبه، خرج بين شهقتين كأنهما لمصاب بالربو.

- هناك تحت. في الساحة... ألا ترى؟ أجابه مارك عليم.

بدا أن أنفاس الآخر تكاد تغطي الزجاج البارد، ظل مارك شارداً لفترة، إلى أن جعله البرد المنبعث من النافذة، يستعيد نفسه. فعاد بخطوات وئيدة بطيئة إلى مكانه، كان جاره قد عاد.



Twitter: @ketab_n

- أين ذهبت؟ منذ وقت طويل وأنا أنتظرك.

أشار له مارك برأسه نحو النافذة.

- هراء... ماذا تريد أن تعرف من هذا العلو؟ اسمعني... لديّ أنباء مؤثرة: يبدو أن نصف الموظفين المكلفين بالحلم ـ الرئيس قد سجنوا.

- آه؟

- انتظر. هناك المزيد. يتحدثون عن اعتقالات في صفوف موظفي التفسير بدءاً من الرئيس.

ابتلع مارك عليم ريقه بصعوبة. وتمتم قائلاً:

- الساحة تزدحم بالجنود.

- أجل. لكنهم هنا لشيء آخر، يبدو أن عدداً من مسؤولي الطابير سيعتقلون.

- يا إلهي! لكن ماذا يعني ذلك؟

- لقد رد آل كوبريللي بعنف وبسرعة، كان يجب توقّع ذلك.

- ردّوا؟ كيف؟ من؟ ضدّ من؟

- لحظة. أنت نافد الصبر! سأفسّر لك كل شيء. فقط اقترب مني قليلاً وإلّا لانتهينا مثلهم... إن سرايا طابير كلها تغلي. فلقد حصل شيء ولا أكثر غرابة، مساء أمس، أو بالأحرى فجر هذا اليوم.

السيارات التي تشبه طيور الليل... فكّر مارك عليم. بل إنه عاد إلى ذهنه أن هناك طيراً ليلياً يسمى (الدوق الكبير) البومة.

- إذن. فإن آل كوبريللي، بعد أن حدّدوا مصدر الضربة، لم يقفوا مكتوفي الأيدي. لقد تحركوا في الليل، بسرعة وبقوة، بطريقة لا يمكن لي ولا لك ولا لأي أحد التكهّن بها. ويبدو أنهم نجحوا



Twitter: @ketab_n

في توجيه ضربتهم عند الفجر. لكن. كما قلت لك، يظل هذا كله مغلّفاً بالأسرار. لقد حصلت مواجهة، توجيه ضربات عنيفة بقدر ما هي صامتة، في أركان الدولة. ونحن لم نحس منها إلا بارتجاجات السطح. كما يحصل عند الهزات الأرضية ذات المركز العميق... العميق جداً.

إذن ففي أثناء الليل، قد حصل هذا الصدام العنيف المخيف بين الفريقين المتنافسين، أو إذا أردت، بين القوتين اللتين تتأرجحان في التوازن داخل تكوين الدولة. إن العاصمة كلها في حالة غليان، لكن أحداً لا يعرف شيئاً دقيقاً. زد أننا نحن الذين هنا، حيث منبع هذه الأسرار، لا نعرف عنها أكثر.

كاد مارك عليم يقول إنه كان قد أمسك الحلم مرتين، بين يديه، لكن لحظة تفكير قصيرة كانت كافية لإقناعه بأن ذلك يعني ارتكاب حماقة.

- حتى قبل طلوع الفجر، تابع جاره قائلاً بصوت ذي نبرة واحدة شوهدت عربات تروح وتجيء بين السفارات ووزارة الخارجية. لكن هذا ليس كل شيء. إذ يبدو أن المصارف الرئيسية في الإمبراطورية، ومناجم النحاس، هي أيضاً متورطة في هذه القضية. يتحدثون أيضاً عن إجراءات تخفيض.
- هذا إذن!
- هذا ما تنطوي عليه الأمور. إنها أكثر تعقيداً وتشويشاً، ومختلفة جداً عما تبدو عليه في الظاهر... وكأنها مدفونة في آبار لا قعر لها... ونحن، كما قلت لك سابقاً، الذين لا نصل إلا إلى حفنة من الأحلام، إلى بعض أطراف الغيوم...

قلق عميق طبع كل ذلك النهار في قصر الأحلام. ففي بداية فترة


Twitter: @ketab_n

ما بعد الظهر تم فعلاً اعتقال رئيس قسم التفسير، ومعه مجموعة من كبار موظفي السرايا. وكان يتوقع حصول عمليات اعتقال أخرى بعد الظهر، لكن المساء حلّ دون أن يحصل شيء جديد.

عاد مارك عليم إلى منزله وهو يتأجّج رغبةً في رواية كل شيء لأمّه. وأثناء تناول الطعام نقل لها كل ما سمع، وتعجّب لأنه لم يقرأ في نظرتها الفرحة التي كان يظن أنه سيولدها فيها.

أرسلا شخصاً إلى منزل الوزير أملاً في أن يعود بأخبار سارّة عن كورت، لكن الرجل قال عند عودته بأن شيئاً لم يُعرف عنه.

رغم أن مارك عليم لم ينم إلا قليلاً جداً ليلة الأمس، فإنه لم يتوصل إلى إغماض عينيه هذه الليلة. وفي لحظة ما أحسّ بأن النعاس يداهمه، لكن ضجة بعيدة لم تلبث أن جعلته يستعيد تنبهه.

نهض، اقترب من النافذة، لكنه لم يرَ شيئاً يمكن أن يستدل منه على ما يحدث. ثم لاحظ في الأفق، احمراراً خفيفاً، وشعاعاً ما. وفكّر: لو أن قصر الأحلام هو الذي يكون فريسة للهب؟ لكنه تحقق بسرعة من أن اللّهب يقع في اتجاه آخر تماماً.

وبعد أن عاد إلى النوم، تقلّب كثيراً في فراشه، قبل أن يغفو.

استيقظ قبل يزوغ الفجر. نهض فوراً. حلق ذقنه بعناية، واستعدّ، في وقت مبكّر أكثر من المعتاد، للذهاب إلى (سرايا طابير).

* * *



Twitter: @ketab_n

# VII

# اقتراب الربيع

لم يكن ينبغي أبداً معرفة ما حصل فعلاً تلك الليلة. وبمرور الأيام، أخذ الضباب الذي اكتنف، ليس تفاصيل الحدث فقط، بل وطبيعته أيضاً، يتكاثف أكثر، ودون توقف، بدلاً من أن ينقشع.

في قصر الأحلام، تتابعت الاعتقالات طيلة أسبوع كامل. وأكثر من ضُربوا بقسوة كانوا المكلفين بالحلم ـ الرئيس. فمن أفلت منهم من السجن، لم يفلت من الإبعاد عن قسمه وتحويله إلى الفرز أو الاستقبال، أو حتى قسم الكتبة البسيطين. وبالمقابل فإن موظفين من قسمَي الفرز والتفسير، قد أرسلوا إلى الغرف الفارغة في القسم الذي يطمح إليه الجميع.

وكان مارك عليم من بين أوائل الذين نُقلوا. فبعد يومين فقط، وكان ما يزال أسير الانفعال بهذا النقل، استدعي إلى مكتب الإدارة (التي كانت الاعتقالات منثورة على مكاتبها) حيث أبلغه المدير بنفسه، تعيينه كرئيس لقسم الحلم ـ الرئيس.

كان مارك ذاهلاً مصعوقاً. فإن قفزة كهذه، هي أمر غير قابل للاستيعاب. ومن المؤكد قطعاً، أن آل كوبريللي يحاولون أن يوجهوا ردّهم.



Twitter: @ketab_n

في هذه الأثناء... لم تكن هناك أية أخبار عن كورت. والوزير كان مشغولاً دائماً. ومارك عليم لا يستطيع أن يفهم كيف أنه لا يتوصل إلى إخراج أخيه من السجن، في الوقت الذي يمتلك فيه كل هذا النفوذ القادر على هز الدولة حتى أسسها العميقة. لكن ربما تكون له أسبابه في عدم الاستعجال! قال مارك عليم ربما يرى أن كل شيء أفضل هكذا؟

هو الآخر، أصبح غارقاً في العمل، لا يجد الوقت للتأمّلات الطويلة. فالقسم يجب أن يعاد تنظيمه من الأساس والملفات لا تكف تتكوّم. ويوم الجمعة، موعد إرسال الحلم ـ الرئيس إلى السلطان، يأتي بسرعة.

كان مزاجه يصبح أكثر تجهّماً وهو يصبح صعب المقاربة أكثر فأكثر. ورغم كل جهوده، ليظل هو هو... فإنه كان يشعر بأن شيئاً ما في حركاته، في كلامه، وحتى في مشيته، يتغير ويتحوّل شيئاً فشيئاً. وكان يتماثل أكثر فأكثر مع تلك الفصيلة من الأفراد التي كانت دائماً الأبعد عن قلبه: كبار الموظفين.

والواقع أنه كان يعي بمرور الأيام أهمية موقعه الجديد في قصر الأحلام. الآن باتت تحت تصرّفه سيارة زرقاء، تنتظره كل يوم، في الخارج أمام القصر، وبات يحسّ بأن شخصه ذاته، وليس ما يقترن به، يفرض الاحترام، الصمت، والخوف. يكاد يبتسم بسخرية من ذلك، لأنه يجد أنه من غير المعقول، وهو ذاته، الذي كان في السابق ينزعج جداً من الغموض والجو الثقيل الذي ينبعث من وجود أعضاء السلطة، ينشر اليوم بدوره، هذا الغموض وهذه الخشية ذاتها. لكنه كان يقول لنفسه أحياناً بأنه ربما يكون كل هذا في طبيعة الأشياء نفسها. ولا شك أنه بقدر ما كان حسّاساً إزاء ذلك، كان يترك الكثير



Twitter: @ketab_n

من الغموض والكثير من القلق والضيق، يتجمّع في داخله، مما يجعلها تنتشر حوله.

وبسبب انهماكه في عمله، لم يلاحظ أن الشتاء بدأ يميل إلى الاعتدال. بعد مذبحة الرابسود، سقطت البانيا فريسة أرق عام معلن. وأمّا آلة قصر الأحلام، فتعمل، من جهتها بنظام كامل. إنه الآن واحد من مسؤوليها الرئيسيين، وهو يتلقى كل صباح التقرير اليومي الخاص، الفائق السرية. إن الخط البياني لنوم الشعوب يلتوي بحسب الأحداث التي تحصل على أرضها، ولقد طلب إعداد تقرير خاص عن الأرق الذي يصيب ألبانيا.

البائع الذي أرسل الحلم المشؤوم، معتقل في السجن الانفرادي، منذ عدة أيام، وهم يحاولون أن ينتزعوا منه التوضيحات الضرورية، وقد ملأت اعترافاته حتى الآن أربعمائة صفحة.

وبشكل عام، يتوقع مرحلة نوم مضطرب، مع تصاعد في نسبة الكوابيس.

في لحظات ضجرة، كان مارك عليم يفرك عينيه طويلاً، وكأنه يحاول أن يزيل عنهما الغشاوة التي نشرتها القراءة.

ذات مساء، عندما عاد إلى منزله كالعادة، وجد لوك شاحبة الوجه، صفراء، وللحال أحسّ بخواء القلق القديم المألوف، الذي نسيه قليلاً خلال الأسابيع الماضية، ينفتح من جديد في تجويف معدته.

- ماذا هناك؟ سألها بصوت مخنوق، كورت؟

أومأت لوك برأسها بالإيجاب.

- ألن يطلقوا سراحه؟ كم سنة حكم عليه بالسجن؟



Twitter: @ketab_n

ظلّت لوك تنظر إليه بعينين تكادان تغرقان في الدموع التي تبللهما، وتحتفظان بمظهرهما الكئيب.

- سألتك: كم سنة حكم عليه؟.. كرر مارك. لكن لوك لم تجب أيضاً. واكتفت بأن استمرت تنظر إليه بذات العينين الذاهلتين. أمسك بها من كتفيها وراح يهزّها بعنف، ثم بدأ يدرك شيئاً فشيئاً ما حصل، وسقط هو نفسه ينشج... لقد حكم على كورت بالإعدام، ونفّذ الحكم. وقد وصل الخبر لتوّه.

صعد مارك عليم إلى غرفته، وحبس نفسه فيها، بينما كانت أمّه تبكي وحيدة في غرفتها. كيف كان هذا ممكناً؟ لم يتوقف عن طرح هذا السؤال على نفسه. كيف، في الوقت الذي كان يبدو فيه أن إطلاق سراحه ليس إلّا مسألة وقت، أيام، يحكم عليه بالإعدام، وينفّذ الحكم فوراً؟... كان يضغط صدغيه بيديه. هذا يعني إذن أن رد آل كوبريللي، استعادتهم للسلطة، ترقيته المغرية، هو، كلها لم تكن إلّا أوهاماً، تجربة خادعة، تمهِّد لضربة جديدة. ولكن كل الأمور أصبحت عنده سيّان. وليس لهم إلّا أن يضربوا، وبأقرب وقت ممكن، وبأكثر قوة ممكنة، كي تنتهي هذه القصة نهائياً.

في صباح اليوم التالي، اتجه إلى (سرايا طابير)، ممتقع الوجه. كان مقتنعاً بأنهم سوف يبلغونه عزله، أو عودته إلى مهامه القديمة في التفسير، ربما في الفرز. لكن مرؤوسيه استقبلوه بذات الاحترام الذي أخذوا يقابلونه به منذ ترقيته، بل إن شحوب وجهه، جعلهم أكثر مجاملة، على ما يبدو. وعندما كانوا يقدمون له بعض الأوراق، كان يفتّش في عيونهم عن شيء من التهكّم. وإذ تأكد من عدم وجوده، استعاد اطمئنانه. لكن أمد هذا الاطمئنان لم يطل، لأن فكرة أنه إذا كان قرار العزل قد تأخّر أو أوقف، فإن هؤلاء الموظفين لا يمكن أن


Twitter: @ketab_n

يكونوا على علم به، هذه الفكرة قد أيقظت قلقه من جديد. وادّعى حجة ما ليذهب إلى مكتب المدير العام، وعندما قيل له إنه متغيّب بسبب المرض داهمه الإحساس بأن هذا ينتظم ضمن سياق الملهاة التي تدور حوله.

دام قلقه عدة أيام، حتى ذلك الصباح (لاحظ أن كل شيء يأتيه إذ يكون ينتظر أقل منه) عندما استدعاه المدير العام إلى مكتبه. ليس الوقت مبكّراً! قال في نفسه وهو ينهض من مكانه.

والغريب أنه لم يكن يشعر بأي نوع من الانفعال. وكان يحسّ أنه غارق في نوع من الصمم الذي كان لا يطرقه إلا صوت خطواته وهو يعبر الممر. وإذ مثل أمام مديره، فوجئ بتعبير الخطورة القصوى المرتسم على وجهه. هذا طبيعي! ما دام الأمر يتعلق بعزل واحد من آل كوبريللي، ففي أسرتهم تحاط أوامر العلم، كأوامر الترقية باحتفالية خاصة. كان المدير يتحدث إليه، لكنه لم يكن يسمعه. ففي نهاية المطاف، إن ما يريد هذا الرجل أن يقوله، لا يهمه قط.

كان يتمنى أن يخرج من هذا المكتب بأسرع ما يمكن، ويذهب إلى القسم الذي سيعيدونه إليه، إلى الفرز أو حتى إلى قسم الكتبة، وأن يشغل موقعاً عادياً بين مئات الموظفين المجهولين. وفي لحظة ما كاد يقاطع المدير: لماذا لا تختصر، لماذا تلفّ وتدور حول الموضوع؟ فهذه الديباجات الطويلة هي بدون فائدة. ولكن، الظاهر أن المدير كان يجد متعة في أن يلاعبه كما يلاعب القط الفأرة. من يدري فقد لا يكون مستاءً من التخلص من هذا الفرع من آل كوبريللي، ألا يمكن أن يكون قد قال في نفسه إن هذا قد ينتزع منه موقعه يوماً؟ ألم يكن قد ألمح إلى ذلك ذات يوم...

لكن مارك عليم قطب جبينه: كيف سيجرؤ على التجاوز في


Twitter: @ketab_n

الحديث معه بهذا الشكل الساخر الثقيل؟ إن هذا يتجاوز كل الحدود!

إن مارك عليم لا يصدّق أذنيه: فالمدير يوجّه له التهاني!

وهو يقول له في سرّه:

عبثاً تضحك على عقلي.

وبعد لحظة يقول: أكاد أجن...

- مارك عليم، هل تشعر بتوعّك؟

سأله المدير بهدوء.

- أنا أصغي إليك يا سيدي. أجاب ببرود. الآن جاء دور المدير لينظر إليه باستغراب، ثم يبتسم بخجل:

- أعترف لك بأنني لم أكن أتوقع أن تستقبل ما أبلغتك إياه بهذه الطريقة.

- كيف؟ سأل مارك بلهجة جافّة أيضاً.

وفتح المدير ذراعية مجيباً:

- طبعاً، لك الحق في أن يستقبل نبأ كهذا كما يريد، وبالأحرى أنت نفسك، الذي يتحدّر من أسرة رؤساء الوزراء، الشهيرة...

- أكون ممتناً لك لو اختصرت أكثر. قال مارك عليم وجبهته تنضح عرقاً.

نظر إليه المدير بعينين مبحلقتين، وقال بصوت خافت:

- أعتقد أنني كنت واضحاً جداً... والحقيقة أنني لم أتوصل حتى الآن لأن أفهم كيف اقتنعت باستدعاء شخص إلى مكتبي كي أبلغه...

أحسّ مارك عليم بطنين في أذنيه فما يسمعه كان لا يصدّق. وبصعوبة، كانت كلمات مديره تشق طريقها إلى سمعه. كلمات مثل: تعيين ـ تسمية ـ الحلول مكان المدير، موقع مدير... كلها قيلت،



Twitter: @ketab_n

ولكن بمعنى آخر تماماً عما كان يتوقع. لقد مضى ربع ساعة والمدير العام لسرايا طابير يشرح له أنه هو مارك عليم مع احتفاظه بوظيفته كرئيس لقسم الحلم ـ الرئيس، قد عيّن، بأمر مباشر من أعلى، مساعداً أول لمدير قصر الأحلام، وأن المدير لأسباب صحية معروفة، سوف يكون متغيّباً في أكثر الأحيان.

وكان المدير العام، وهو يكرِّر ببطء ما قاله، وكأنه يحاول جاهداً أن يفهم ما الذي يبرِّر هذا الاستقبال المتحفّظ، يتابع التفرّس في وجه مارك بذات الدهشة، التي أخذت تختلط الآن بظل من الشك.

فرك مارك عليم عينيه، ودون أن ينزل يده، قال بصوت خفيض:

ـ عذراً، أرجوك. فأنا لست على ما يرام هذا اليوم. عفواً.

ـ لا. لا. لا تعذِّب نفسك بالندم. والحقيقة أنني أدركت ذلك منذ دخولك. عليك أن تهتم بنفسك أكثر. خاصة الآن وقد ثقل عليك العمل. انظر، أنا أيضاً كنت مهملاً في هذا الخصوص، وها أنا اليوم أدفع الثمن. تهانيّ القلبية! وحظاً سعيداً!

في الأيام اللاحقة كان مارك عليم يحسّ بألم يكاد يكون جسدياً، كلما تذكّر هذا الحديث الخاص مع المدير. زد على ذلك أنه أغرق بالعمل، فالمدير العام كان متغيِّباً في الغالب، لأسباب صحيّة، وكان عليه أن يحل محلّه طيلة أيام عديدة متواصلة.

وبسبب المشاكل التي كانت تضنيه، أصبح أكثر عبوساً. والآلة العملاقة التي كان يديرها هو فعلياً، تعمل ليل نهار. فهو لم يدرك حقيقة حجم وأبعاد (سرايا طابير) إلّا الآن. كبار موظفي الدولة يدخلون مكتبه باستحياء وتهيّب، وحتى وكيل وزارة الداخلية، الذي كان يأتي دائماً لرؤيته، كان يحرص على ألّا يقاطعه وهو يتكلم. وفي عينيه، كما في عيون الموظفين الآخرين الكبار، كانت تلتمع نقطة



Twitter: @ketab_n

ثابتة، وراء الابتسامة المهذّبة، نقطة ينبعث منها دائماً ذات السؤال: هل هناك حلم يخصّني؟ فلا أهمية لكونهم متنفذين، مغمورين بالتعظيم، يشغلون مناصب عليا، ويستفيدون من دعم قوي... كل هذا لم يكن يكفي...

فالمهم ليس فقط ما هم عليه في الحياة، لا، المهم أيضاً، وبالدرجة نفسها، ما هم عليه في أحلام الآخرين.

السيارات الساحرة التي يتجوّلون بها، اللوحات، أو الإشارات السرية التي تزيّنها...

وفي كل صباح، كان مارك عليم يشعر وهو يتلقى التقرير اليومي، أنه يمسك بيديه نوم ملايين وملايين من الناس، لليلة انتهت للتو. إذ إن الذي يسيطر على القطاعات المظلمة في حياة الناس، يمتلك دون نقاش، سلطة هائلة. وأسبوعاً بعد أسبوع، كان مارك عليم يزداد وعياً بذلك.

وفي أحد الأيام، نهض مدفوعاً برغبة مفاجئة، وبخطى بطيئة نزل إلى الأرشيف.

وهناك وجد الرائحة الثقيلة ذاتها المنبعثة من الفحم المحترق. ووقف الموظفون أمامه وجلين، مستعدين لأداء أية خدمة له. طلب ملف الأحلام ـ الرئيسة للأشهر الأخيرة. وعندما حُمل إليه، أمر بأن يتركوه يعمل بهدوء، وراح يقلّب صفحاته ببطء. وكلّما كان يقلّب صفحات أكثر كانت أصابعه تعبّر عن اضطرابه المتنامي، وتباطأت ضربات قلبه إلى أقصى ما يمكن.

كانت التواريخ وبعض الملاحظات مكتوبة أعلى الصفحات إلى اليمين. آخر يوم جمعة في كانون الأول، أول جمعة في كانون الثاني، ثاني جمعة في كانون الثاني... وها هو أخيراً الحلم الذي يبحث عنه.



Twitter: @ketab_n

الحلم الملعون الذي دفع بخاله إلى القبر ورفعه هو إلى إدارة طابير.

وراح يقرأه بصعوبة، وكأن عينيه معصوبتان بشريط أبيض لا ينفذ منه إلّا أشعة ضئيلة من النور.

إنه حلم بائع الخضار في العاصمة، الحلم الذي تناوله مرّتين بيديه، ومعه التفسير الذي يعرفه بشكل تقريبي.

الجسر وكلمة (كوبري) كوبريللي، الآلة الموسيقية، الأنشودة الألبانية، الثور الأشقر الذي تثيره هذه الأصوات، فينقضّ على الدولة. يا إلهي، تنهّد بعمق، إن كل هذا محفور في ذهنه. ومع ذلك فإن رؤيته هنا، مجسّداً أسود على أبيض، تجعله يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه. أقفل الملف وابتعد ببطء.

منذ تسميته على رأس (سرايا طابير) انتهت إلى علمه مجموعة من الأسرار المرعبة، لكنه لم يتوصّل حتى الآن إلى حل لغز تلك الليلة، الضربة الموجهة إلى آل كوبريللي وردّهم.

كان استجواب بائع الفصول الأربعة مستمراً في زنزانته. ومحضر التحقيق معه بات يملأ أكثر من ثمانمائة صفحة، ولا يبدو أنهم اقتربوا من إقفاله. وفي أحد الأيام، طلب مارك عليم هذا المحضر، وخصص عدة ساعات لدراسته، كانت تلك هي المرة الأولى التي يقع فيها ملف كهذا تحت نظره. كان يضم مئات الصفحات المحشوّة بأبسط وأصغر تفاصيل الحياة اليومية للبائع. كل شيء تقريباً كان مذكوراً فيها:

أنواع الخضار والفواكه التي كان يبيع، ملفوف، قنبيط، فلفل، خضار ورقية، أوقات استلامها وتحميلها وتفريغها، الخلافات التي تدور حولها مع المنتجين، تبدّلات الأسعار، الزبائن، أحاديثهم، الهموم الأسرية التي تعبّر عنها، الصعوبات الاقتصادية، الأمراض



Twitter: @ketab_n

المخفيّة، الصراعات، الأزمات، التحالفات... جمل مما يقوله السكارى عند الفجر، أو عمال النظافة، أو المتسكعون... كلمات لمارة مجهولين، لا يُعلم سبب بقائها في الذهن... ثم من جديد وفرة الخضار، نكهتها في بداية الفصل وفي آخره. تبليلها كي تظل محتفظة بمظهر طازج، بلادات القرويين الذين يبيعونها، المساومات على السعر، الفضلات، قطرات الندى على الخضار الورقية لتزيد في وزنها، تقلّب أطوار ربات البيوت، المشاجرات، الأقاويل. وكل ذلك معاد ومكرر إلى درجة يبدو معها أنه لن ينتهي أبداً.

أحسّ مارك عليم، وهو يغلق الملف السميك، بأنه يخرج من بريّة رطّبها الندى، ولم يكن من الممكن أبداً تخيّل أنها تخفي أفعى سامّة. وبالرغم من الملل الذي سببته له قراءة المحضر، فإنه أحسّ بالطراوة، وبشفقة ما إزاء هذا البائع الذي لم يكن لديه، على وجه الاحتمال، أية فكرة عمّا سببه حلمه.

غير أنه، وقبل العبور إلى تفسير هذا الحلم الذي ستخصص له دون شك مئات الصفحات الأخرى في المحضر، ينطرح السؤال عما إذا كان الرجل قد رأى هذا الحلم.

لكن، في العمق، لم يعد لهذا أية أهمية: فما كان يجب أن يحصل قد حصل، ومن الآن فصاعداً، وبطريقة أو بأخرى، لم يعد من الممكن العودة إلى الوراء.

في الأيام التي تلت، لم يعد مارك عليم أبداً إلى التفكير ببائع الخضار. كان الفصل الجديد يقترب. وتدل المؤشرات على أنه حافل بالتوتر بالنسبة لقصر الأحلام، ولن يكون أمامه وقت يضيعه في تفاهات. فكل الملفات التي تصله كانت محشوّة بالمسائل التي تتطلب حلّاً. كان أرق ألبانيا يتواصل، مكتسياً طابع اتساع وانتشار لم يسبق


Twitter: @ketab_n

لهما مثيل. وبالطبع لم يكن يلقى على عاتق قصر الأحلام إعادة استتباب الهدوء.

ولكن، ما دام الوضع متوتراً هناك لفترة أطول، فقد كان عليه أن يعير أقصى الانتباه إلى الملفات المتعلقة بهذا النوم الذي يتناقص دون توقف. وزيادة في المصيبة، فإن مدير البنك الإمبراطوري قد حدّثه خلال لقاء تم بينهما قبل أيام، عن احتمال تخفُيض العملة، كنتيجة محتملة للأزمة الاقتصادية الخطيرة التي تعاني منها الإمبراطورية. ويعود إذن، إلى (سرايا طابير)، بعد أن أخذت علماً بهذا الوضع، أن تضاعف انتباهها بخصوص الأحلام التي تمس هذا الموضوع، وهي الأحلام التي يعرف مارك عليم، بحكم خبرته القصيرة في الفرز والتفسير، بأنه يوجد مئات منها، مكدّسة في الملفات. من جهة أخرى، فإن أعضاء مهمّين في الدولة قد لفتوا انتباهه بشكل غير مباشر إلى التحركات التي تسود الأوساط اليهودية والأرمنية. (يا إلهي! هل من يدعو إلى مجازر جديدة؟!). كما أنهم استغلّوا حالة التراخي في علاقات الولايات الكبرى بالمركز، ليجدِّدوا تحذيراتهم، ربما للمرة المئة، من فتور الحس الديني لدى الجيل الجديد، وهو تحذير من المعروف أن مصدره شيخ الإسلام.

بسبب استغراقه الكامل بكل هذه المشاغل والهموم، لم يلاحظ مارك عليم اقتراب الربيع. كان الطقس قد أصبح أكثر دفئاً. والطيور المهاجرة تعود، لكنه هو لم يلاحظ شيئاً.

وذات أصيل، وفي الساعة نفسها والمكان نفسه من الممر تقريباً، رأى، كالمرة الماضية، رجالاً يُخرجون بصمت نعشاً من إحدى الزنزانات. إنه بائع الخضار، قال في نفسه، دون أن يلتفت إلى الوراء ليتأكد أو حتى ليرى أكثر. وبعد قليل، عاوده هذا المنظر، وهو جالس


Twitter: @ketab_n

في سيارته السائرة المترجرجة مع دوران دواليبها. لكنه لم يلبث أن طرده من خياله. ومن وراء الزجاج، وعلى ضوء الشمس الغاربة المحمر، رأى رؤوس الأعشاب في أول انبثاقها من الأرض، في الحدائق التي ما تزال أشجارها عارية.

في المنزل وجد خاله الأكبر، الحاكم مع زوجته وبعض الأبناء. لم يكن قد عاد إلى العاصمة منذ إعدام كورت. وكانوا يتحدثون فيما بينهم عن خطوبته. كانت عينا أمّه مبللتين، وكان الربيع قد نجح في الوصول إليهما.

وبذهن ذاهل راح يستمع إلى كلامهم دون أن يقول شيئاً. وبنوع من المفاجأة، وكأنه قد اكتشف ذلك لتوّه، قال في نفسه إنه قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره. فمنذ دخوله إلى قصر الأحلام حيث يمر الوقت وفق قوانين أخرى، لم يفكّر أبداً، تقريباً في عمره.

وإذ شجّعهم صمته، راحوا يتحدثون بثقة أكثر، عن الفتاة التي اختاروها له: تسعة عشر عاماً، شقراء، كما كان يحبّهن هو...

وكانوا يديرون الحديث حول هذا الموضوع بعناية كبرى، كأنهم يمسكون بأيديهم كأساً من الكريستال. لم يقل نعم أو لا. وخلال الأيام التي تلت، امتنعوا عن التحدث إليه بذلك، كأنّما حرصاً على عدم إفساد النجاح الذي اعتقدوا أنهم قد حققوه.

ومر الأسبوع دون أية قصص هامة، باستثناء حفلي العشاء اللذين أقامتهما والدته على شرف أخيها. وجاء النحّات المكلّف بزخرفة مقابر آل كوبريللي، يعرض عليهم نماذج الكتابة الجنائزية التي ستحفر على شاهد قبر كورت، وتصاميم الزينة البرونزية التي ستظلله.

في الأسبوع التالي كان مارك عليم يعود كل ليلة متأخراً. كان مرهقاً بالعمل أكثر من المعتاد، فقد طلب السلطان تقريراً حول النوم


Twitter: @ketab_n

والأحلام على مستوى الإمبراطورية كلها. فمددت ساعات العمل في كل أقسام (سريا طابير). وكان المدير العام ما يزال مريضاً، وعلى مارك عليم بالتالي أن يحرر بيده النص النهائي للتقرير.

من وقت لآخر كان يشعر، وهو جالس على مكتبه، برأسه يثقل. وقد حصل له أن نظر بتعجّب إلى الأوراق الموضوعة أمامه، والتي أصبحت سوداء، وكأنه ليس هو من كتبها بيده.

إنه ينام هنا، ثقيلاً، نوم واحدة من أوسع إمبراطوريات الأرض: أكثر من أربعين جنسية، كل الطوائف الدينية، تقريباً، وكل الأعراق. حتى ولو أن هذا التقرير قد تعلّق بالكون كله، فإن بقية هذا الكون لم تكن لتضيف إليه شيئاً ذا شأن. إذن ففيه، بشكل ما، نوم الكرة الأرضية كلها: ظلمات مخيفة ولانهائية، حفرة دون قعر، يحاول مارك عليم أن يغوص فيها على بعض أطراف الحقيقة.

وربما لم يكن (إيبنوس) نفسه، إله النوم عند الأغريق، يعرف ما يعرفه هو عن عالم الأحلام.

ذات يوم، بعد الظهر، تناول من مكتبته، قصّة تاريخ أسرته. كانت آخر مرّة ألقى فيها نظرة عليها، في تلك الصبيحة الباردة، التي كان عليه فيها أن يذهب، بعد تعيينه مباشرة، إلى هذا القصر، الذي يشغل اليوم إدارته. وبينما كانت أصابعه تنزلق من صفحة إلى أخرى، لم يكن قد توصّل بعد إلى معرفة ما يفتّش عنه فيها، ثم أدرك أنه لا يفتّش عن شيء، وأنه يستعجل شيئاً واحداً: الوصول إلى النهاية... حيث تصبح الصفحات بيضاء... كانت هذه هي المرة الأولى التي يخطر فيها بباله أن يضيف شيئاً إلى هذه القصة الممتدة قروناً. ظلّ لحظة طويلة دون حراك، وعيناه مركزتان على السجلّ، أحداث هامة


Twitter: @ketab_n

قد حصلت: الحرب مع روسيا انتهت لتوّها، اليونان انفصلت عن الإمبراطورية، بقية البلقان في حالة غليان.

أما ألبانيا... من جهتها... ألبانيا، تغيم، تحتجب، ككوكب بعيد وبارد، وتكبر المسافة بينه وبينها. ويتساءل عما إذا كان لديه فقط، معرفة واعية بما تشتمل عليه... ظل برهة على هذه الحال، مرتاباً. والقلم يثقل في يده، إلى أن نزل، ولامس الورقة، وبدلاً من كلمة ألبانيا كتب كلمة: هناك. تأمّل هذا التعبير الذي حلّ محل اسم وطنه، فأحس فجأة، في تلك اللحظة، بثقل ما كان ضميره يسمِّيه: الحزن الكوبريللي... عبارة لا وجود لها في أية لغة في العالم، لكنها تستحق أن تدخل كل اللغات.

هناك... يجب أن يكون الطقس الآن ثلجياً. لا بد أنها تمطر ثلجاً... لم يضف شيئاً آخر. وبحركة فجائية، رفع قلمه، وكأنه قد خاف أن يظل مسمراً هناك، فريسة افتتان ما.

وكان عليه أن يتغلّب على اضطرابه، ليتابع الكتابة وبأسلوب قريب من أسلوب القصة، يروي إعدام كورت كوبريللي، وتعيينه هو على رأس قصر الأحلام. ثم تجمّد قلمه من جديد في يده، وفكّر بذلك الجد الأول المسمى جون، الذي كان، قبل عدة قرون، يعمل ذات يوم شتائي، في بناء جسر، وقد بنى مع الجسر اسمه. فكانت في هذا الإرث العائلي، كرسالة سريّة، نبوءة القدر الذي سيواجهه آل كوبريللي، جيلاً بعد جيل. فلكي يكون الجسر متيناً، قاموا بالتضحية برجل في أساساته. وعبثاً مرّ كل ذلك الزمان من حينه، فآثار الدم المسفوك ظلت باقية حتى أيامهم... كي تظل أسرة كوبريللي صلبة متينة.

وربما كان هذا هو السبب الذي جعل آل كوبريللي يغيّرون لفظ


Twitter: @ketab_n

اسم عائلتهم إلى كوبرولو، ليتجنبوا وضوح ارتباط اسمهم بذلك الجسر. مثلهم مثل أولئك اليونانيين القدماء، الذين كانوا، إذا ما شاركوا في جنازة ميت، قصّوا شعورهم، كي لا تتمكن روح الميت أن تتعرّف إليهم، وتؤذيهم، إذا ما انتابها غضب ما.

لم يكن هو نفسه يجهل ذلك، حتى ولو أنه كان يحسّ أحياناً ـ كما في تلك الليلة المشؤومة ـ برغبة لاهبة، في أن يرمي هذا القناع الواقي، هذا الجزء الثاني الإسلامي من اسمه، كي يعود فيأخذ اسماً من تلك التي كانت في الماضي تجتذب الخطر، وتتسم بالقدر السيئ.

وكتلك الليلة، راح يردِّد لنفسه، مارك جرجي أورا ـ مارك جورج أورا.. قلمه ما يزال في يده، وكأنه متردد في أن يضع توقيعه أسفل القصة القديمة.

عصر يوم من أيام آذار (مارس)، وضع نقطة النهاية في آخر تقريره. وحوّله إلى مكتب النسّاخ لينسخوه. ثم اتجه وهو يشعر بزاحة نسبية إلى سيارته، ليعود إلى منزله.

كان من عادته أن يتقوقع في عمق المقعد الخلفي، في الظل، حيث لا تستطيع نظرات الفضوليين الذين يملأون الشارع غالباً، أن تبلغه.

وهكذا فعل ذاك اليوم. لكنه، بعد أن قطع جزءاً من الطريق أحسّ بشيء يجذبه نحو الباب... شيء ما، هناك، وراء الزجاج، كان يدعوه بإلحاح. وانتهى بأن كسر عادته، وقرّب رأسه، ومن خلال طبقة الغشاوة الرقيقة، التي كوّنتها أنفاسه على الزجاج، تبين له أن عربته في وسط الحديقة المركزية.

إن أزهار اللوز مزهرة، قال في نفسه بانفعال. راودته فكرة أن يعود إلى عمق المقعد، كما كان يفعل دائماً كلّما شدّه شيء إلى


Twitter: @ketab_n

الخارج، لكنه كان عاجزاً عن الحركة. هناك... وراءه... على بعد خطوتين... هناك كان يعرف... يتم تجدّد الحياة. الغيوم التي أصبحت دافئة... طيور اللقلق والحب... كل ما حاول أن يتجاهله كي لا يفلت من أسر قصر الأحلام.

أحسّ بأنه إذا كان ينزوي هناك، في آخر العربة، فذلك تماماً لكي يحمي نفسه.

وأنه في اللحظة التي يستجيب فيها لجاذبية الحياة، سيترك هذا الملجأ. ففي لحظة الخيانة، سوف ينتهي هذا الافتتان، وعندها، إذ تجري الرياح عكس سفن آل كوبريللي، سوف يأتون ذات أصيل كهذا، ليقتادوه، كما فعلوا مع كورت، أو ربما بتحرّز أكثر، إلى حيث لا عودة.

كانت الصور تتكسَّر، وتتلوَّن بألوان قوس قزح. عندها أدرك أن عينيه كانتا مغشيتين بالدموع.

رغم كل هذه الأفكار التي كانت تتوارد إلى ذهنه، لم يُبعد وجهه عن الزجاج. سوف أوصي من الآن بأن يحفر شكل غصن من اللوز المزهر، على قبري.

وبراحة يده، راح يمسح بخار أنفاسه عن الزجاج. لكن المشهد المنبسط أمامه لم يصبح أكثر صفاء.

* * *


Twitter: @ketab_n

# المحتويات

I: الصباح ..... ٥
II: الفرز ٣٩
III: التفسير ..... ٧٣
IV: يوم إجازة ..... ١١٧
V: الملفّات ..... ١٣٥
VI: العشاء ١٦٣
VII: اقتراب الربيع ..... ١٩٩

* * *



Twitter: @ketab_n

# هذا الكتاب

«مارك عليم» يعمل في مؤسسةٍ هي الأقوى والأكثر رعباً وسريّة في العالم. فهي مؤسسة تعمل على جمع أحلام البشر في مكان واحد، ومن ثَمّ تقوم بفرزها وتصنيفها وتحليلها بهدف قراءة مصير الإمبراطورية ومصير طاغيتها.

ويترقى «مارك عليم» في دوائر تلك المؤسسة القوية، ليصل في خاتمة المطاف إلى منصب رئاستها. غير أنه لا يلبث أن يصبح مسكوناً بهاجس أن تسحقه البيروقراطية الجهنمية التي يديرها كما سحقت الكثيرَ غيرَه.

إن قصر الأحلام ـ مركز مملكة الظلمات ـ هو بمثابة نموذج لبوليس الضمائر؛ بوليس قد ساند، ولا يزال، الديكتاتوريات السياسية في العالم أجمع.

ألا يذكّرنا هذا بوضع كلّ فردٍ منا في نهاية عصرنا البربريّ هذا؟

ISBN 978-9933352554